

صبري موسى

Amly

فلسفة الأمكنة

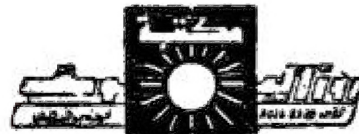
الرواية الفائزة بجائزة الدولة

هبری موسی

فساد الأمكنة

Amly

فبرایر ۱۹۷۶



هذه الرواية :

فى ربيع عام ١٩٦٣ ، أمضيت فى جبل « الدرهب »
بالصحراء الشرقية قرب حدود السودان ، ليلة ، خلال رحلتى
الأولى فى تلك الصحراء ٠٠ وفى تلك الليلة ولدت فى شعورى
بذرة هذه الرواية ٠

ثم رأيت الدرهب مرة ثانية بعد عامين ، خلال زيارة
لضريح المجاهد الصوفى أبى الحسن الشاذلى المدفون فى قلب
هذه الصحراء عند « عيذاب » ٠
وفى تلك الرؤية الثانية للدرهب أدركت أننى فى حاجة
لمعيشة هذا الجبل والإقامة فيه ، إذا رغبت فى كتابة هذه
الرواية ٠

وقد وافقت وزارة الثقافة على تفرغى من نوفمبر عام ١٩٦٦
الى نوفمبر ١٩٦٧ للإقامة فى الصحراء حول الدرهب ٠٠
للتفكير ومحاولة الكتابة ٠٠٠

ولكننى بدأت فى كتابتها وعام ١٩٦٨ فى أوله ٠٠ ثم
انتهيت منها وعام ١٩٧٠ لم يبدأ بعد ٠
وقد نشرت سلسلة بمجلة « صباح الخير » الأسبوعية خلال
عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ٠ ثم نشرت طبعتها الأولى كاملة فى
العدد (٢٠٤) من الكتاب الذهبى الذى صدر فى يوليو ١٩٧٣
وفى عام ١٩٧٤ فازت « فساد الأمكنة » بجائزة الدولة
التشجيعية للرواية ٠٠

وفزت أنا بوسام الجمهورية للفنون ، من الطبقة الأولى ٠

اسمعوا منى بتأمل يا أحبائى . نانى مضيقكم
اليوم فى وليمة ملوكية . سأضعكم نيب عدد
جبيا لم يعهده سكان المدن . بينما أحرك
أرغن لسانى الضعيف وأحكى لكم سيرة ذلك
المأساوى نيكولا .. هذا العجوز الذى أعطته
أمه اسم قديس قديم حين ولدته فى ذلك
الزمان البعيد ، فى بلدة لم
يعد يستطيع أن يتذكرها
الآن .. ذلك الذى كانت
فاجعته فى كثرة اندهاشه،
وكان كل شىء يحدث أمام
عينيه جديدا يلقاه بحب
الطفل ، لدرجة أنه لم
يتعلم أبدا من التجارب !



الدرهيب ملمح شبه نهائى ؟

لو أتيح للملمح أن يكون مرثيا لطائر يحلق عاليا ، محاذرا فى دورانه المغرور أن تصطدم رأسه المريشة بقمم الصخور ونتوءاتها ، لرأى الدرهب هلالا عظيم الحجم ، لابد أنه قد هوى من مكانه بالسما فى زمن ما ، وجثم على الأرض منهارا متحجرا ، يحتضن بذراعيه الضخمتين الهاليتين شبه واد غير ذى زرع ، أشجاره نتوءات صخرية وتجاويف ، أحدثتها الرياح وعوامل التعرية خلال آلاف السنين ..

ولعل ذلك الطائر المرتفع لو دقق البصر وحدده ، يرى نيكولا العجوز ، ذلك المسمى بأسم قديس ، عاريا هناك تحت شمس أغسطس الجهنمية .. وسط ديكور فيج ، من بازلت وجرانيت ، وأحجار أخرى جيرية وبحرية متكلسة .. تشكل وهادا أحيانا وتلالا أحيانا .. يقف هناك نيكولا ، كما قرر لنفسه ، على قمم خادعة متزلجة ، مؤرجحا على حصى دقيق من الأسبستوس وبلورات الرخام ذات الأسنة القاطعة .. والقواقع المهشمة من مليون ألف عام ..

يفغ هناك نيكولا الذى لا وطن له .. عارب ومصبوب غنى غمرغ
المتأجج الحرارة وحده .. تلمفحه ريج الصحرى عارمة بين حن
وحين .. فلا يمكنه أن يدخر منها ملء قبضته ..
كذلك يفعل نيكولا كل يوم ! ..

وباستطاعه ذلك الطائر - وليكن واحدا من تلك الصغور
الشرقية البنية الريش ، الصفراء المخالب والمناكير - أن يراه كل يوم
فى نفس الميعاد ، على صليبه المتخيل والحتمى معا ، لو جاء محلقا فوق
الدرهيب خلال رحلته من بئر شلاتين وجبل الأبرق ، وعبر القمم
المتألقة بياض الريش فى جبال زرقة النعام .. الى وليمة الجثث فى
وادى الجمال حيث تموت انثيات الابل أحيانا من عنف الجماع .
ولكن .. حتى الصقور نفسها تمتنع عن الطيران والشمس فى
كبد السماء .. وهكذا يبقى نيكولا يمارس طقوس عذابه وحده ، غير
مرئى الا من السماء التى بهتت وأقشعرت وتحيرت جدا ، من هول
أفعاله التى يستعيدنها فى رأسه ! ..

وما تكاد الشمس تنحرف عن مجلسها العمودى فى رحلتها
التأنية الى الغرب ، فى ذلك الفراغ الصحراوى المضمخ برائحة الجبال
المزهوة بعريها تحت الشمس ، وتكون الصخور الحمراء قد بدأت
تشع لهما .. والصخور السوداء تكون قادرة على طهى الخبز .. عند
ذلك يدرك نيكولا المأساوى أنه غير جدير باحتمال العذاب بهذه
الطريقة .. فيدحرج جسده العارى من القمم المتزلجة هابطا الى مأواه
فى بطن الدرهيب .. ليواصل الطقوس بطريقته الاخرى .

فى بطن الدرهيب يختلف الأمر ..

فالكان هنا حافل بمخلوقات البشر .. حيث يتقوس باطن
الدرهيب .. وتنحدر قمته الى السفح ، عند المنتصف تقريبا ،
تستوى الأرض وتصبح ممهدة .. شبه دائرة أولا حيث أقيمت
البيوت الخشبية ودورة المياه .. ثم تنبعج الدائرة الممهدة .. مكونة
فناء أمام البهوت الثلاثة تتناثر فيه بقايا الحشب وعادم الآلات وبقع
الزيت السوداء وبراميل الصاج .. وينبعج الفناء مكونا دربا ضيقا
يصعد حيناً ثم يبدأ فى الغوص بين الصخور .. يغوص ويغوص ،
حتى يصبح نفقا منحوتا مكشوف السقف على الفضاء .. وحينئذ

يواجه المرء فوهة الدرهيـب ٠٠ مدخله ٠٠ الباب الذي يقود الى كنوزه
وجواهره ٠

لكن الكنوز والجواهر قد أصبحت مهجورة حين حمل الجميع
متاعهم عن الدرهيـب ورحلوا ، فما عاد باستطاعة أحد أن يهبط فى
جوفه الآن سوى نيكولا الوحيد ٠٠ ففى الجوف طرق طويلة وممرات ،
وغرف على الجانبين ٠٠ وميادين ٠٠ على عمق ألف متر من ذلك المدخل
المسحور ٠٠ وعلى امتداد عشرات الكيلو مترات ، فى تلك الأنفاق التى
تنوسدها قضبان حديدية تسير عليها عربات نقل الأحجار والحامات
رسمها نيكولا كلها وخططها بعقله الخبير ٠

لقد وقف هنا نيكولا فى جوف الدرهيـب ملايين المرات على مدى
السنين ٠

فى السرايب الحارة والسرايب الباردة ، فى الكهوف البيضاء
المظلمة بالأخضر الشديد القنامة ، فى ذلك المناخ الثلجي حيث تحيط
به وكأنها سيوف مشرعة أسنان خامة التلك الشمعية التكوين ٠٠
وقف نيكولا الطيب ورسم للرجال ممرات أقدامهم فى جوف
الدرهيـب العظيم ٠٠ بل أنه جعلهم يلمسون قلبه الداخلى بأيديهم
الحسنة ٠٠ ومع ذلك رحل الجميع ، تاركين خلفهم ما ثقل عليهم حمـله
وفكروا لجراتهم أن يأخذوا نيكولا معهم ! ٠

ويبصق نيكولا من فمه ترابا صحراويا حملته الريح ، ويلعق
حلقة الجاف بلسانه الجاف ويبرطم بلكنة ركيكة سسابا عربيا وهو
يتأمل الفناء المخرب والمهجور أمام البيوت حيث كانوا يروحون
ويحيئون ، يعملون ويأكلون ويلعبون الورق ويشربون صاخبين أو
شاكين همومهم ٠٠

لقد أخرجوا جميعا محاسنهم ومبازلهم وقدموها على تراب هذا
الجليل وصخوره ، قرايين فطنة وخلاعة ٠٠ فما أغباهم حين يهجرون
أرواحهم الحقيقية ويرحلون ٠
لكن تلك طبيعة الأشياء ٠

فهم قد جاءوا كثيرا ٠٠ ورحلوا كثيرا ٠٠ ودائما كانوا قادرين
على أن يأخذوا أرواحهم الحقيقية معهم ٠

ودائما كان يبقى نيكولا مع الدرهيـب وحده ٠

لقد هربوا .. جميعهم هربوا ..

يقولها نيكولا محتدا ، ثم يلين صوته ، وترق نبراته ، وكأنه
يحنو على جنبهم وفرارهم .. وكأنه موقن أن طاقته على الاحتمال
فوق طاقتهم ، وأنهم فى النهاية أحرار مستقلون عن المكان لا يشدهم
إليه ذنب أو تربطهم به خطية .. فليس منهم من ضاع أبنته فى
باحة هذا الجبل ، وعلى وسادة من صخور ، وأولدها طفلا ، ثم سرقه
منها وهي نائمة ليطعم منه الذئب والضبع !

وليس منهم من قاد تلك الأبنة فى سراديب الجبل المظلمة
ودهاليزه الحارة والباردة ، ومضى يدفعها أمامه فى مسيرة جنائزية
حتى تنتهى السرايب المطروقة وتبدأ السرايب المهجورة ، تلك التى
لم تطرقها قدم من مئات السنين ، فيتركها هناك بعد أن يغلق عليها
كهفا بانهييار صخرى غادر .

لقد صرخت إيليا وهي ترى الصخر ينطبق على باب الكهف
ويحبسها بداخله .. وأخذت تهبش الصخور فى محبسها المظلم
بأظافرها الجذابة الملونة ، بينما صرختها تتسرب عبر السرايب
وتتردد فيها حتى بعد أن أمتلا حلقها بتراب الأنهييار ، وكفت عن
هبش الصخور وبدأت تهبش فى عنقها الجميل بأظافرها الجميلة ،
قبل أن تسكن حركتها ، كانت الصرخة ماتزال تتردد فيسمعها
نيكولا خلال هرولته المذعورة فى السرايب ، كأنها تطارده لتمسك
به وتعيده الى إيليا .. وكأنما الألم المنعم واليأس والدهشة فى تلك
الصرخة المفجوعة تعاتبه وتدعوه للبقاء معها .. كأنها تلوح له بعالم
مسحور هما كفيلا بخلقهما فى تلك الصخور الصماء ليعيشاه معا ،
جنباً الى جنب كما كانا دائما .. رجل وأبنته .. أو رجل وأمه ..
أو رجل وأمرأته المعشوقة والمفضلة !

فأين لهؤلاء الهاربين جميعاً رباط دموى كهذا يمنعهم من
الفرار ؟

يتوجع نيكولا وهو يلوى رقبتة ، ويزيح العرق المترب الذى
ينثال غزيراً من جسده العارى المترب بكفه الكبير المتربة ، فيصبح
التراب ملء مسامه جميعاً .

وبينما الشمس تصبغ الفناء أمام البيوت الخشبية بضوئها

النارى ، فيبدو التراب والرمل رماد أحترق صخور هذا الفناء بذلك الضوء النارى .. يدلف نيكولا الى بيته الخشبي .

فان صحبناه رأينا البيت غرفة واحدة ، فى جانب منها سرير حديدى من ذلك النوع الذى يستخدمه مرضى المستشفيات ورجال التعدين وضباط الجيوش ، وفى الغرفة كثير من الأحجار المختلفة او الادوات التى توحى بحياة متطرفة لمهندسى المناجم .. وعلى الجدران الخشبية خرائط للصحراء .. ولم يكن نيكولا قد بلغ طعاما فى يومه ذاك ، يتذكر ذلك حين يرى على المائدة الحديدية علب السمك المحفوظ ، فيزعم شفتيه مقطبا وكأنه يرفضها .. ويتناول زجاجة الحمر فيجدها فارغة .. وكان قد تناولها بالأمس ووجدها فارغة أيضا وسوف يتناولها بعد حين ويجدها أيضا فارغة .. فكيف تجيء الحمر الآن فى هذا الفراغ !؟

يكون نيكولا العجوز مايزال حافى القدمين .. جسده الأوروبى الأصل قد أكتسب سمرة غامقة أصيلة ، وشعر رأسه الغزير قد أبيض تماما وصار فى لون القطن ، ولم يكن نجولا كما أنه لم يكن سميئا .. فمد يده الى زجاجة السبرتو الأحمر ، وصب منها فى جوفه جرعة ، فأشتعلت النار فى داخله .. وضغط بذراعيه على صدره وبطنه حتى لا يتلوى من ذلك الألم الذى يعرفه جيدا .. لكن بعد قليل يغيب الألم ، ويصعد بخار التخدير الى عقله المضنى ! .

ومشى نيكولا الى رقعة الشطرنج على مائدتها الخشبية الصغيرة فحملها وخرج بها الى الفناء ، وكانت على الرقعة بعض قطع الشطرنج بلونيهما القديمين الاحمر والاسود ، باقية فى أماكنها من دور بداءه نيكولا منذ يومين فأخذ يتأملها وهو واقف فوقها عاريا .

كان الملك الأحمر يواجه تهديدا مباشرا من الوزير الأسود فى حماية الفرس .. وكان الملك الاسود يواجه تهديدا غير مباشر لكنه قاتل من الطابئين الحمراءين .. وكان الأسود غالبا ، واللعب للأحمر .. فمد نيكولا يده وهرب بالملك الأحمر الى بيت فرسه .. ثم أستدار وعاد الهجوم على الملك الأحمر بالطابية السوداء من بيتها تحت الوزير .. ووقف يفكر عاريا ، ثم تراجع بالملك الأحمر الى ثانى فيله .. وظل نيكولا يهجم ، ويستدير ليووجه الهجوم ويتملص منه

ولم يكن بذلك يتسلى أو يقطع الوقت .. فهو نفسه اللاعب والحصم هو الأحمر والأسود معا ! .

ويدخل نيكولا بيته الخشبي بين نقلتين على الرقعة ، فيجرع من السبرتو جرعه أخرى ، ثم يخرج الى الفناء يتلوى ليواصل الهجوم والصد كما قرر لنفسه في طقوس عذابه .. لكن النتيجة كانت معروفة وحتمية ، فلا بد للدور من مهزوم فى النهاية .. وكانت عظمة نيكولا فى أنه يعرف تلك النتيجة سلفا ، ومع ذلك يواصل اللعبة !
ما أغرب تلك الرقعة ، تجرى عليها تلك القطع المنحوتة بصورة تماثيل للناطق والساكن على درجات ومراتب ، فالشاه فيها هو الملك ، والفارس والفيصل مركوبان له ، والفارس وزيره والرخ أو الطابية حصنه وملجأه ، أما البيادق فرعاياه .. يخرجون جميعا من كيس واحد . الشاه والفارس والفلاح .. فيحظى كل منهم بنصيبه حسب قدره وقدرته .. وكان قدر نيكولا هو الفشل ، ولهذا كان الفشل نصيبه .. وها هو على صليب عذابه الخفى يواصل هذا الفشل المقدر ويكرره . كأنه ذلك الأغريقى القديم ، يزحف بصخرته صاعدا القمة المستحيلة ، فما يكاد يعلوها حتى تسقط الصخرة ، فيعاود الهبوط ليصعد بها .. ويظل كذلك حتى تختفى الشمس فى الغرب تماما .. ويزحف اللون الأسود كثيفا على أصفر الصحراء وأحمرها وأخضرها فيكسوها جميعا .. ويتحول الحر اللافح الى نسيم لافح ثم الى برد لافح . وتصبح الجبال اشباحا خرافية فى ذلك المدى اللانهائى .. وتتعدر الرؤية على نيكولا فيحضر بطانية ويلتف فيها ، ويقبع مسندا ظهره الى صخور الدرهيب التى بدأت فى التشلج ، حتى يظهر فى شرق السماء كوكب المريخ باحمراره القرنفل الخفيف مطلا فوق جزيرة العرب .. ويبدا المشتري فى الغرب يتأرجح بعيدا فوق صحراء ليبيا .. فيسبح عقل نيكولا فى الملكوت ! .

الفصل الثانى

كانوا يتحدثون عن الوطن فيتحسر نيكولا ، الذى لا وطن له ،
وينزوى منكسرا منسحبا من الحديث ٠٠ فأى وطن ذلك الذى يمكنه
أن ينتسب اليه ٠٠ ؟!

لقد هاجرت عائلته وهو طفل فى العاشرة من احدى المدن
الروسية الصغيرة ٠ وأستقر أبوه فى اسطنبول طيبيا للاستنان ،
وكان ذلك آخر ما يعلمه عنه ٠ بينما كان يقطع الأرض مهاجرا ، دائما
مع أخويه ، فيترك كل واحد منهما فى مكان ٠

لقد سرق نيكولا المعرفة من بحر التجوال ، لكن ثمن هذه
المعرفة كان فادحا ٠٠ فعلى مدى عشرين سنة أخرى كانت خطابات
أخويه قد فقدت طريقها اليه فلم تعد تستطيع متابعته فى تلك الهجرة
الدائمة ٠٠

وكان قد استقر استقرارا جزئيا فى احدى المدن الايطالية
حيث تعرف على امرأة فى جانب من المدينة ٠٠ وتعرف بأحد مهندسى
التعدين فى جانبها الآخر ٠

كانت المرأة قوقازية مهاجرة .. نحن الحلقة الثالثة من عمرها مسلحة بجمال حاد ، يأخذ الحواس ويغمرها برجفة نشوة موعودة ، عند الرؤية الأولى . وكان هو في ذلك الوقت مولعا بالنساء .. كان ولعه بالنساء أبرز ما فيه ، ومع ذلك كان هذا النوع مشوبا بنعومة أو ترو ، يكاد يشبه العفة ، وكان ذلك متناقضا مع ما حوله في مكان من الأرض معبأ باليود .. يسميه الجغرافيون حوض البحر الأبيض مكان من الأرض تعتبر المرأة فيه علفا لأسماك الشبوة .. ولعل ذلك قد أصبح حكما تاريخيا الآن ، فلقد أصبحت المرأة علفا لأسماك الشبوة المستوحشة في كل مكان ..

قالت له القوقازية ، سأكررك يا نيقولا ، واسمرك في الأرض بهذا التكرار .. ولن أجعلك قادرا على هذا التحليق المستمر من مكان الى مكان .

لعل عفنه المزيفة هذه قد جذبتها .. قد اشعلت طاقاتها وحفزتها للحصول عليه .. كان دائما يحلم مع كل منهن بحب نادر وتفاهم يبلغ حد الكمال ، لدرجة ان يكون بإمكانهما التحليق معا في سماء الامكنة جميعا ، التحليق الدائم ، وليس الانزواء في برائن دفء مكان واحد ، وأمنه وراحته .

لكن جناحين أكثر حرية وانطلاقا من اربعة اجنحة .. فلا يملك حبه قبل ان يتبلور سوى أن ينقلب الى صداقة عميقة وحزينة لم يكن بوسع واحدة منهن فهمها .. فكان يصبح صداقة من طرف واحد وحبا من طرف الآخر .. فأتاح له هذا تحررا شبه كامل من المكان .

ولعل هذا التناقض هو الذي جذب اليه ايليا الاولى « زوجته » تلك القوقازية المهاجرة ، التي تعرف بها في احد شواطئ إيطاليا ، تنصب الفخاخ للعشاق ، مسلحة بجمال حاد يغمر الحواس برجفة نشوة موعودة ، عند الرؤية الاولى .

كانت تدير مطعما مع ابيها على الشاطئ ، وكان ابوها جلفا غليظ الخلق ، يضربها امام الزبائن .. وحين جاء نيكولا يطلب عملا في ذلك المطعم اعطته نفسها .. لم يكن قد مر على التحاقه بالعمل ساعات ست أو سبع .. ولم يكن قد تعرف بعد على فراشه الجديد

فى مؤخرة مخزن الادوات بالمطعم حينما اقتحمت ايليا خلوته واعطته
جسدها للمرة الاولى . . لكنها لم تستطع ان تمتلكه بتلك الطريقة
. . كان جسده معها وروحه تحلق بعيدا متطلعة الى امكنة جديدة
ومتنوعة لم تحلق فيها بعد بينما هى تحسده عن المطعم ومشروع
الكازينو الذى تحلم به عاليا على تلك الصخرة المطلة على الشاطئ
مغمورا فى أضواء خافتة ، يهجع بينها العشاق تحت اشجار صناعية
يتبادلون هواهم المشبوب الذى يبدو لهم لا نهائيا .

كان الاستقرار مسعاها ومأملها ، وكان هو شابا لبن المبادىء
لم تنضج احكامه بعد . . فرضخ لها وتزوجها ، فأنجبت له ايليا
الصغرى .

قالت له : سأكرر يا نيكولا وانجب من صلبك ولدا يسمرك فى
الارض ويثقل اجنحتك عن الطيران .
لكنها انجبت بنتا . . ولم يجد هو ما يعوضها عن حبه الذى
تحول الى صداقة سوى ان يكررها . . فسمى البنت ايليا .

وأصبحت له فى الحياة امرأتان تسميان ايليا . . تربطه بهما
مشاعر صداقة عميقة فشلت فى ان تكون حبا . . احدهما زوجته ،
والثانية ابنته .

وحين بدأت ايليا الكبرى ترسم الخطط للتخلص من ابيها الذى
يقف عقبة امام مشروعاتها فكرت فى الاستعانة بنيكولا ، قالت له ان
ضربة على مؤخرة الرأس لن تضر أحدا . . وستريح العجز من كل
تعبه الذى يتعبه تحت الشمس فيذهب الى ملكوت الرب اللانهائى
مصحوبا بدعواتهم واعترافهم بفضلهم واريجيته اذ يترك لهم هذا
الراسمال الممتاز يصنعان به مستقبل ايليا الصغيرة .

لكن نيكولا فى تلك الايام كان يكثر من لقاء صديقه مهندس
التعدين المغامر وكان صديقه يلوح له بأرض عظيمة ذات تاريخ
حافل ، يشقها النيل ويمتد بها الى حافة البحر قادما من صحارى
هائلة ، بهه جبال تحوى انواعا متنوعة من كنوز المعادن . . ارض
لا يحكمها اهلها . ينزح اليها كل راغب فينقب ويعثر ، ويستخرج
ترخيصا للحفر ، فيصبح مالكا لواحد من هذه الجبال العظيمة التى
لا يملكها حتى الان أحد .

فأستولى الجموح على نيكولا واخذ يحلم بنفسه مالكا جبلا
يؤكد تفرده في ذلك الكون الواسع .
كان رأس العموز والد زوجته قد اصبح على بعد خطوة واحدة
من ضربة المؤخرة التي تحمله الى ملكوت الرب ، عندما نكص نيكولا
على عقبيه ، وارتد الى صديقه المغامر فركب البحر معه مبحرين الى
الشمال . . تاركا وراءه امرأته الصديقتين اللتين تسمى كل منهما
ايليا .

هل مضت على ذلك الان خمسون سنة . . ام اربعون .
هو الان عبر هذا الزمان الطويل الماضى يدرك وهو يطل من
عزلته الشاهقة فوق الدرهيب انه قد رسم لايلى الصغيرة صديقه
الحبيبة ، ابنته . . دون ان يعتمد ذلك او يقصده . . مستقبلا
مناقضا لهذا الذى كانت تحلم لها به امها ، ايليا الكبرى .

بل انه رسم لها ايضا تلك النهاية التعسة . . حية وميتة في
الوقت نفسه . . فى كهف مهجور ومغلق بالصخور فى الاحشاء
العميقة لهذا الجبل . . الذى يمم وجهه تجاه الصحراء مع صديقه
المغامر ، المهندس ماريو ، وهو يحلم بامتلاكه . .
والان .

ها هو نيكولا المأساوى يمتلك جبلة فعلا . . فأى ثمن رهيب
ذلك الذى دفعه فيه ؟
كانت الجبال منطوية على أسرارها والصحراء غامضة مغلقة
على سكانها من قبائل البجاة . . اقدم شعوب افريقيا الذين جاءوها
من آسيا . . أقارب نيكولا واصهاره القدامى ، الذين يرجح الرواة انهم
فى الغالب من سلالة كوش بن حام ، الذين هاموا على وجوههم بعد
الطوفان .

كانوا وثنيين الى ان جاء الاسلام فاعتنقوه لكنهم ظلوا على
بداوتهم ، ولغتهم ، ليكونوا جديرين بذلك العناد التقليدى المشهور
عنهم . . فعلى الرغم من قسوة الحياة فى الصحراء ، وجذب الوديان
معظم الحول ! وجفاف الابار . . الا انهم ظلوا لاصقين بصخور هذه
الجبال فى اصرار ، يتكاثرون فيها ، وينقسمون الى فروع وقبائل ،
منها البشارية ، والعبادة ، والبوجوس ، وبنو عامر . . يتناثرون
حول الابار والعيون الباقية على حالها من زمن الفراعنة واسلحتهم

سيف طويل ودرع ، ورمح أو خنجر .. وسيفهم مصنوع مثل
سيف أسير من الحروب الصليبية ، يوسدون رؤسهم حينما
يفترشون الأرض للنوم وسادة من خشب الشجر ، مصنوعة على
غرار وسادة توت عنخ آمون الذهبية ، ويهيمن بين الجبال وراء
الابل والغنم والعنز .. ويشدون خيامهم التي تصنعها نساؤهم من
سعف نخيل الدوم ، في مناطق الرعي على السهل الساحلي من بشر
الشلاتين في أرض مصر الى حدود مملكة السودان .. ويقعون أمامها
يسوون الحبز على الصخور ، ويرشفون القهوة السوداء المغلية ، بينما
ترعى الابل نصيبها من نبت الصحراء العزيز الشحيح .
وفي المواسم يرسلون القوافل الى السودان جنوبا ، أو قنسا
غربا ، فتبيع الابل والغنم ، وتشتري البقول والتبغ .. يتصل
النجع بالنجع ويتحلق الرجال في شبه دائرة ويتفقون على المطلوب
بيعه من الدواب ، والمطلوب شراؤه من التموين والزينة ، ثم يتهيا
المندون فيتسلمون مقاود الابل ، ويقودون القافلة عبر الدروب
المطروقة التي سواها اجدادهم القدامى بسعيهم المنتظم بين الجبال ..
فيصلون قنا على النيل في خمسة ايام .. ويصلون جبال علبة المطلة
على مشارف السودان .. في تسعة ايام او عشرة .

وحين يقترب ميعاد العودة يخرج البشاريون والعبادة وغيرهم
معن بقى بالصحراء للقاء القافلة على الماركة .. يمضون وقتهم هناك ،
يرصدون الافق .. عساهم يلمحون القافلة وهي تعود .. يكون
الحرمان قد اضناهم ، والشوق الى الاشياء القادمة من وراء عالمهم
يحرك فضولهم .. حتى تجيء القافلة فيقيمون الافراح داخل
نفوسهم الشجاعة الصبورة ، ويطيرون .. وتصبح الصحراء حضرا
كاملا اذا جاءت القافلة بالسجائر والعطور والبقول والحلاوة !
في واحد من تلك الايام البعيدة والبدو قاعدون مريعين على
الماركة في دوائر ، أو جالسون ركعا على الركبتين كركوعهم للصلاة
أو مائلين على ركبة واحدة .. يرصدون الافق في انتظار القافلة وهي
تعود .. دخلت الصحراء قافلة تضم عددا من الحواجات والبكوات
والمهندسين ، تحفها كوكبة من هجانة سلاح الحدود مسلحة بالبنادق
والسياط ، احاطت بهم واخذت منهم بعضا كادلاء لها بين الجبال ..
ثم مضت تقيس هذه الجبال وتفحصها وتسألهم عن اسمائها وتسجل
هذا كله في اوراقها على مدى حول .

ثم ذهبوا جميعا عن الصحراء وغابوا حولا آخر . جاءت بعده
قافلة ثانية محملة بالمعدات وبدأت تنقب داخل هذه الجبال كأنها تبحث
عن كنز .

كنز مهم وغامض لا يعرف البدو عنه شيئا ، وهم يعيشون
بجواره طول الوقت .

استولى الفضول على البدو فى مبدأ الامر .
لكن فضولهم لم يكن ضارا ، فهم بطبيعتهم ينفرون من
الغرباء . . . فيتجنبونهم . . . وعندما حاول هؤلاء الغرباء اشراكهم فى
العمل معهم فى فتح الجبال رفضوا . . . كنوع متطرف من اعتزازهم
بفرديتهم . . . بينما استبد الفضول ببعضهم فعملوا مع هؤلاء
الاغراب كأدلاء . . . يقودونهم بخيامهم ومعداتهم فى دروب الصحراء
الفسيحة المفتوحة على الخطر طوال الوقت . . . الى جبال بعينها كان
هؤلاء الغرباء يطلبونها بالاسم . . . كان معظم هؤلاء الاغراب خواجهات ،
ليسوا من سلالة اجدادهم فى اعلى الجنوب ، ولا من سلالة احفادهم
فى اقصى الشمال . . . انما هم غربيون حمر الوجوه . . . خواجهات
جاءوا من وراء البحر الكبير المالح .

ومن خلال احتكاك هذه القلة الفضولية من البدو بهؤلاء
الخواجهات ، انكشف السر وذاع ، واصبح معروفا للبدو ما تحويه
تلك الصخور من خامات ، جاء هؤلاء الغرباء سعيا وراءها .

من سلالة هؤلاء الادلاء الذين باعوا لهؤلاء الخواجهات معارفهم
الغريزية عن هذه الجبال التى ينتمون اليها . . . ولد ايسا . . . ذلك
الذى قاد جمل نيكولا صامتا كأنه ينوء فى دخيلة نفسه باحمال فوق
طاقته . . . بينما ذلك الخواجة الجديد يتأرجح فوق الجمل مبهورا
كطفل . . . وهو يلاقى الصحراء لأول مرة .

لقد توقف ايسا مرتين فى ذلك الصباح القديم وهم يغادرون
بيت الشيخ على فى مرسى علم ، متجهين فى الصحراء الى جبل
السكرى . . . توقف ايسا مختلعا عذرا ليختلس النظر الى نيكولا
متأملا براءته وهو يحقق مثل طفل . . . مشغوبا بما تقع عليه عيناه
من مشاهد الصحراء البكر .

ولعل ايسا احب نيكولا فى واحدة من هاتين المرتين المتين
توقف فيهما ليختلس النظر .

كان الامر قد بدأ يستولى على اهتمامه منذ بلغ الرابعة عشرة من عمره وقلدته القبيلة خنجرا اعترافا منها ببلوغه سن الرجولة . . من وقتها بدأ ايسا يفحص هؤلاء الغرباء ويرصد بحماس غريزى كل افعالهم .

فى ذلك الزمان القديم . . كانت الجبال قد بدأت تتجاوب بأصداء المطارق والمتفجرات ، وامتلات الكهوف بالعمال الذين ساعدت السلطة فى اجتلابهم من وادى النيل ليفتتوا الصخر فى المغارات تحت اشراف هؤلاء الخواجات الذين أقاموا عليها نوعا متناقضا من الحياة الاجتماعية ، كان يحير ايسا ويثير دهشته .

فبينما تربع الخواجات والمهندسون فى خيامهم الانيقة ، يخططون على الورق مداخل الكهوف والممرات ، ريثما الطهاة يجهزون لهم الطعام المشوى والفواكه المحفوظة ، كان العمال فى هذه المغارات والكهوف يأكلون ما يصلب عودهم فقط تحت احمالهم الثقيلة ، يشدهم الى هذه المغارات والكهوف ذلك الاجر المميز الى حد ما . . عشرة قروش ثمنا لقوى الرجل فى اليوم . . فقد جاءوا جميعا من تراحيل الريف حيث كانت تباع قوى الرجل بقرش أو قرشين .

لقد رأهم ايسا مرة حينما زار منجما مع عمه الشيخ على ، كان صاحبه الخواجا قد طلبه فى عمل .

وصلوا المنجم فى الليل ، وكان الخواجا نائما ، فمالوا الى مساكن العمال لانتظار يقظته فى الصباح . . واضاء لهم مشعل الكربون المكان ، فرأى ايسا امامه مساكن العمال فى شبه دائرة . . أكواخ من البراميل الفاسدة واغصان الجبل الجافة والاخشاب القديمة وبعض الصخور ، بيوتا ملفقة واهية . . كان من الصعب عليه ان يتصور حياة بشرية تدب فى داخلها . . هو الذى ولد فى خيام من سعف الدوم ، مفتوحة من جوانبها على السموات والوديان ، ويغمرها الضوء بنظافة فطرية .

ولشده ما اذهله بعد ذلك ان يرى اى نوع من العمل المعجز يقوم به سكان هذه الاكواخ . . فى سراديب هذه الجبال التى ينتمى اليها .

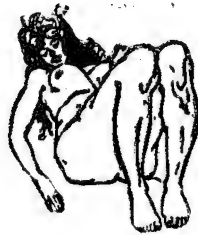
تلك الصخور العظيمة والجبارة الموجودة بمكانها فى هذه

الصحراء من وقت لايعلمه أحد .. يفعل الزمن والجو فعله فيها فتتشكل وتتحول ، وتلد بداخلها عشرات الانواع من المعادن ، وآها ايسا بعينيه وامسكها بيده فوجد لكل معدن منها لونه الخاص وشخصيته ..

فحينما تبين المجسات وجود الحامة ، يبدأ هؤلاء العمال القادمون من الوادى فى الفحت داخل الجبل للوصول اليها ، وحينما يبدأون لا يعرفون متى التوقف ، يصبح جوف الجبل مباحا ، طالما عروق الخام تلوح لهم وتجذبهم .. كأنهم آلات مسخرة لاستخراجها ، يحفرون الممرات للعبور ، ثم يمدون قضبان العربات الحديدية لنقلها خارج الكهوف .. الى حيث تحملها الجمال وترحل بها الى خارج الصحراء ..

عرف ايسا وتبين أى عمل بطولى يقوم به هؤلاء الرجال المجلوبون من وادى النيل داخل الكهوف والمغارات ، فعندما يرفع الواحد منهم مطرقته وهو على عمق اربعمائة متر او خمسمائة فى بطن الجبل ، يدرك جيدا ان من الممكن والمحتمل ان تتخلخل فوقه الصخور وتتهار ، وتسدد عليه طريق الحياة ..

ولعل ذلك كله ، كان يحمل الى ايسا بذور همومه دون ان يدري ، فما من مرة يمر فيها على منجم أو يرى فيها خواجا او تعبر به قافلة جمال محملة بالخامات فى طريقها الى البحر حتى تثمر هذه البذور وتفرخ فى نفسه غضبا كظيما ، غضبا غريزيا ، يجعله يتساءل وهو محنق محير ، عن هذه الكنوز التى يجهد هؤلاء الرجال لاستخراجها من جباله الخاصة .. من عالمه وديناه .. من حق من ؟ .. من هو صاحبها الحقيقى فعلا ؟



الفصل الثالث

يصعد الفجر الفضى من الوديان العميقة خلف جبال السكرى
وحماطة وأبو غصون وسميوكى وزرقة النعام والابرق وجبل مصرار
وغيرها ٠٠ ثم ينتشر على التلال والهضاب متسربا عبر ظلمة الليل
الكثيفة فيبدها سحبا وتلافيف ، تأخذ فى التحليق فوق القمم
المنبسطة والمدببة تجاه السماء الخالدة فوق الصحراء ٠٠ قريبة
ومستحيلة .

ومع خيوط الضوء الاولى يعثر الفجر نيكولا فيوقظه .

يكون عاريا فى بطانيته الوحيدة ٠٠ ممددا على صخور
الدرهيب التى تثلجت فعلا طوال الليل ، وبدأت الآن تفرز انفاسها
ندى رطبا ٠٠ فيتأمل نيكولا متقلبا .

ثم يبهز نصفه العارى من بطانيته وهو ينهض بشعره الكثيف
الابيض وشاربه الكثيف الابيض وحاجبيه الكثيفين الابيضين ٠٠
ويفرك عينيه ثم يستقيم واقفا بينما تنساب بطانيته على الارض حول

ساقيه ، فيتمطى محركا اضلاعه ليوقظها ، ثم يخطو عبر الصخور الصغيرة الى الفناء المهد امام البيوت الخشبية الثلاثة ، فيعبره الى بيته ، محاذرا في طريقه ان يقلب رقعة الشطرنج القائمة طوال الليل على قاعدتها الخشبية الصغيرة .

وينحنى نيكولا في جانب من البيت فيأخذ من برميل الماء كوزا يملأ به كفيه ، ويسفحه على وجهه ورقبته ، ثم يأخذ كوزا آخر ويجرعه بشغف . . ويملاً غلاية الشاي ثم ينحنى على كسر الحطب والخشب المكومة في حفرة بين صخرتين ، فينفذ عنها الرماد ، ويعيد تنسيقها داخل الحفرة . . ثم يشعل فيها النار . . ويعلق الغلاية فوقها .
وهكذا يبدأ نيكولا يومه .

سيكون الشاي المر افطاره . . وبعدها يبدأ زحفه المقرر الى قمة الدرهيبي قبل ان تكتسى سفوح الجبال بلون الذهب . . فلن تكون الشمس قد أطلت من وراء الافق الفضي بعد . وهكذا يكون نيكولا حاضرا حينما تتعري الصحراء قطعة قطعة في بشائر النور الذهبية . . عيناه تسبحان عبر السفوح والوديان قافزة فوق القمم ، وجسده عار حر تدغدغه نسيمات الصباح القادمة عبر السهول الجافة والسهول المزهرة ، محملة باريج بكر . . فيرتجف نيكولا بنشوة الشوق والشبع . . وتغمره السعادة .

في تلك اللحظات البالغة القصر ، بين الصبح والفجر ، بين الذهبي والفضي . . قبل ان يبدأ نيكولا طقوس عذابه اليومية ، يكون مبتهجا فعلا . . يعاوده ذلك الشعور القديم الذي استولى عليه ، حينما دخل الصحراء لأول مرة .

في شروق كهذا . . منذ خمسين سنة او اربعين ، ارتجف نيكولا ، واصطخب بداخله نوع من الشغف الرقراق ، الشغف الظامي ، للمستحيل ، فظن ان باستطاعته ان يبحث بعيره فيخب به مسرعا تجاه الافق المنقسم بين الذهب والفضة ، ليمسك بقرص الشمس قبل ان يقفز مرتفعا في السماء .

كان المشهد حوله اسطوريا وهو يتأرجح مرتفعا فوق جملة ، بجوار المهندس ماريو الذي يتأرجح مرتفعا فوق جملة أيضا .

وكانت وراءهم ثلاثة جمال اخرى ، تحمل العمال والادوات
والمئونة .

قال (الباشا) المصرى المسمى خليل ، شريك مارىو ، ان
بدو هذه الصحراء رعاة غنم وابل . . ويتأبون على العمل فى المناجم
وأحضر لهم الباشا من صعيد الوادى حفارين ونجارين وناقلى حجارة
حمل بهم جملا ، وحمل جملا آخر بالمئونة : الزيت والارز والدقيق
والسمن والشاى والسكر والسكرجائر . . وحمل الجمل الثالث
بالأخشاب والبارود وأدوات الحفر والمقاطف ، وقال لمارىو : أنا أمول
العمل ، وانت تقوم بتنفيذه .

وهكذا أصبحا شركاء . . وبقي معهم على العشاء فى البيت
الحشبي ائدى يملكه الشيخ على دليل الصحراء ، بمرسى علم ، فشوى
لهم الشيخ سمكا كبيرا صاده صبيانه من مياه البحر الاحمر التى
تصطفق حول جدران بيته الحشبي ، وكان الباشا قد أحضر معه
زجاجتى ويسكى ، للاحتفال بالمناسبة . وبعد منتصف الليل بقليل
نهض الشيخ على فأيقظ العمال والجمال . . وشدت القافلة رحالها
فوقف الباشا يودعهم وهو يتمنى لهم التوفيق . . ولعله ساعتهما
كان يحلم فى دخيلة نفسه بسبائك الذهب التى ستوالى هذه القافلة
الصغيرة ارسالها بعد انتزاعها من برائن هذا الجبل المسمى
بالسكرى الذهبين الان اليه .

كانوا جميعا يحلمون بالذهب بينما نيكولا مبهورا ، يحلم
بالمعرفة فى بحر التجوال .

وعلى طول الطريق الذى قطعه بين الجبال فى ذلك الصباح
القديم . . مروا بشجرتين أو ثلاث .

الشجرة تكون وحيدة فى الارض القفار فتصبح ظلا ، فيفىء
البدو بأغنامهم تحت هذا الظل ويقيمون مسكنا من الخيش ، يهدمونه
ويرحلون حين تعجز الأغنام عن ايجاد ورقة خضراء تأكلها .

ومن خلال بقع الظل هذه . كان يخرج لهم بين الحين والحين
مخلوق يعترضى القافلة وذراعه على عينيه . . ويهمهم بلغة غير
مفهومة وهو يلوح لهم بسيفه الطويل الصدى . . فيصب له الشيخ
على قليلا من الماء فى وعائه ، ويعطيه سيجارة ، فيبقى الرجل على

الارض ويأخذ في التدخين بينهم بينما يشيعة الشيخ قائلا : هذا من
البشارية .. ويواصل السير .

يكون الرجل حافي القدمين .. مرسل الشعر على جانبي
الرأس وخلفه حتى الكتفين مدهونا بمزيج من دهن الماعز وخشب
الصندل ، على طريقة فراعنة طيبة القديمة .

قال له ماريو وهم يتعمقون طريقهم داخل الصحراء في ذلك
اليوم : هؤلاء اقاربك يانيكولا وأصهارك .. ألم تكن زوجتك ايليا
قوقازية مهاجرة .. هؤلاء أيضا مهاجرون من جبال القوقاز ، لقد
جاؤا قديما عبر بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء ثم ساروا بمحاذاة
الشاطئ الشرقي للبحر الاحمر حتى نهايته فعبروه الى اريتريا ..
واستقر أكثرهم في صحراء السودان ومصر .. شرق مجرى النيل .
فنظر نيكولا الى أصهاره الغامقى السمرة .. وتعجب من جلده
الاوربي الابيض .

فقال له ماريو ان خمسة آلاف سنة من الهجرة تحت شمس
افريقيا الحارة .. كفيلة بأن تحرق جلدك وتصبغه بلون البن
الغامق .. لكن هذا الانف القوقازي لن ينمحي .. دقق النظر
ستجده مطلا من وجوههم جميعا .. الا يشبه انف ايليا زوجتك ؟

كان ماريو قادرا على ان يكون ماجنا وجادا في نفس الوقت .
وبين الحين والحين تبرز ، فجأة على طرف جبل أو حافة وادى ،
كومة من العظام البيضاء .. أو غصن جاف ترفرف على أعلاه قطعة
صغيرة من القماش .. هى علامات الموت فى الصحراء . يرقبها
نيكولا ويرتجف مهابة .

ان كومة العظام كانت جملا ، يدقق فيها النظر فيجدها منهارة
متناثرة .. فيعرف أن الموت قديم ، وأنه فاجأ الجمل وهو يمشى
فتهالك على نفسه . وأحيانا يجد نيكولا ان الجمجمة مشرّبة ،
تحملها عظام العنق بوضوح فيعرف أن الجمل قد مات وهو جالس
يتأمل هذه الصحراء فى عظمة . وأن جوارح الصحراء قد نهشت
لحمه الميت لتبقى عظامه علامات ناصعة البياض على الصخور مئات
السنين .

وحين يموت الرجل يوارونه التراب حيث مات •

قد يجدونه ميتا فوق صخرة ، أو على حافة سهل • متشقق
القم من العطش •• مطلقاً العينين من الحر والموت •
وقد يعثرون به ميتا على الماركة ، بعد ان اضناه السير بحثا
عن انسان أو حيوان ، أو صوت يهديه لنقطة من الماء •
لقد جرب نيكولا الموت فى الصحراء ، حيث يضرب الانسان
على غير هدى • بين الصخور باحثا عن الطريق والماء يوما أو يومين ••
وفى اليوم الثالث أو الرابع يجد نفسه وحيدا معزولا فى جبال
لا نهاية لها • وقد جف حلقه وجوفه ، وتشققت أطرافه وشفتاه ••
فيخطف الرعب قلبه لكن غريزة البقاء تدفعه يمينا ويسارا منقبا عن
بئر •• يزحف ويزحف حين يعجز عن النهوض •• ثم بالتدريج
يفقد طعم العطش •• ويصبح من الصعب ان يتنفس من حلقه الجاف
فيتأرجح بين الغيوبة والوعى •• ثم ينزل على الارض ويتنازل عن
النهوض •

يومها قال نيكولا لنفسه : لقد فعلت ما استطعت فعله ، وليس
لدى أى أمل الآن سوى أن أموت فى هدوء •• وأغمض عينيه لينال
السلام •• ثم فتحهما بعد ذلك ليجد ايسا قائما عند رأسه ملثم
الوجه ، ممتشقا سيفه ، يصب فى فمه الماء من كيسه المصنوع
من جلد الشاة •

كانوا قد استقروا فى جبل السكرى وأقاموا الحياة حول فتحة
المنجم القديم المهجور •• وانتشر العمال يمهدون الطريق القديم ••
ثم نزلوا الى السراذيب يجسسون الصخور الداخلية بحثا عن عروق
المرو التى تحتوى بها ذرات الذهب •

فى تلك الممرات تعلم نيكولا اسرار التعدين •• وعرف أنه لن
يكون أول المعدنين ولن يكون آخرهم ••

فها هى السراذيب المهجورة تحكى له قصص الفراعنة القدامى
الذين كانوا أول من استخرجوا الذهب من الصخور ، وبعدهم ينجي
الرومان والعرب •• بل أنه من هذا المنجم بالذات •• كان محمد على
والى مصر ، يرسل عماله الالبسان فيحضرون له ثمانية أرتال من
الذهب كل شهرين • !

وكانت هذه المعلومات تملأ قلبه بالحماس .

وحين شاهد احجار الكوارتز وهى تصحن وتمر فى الطواحين
ثم تغربل . . وشاهد ذرات الذهب وهى تلتصع متبلورة على
الصوانى النحاسية خلال عملية التنقية بالزئبق . . توهج بداخله
ذلك الشعور العظيم بالانتصار .

وبدا يفكر فى تلك الذرات وهى تتكاثر وتتجمع تحت الضغط
فى سبيكة ، ثم تذهب الى مكتب الباشا فى القاهرة .
لكن السبيكة لم تذهب الى مكتب الباشا فى القاهرة .

كانت كبيرة وثقيلة ، فتركوها فى البوتقة الجرانيتية خلال
الليل . . وفى الصباح لم تكن موجودة .
ولم يكن ايسا مشغولا بفكرة الحق والعدل على المستوى
العقلى ، ولم تكن بذور همومه قد أثمرت بعد اتجاها يقود قواه
الكظيمة . . عندما قاد ثلاثة من رجاله شاهرين سيوفهم ورماحهم ،
وتسللوا الى منجم السكرى ، وخلعوا سبيكة الذهب التى تزن
رطلين من بوتقة البازلت والجميع نيام ، فدسها ايسا فى كيسه ثم
اختفى مع رفاقه فى ليل الصحراء .

انما هو نوع من الغضب الغريزى يجرى فى دماائه البجاوية
القديمة ، جعله يقف مرتجفا مقشعرا فى ذلك النهار بباحة المنجم ،
كانما هو مطالب من قوى قدرية يعمل لا يدري كنهه بعد بينما
كان نيكولا يقوم بتدشين السبيكة التى تمثل حصاد عامين من العمل
الشاق ، والجهد المضنى والعناء ، لهذه المجموعة البشرية الصغيرة
والمتناقضة التى اختارت هذا الجبل مكانا تستثمر فيه وجودها .

لقد رأى ايسا فى ذلك النهار الخواجا ماريو شريك الباشا
المصرى وهو يصفق مبتهجا بجوار نيكولا ، بينما يرقب بجانب بصره
مجموعة من العمال المتحلقة حول البوتقة منفرجة الاسرارير فى
بلاهة ، وعيونها فاغرة على سبيكة الذهب ، كأنها لا تصدق ان تلك
السبيكة قد ولدت من تلك الصخور الهائلة التى حفروها بأظافرهم
وحملوها على ظهورهم من باطن الجبل الى سطحه على مدى عامين . .
فقطع عليهم ماريو حبال دهشتهم وامر ايسا بأن يأخذهم ويذبح لهم
غنمتين .

فهكذا الامر اذن كما يقول أبوه بشير .. الذهب للاغراب ،
ولاهل المكان ملء بطن أو بطنين !

أخذ يرقب هؤلاء الحواجات الذين أدخلهم الصحراء من مرسى
علم ، ذات صباح من عامين وكانوا وقتها ممتلئين تواضعا وبساطة
بل أن أحدهم كان مدهوشا كطفل وهو يلج بين الجبال .. فاذا بهم
الآن يتصرفون تلقائيا وكأنهم قد امتلكوا هذه الجبال فعلا ..
ولعل هذا الحاطر وحده هو الذى حفز ايسا للحصول على
السبيكة .. لعله رغب فى تأكيد سلطانه على جباله الخاصة ، مقابل
ان يكسر سلطان هؤلاء الاغراب ويفزع زهوهم الطاووسى هذا ..
فلم يكن فى نيته أبدا أن يحتفظ بالسبيكة .. بل انه قرر
أن يأخذها وفى نفس اللحظة قرر أن يعيدها ..

لقد أخذ يبحث بعيره فى ليل الصحراء والسبيكة فى كيسه
اللاصق بصدوره كأنها درع يحتمى بها من كل الشرور المجهولة التى
يمكن لهذه الاغراب ان يطلقوها خلفه .. متجها جنوبا فى الصحراء
محاذيا الساحل البعيد للبحر غير المرئى .. وحوله رفاقه الثلاثة ..
عبروا رأس صمادى .. ومروا بالشرم فبدأ يظهر لهم غربا جبل
زبارة .. وقيل الفجر بساعة وصلوا رأس بغدادى .. ثم عبروا
وادى الجمال مع بشائر الصباح وأخذوا يحثون الابل جنوبا الى بئر
رنجه وحماطه ورأس نكرات ، فاطلوا على البحر فى العصر ..
ومالوا الى الغرب داخل الصحراء ثانية ، بعد أن تركوا خلفهم أنقاض
مدينة برانيس الاثرية التى بناها القيصر بطليموس الزمار من ألفى
سنة ، تخليدا لابنته ذات الاصل الزنجى .. وكان خليج بناس
الشهير ، قد أصبح على يسارهم ، ثم خلفهم .. فارتاحوا ساعة على
سفح جبل باتوجا .. ثم واصلوا السير الى بئر الشلاتين ، عبر
جبال زرقة النعام .. فى طريقهم الى الجبل الابيض المقدس علبة ..
فوصلوه بعد يومين آخرين .. وسقطوا جميعا على أقدام الجبل
منهكين لاهثين كأنهم فى صلاة خاشعة كأنهم رسل قادمون من بعثة
قدسية ..

كان الجبل ينتصب شامخا نحو السماء ، تطل من قممه تلك
الكباش البرية التى تحيا فى ظلال أشجاره المقدسة الخضراء النابتة
على القمم العالية المتسامية لتطاول السحاب .. ثم تتراجع تلك

الكباش منكمشة مفزعة خشية السقوط على السهول الخضراء
المنبسطة حول سفوحه .. ومن بين هذه الصخور الحادة والمدبة
الشديدة القسوة والجفوة ، كان الماء العذب يسيل زلالا على المساقط
الجنوبية والغربية للجبل ، ثم ينساب في وادي عذاب ليرى
تلك الغابة الكثيفة التي لم يقدر على اختراقها انسان للآن .. حيث
تعتقد قبائل البجاة انها مغلقة على روح جددهم الاكبر القديم كوكا
لوانكا ، ذلك الذي أمضى عمره في كهف عميق داخل هذا الجبل
الابيض يصلى للمكان ويتعبد .. حتى تحول جسمه بفعل الزمن
وكثرة العبادة .. الى صخرة من صخوره .. بينما انطلقت روحه
تحفر القمم وتفجر منها ينابيع الماء لتنشئ لها غابة في الوادي
تحتويها .

وهكذا في ذلك الصباح المبكر على أعتاب الجبل الذي يحتوى
تلك المغارة التي تضم الصخرة التي كانت في القديم كوكا لوانكا
وقف ذلك الحفيد ايسا وأخرج من صدره سبيكة الذهب فأقامها على
صخرة .. ووقف مع رفاقه حولها وكأنهم يشهدون جددهم كوكا على
ما فعلوه .. مؤكدين له أن أحفاده مازالوا يملكون السلطان على
الصحراء وجبالها .

هكذا يفعل الجميع من البشاريين والعبادة وبقية فصائل
البجاة .. كلما ألم بهم أمر وأعيامهم ، حملوا همومهم وأفعالهم الى
الجبل الشامخ في السماء ، يحوطه الضباب بغلالة بيضاء لا تستطيع
ان تخفي الخصرة الزاهية النابتة على قممه الصامدة .

لقد ظلوا أمناء على العهد منذ حط جددهم الاكبر الرجال تحت
أقدام جبل علبة الاشم ، فأصبح الجبل كعبتهم .. ينحدرون الى
الشمال ويصعدون الى الجنوب ، ويذهبون الى الغرب ، ويستقبلون
الهجرات المتتابة عبر البحر على مر الزمان قادمة من الشرق . فتؤثر
فيهم وتدفعهم أمامها ، لكنهم يعودون دائما الى علبة .

يقولون أن الله عندما خلق آدم مثل له الدنيا بقعة بقعة ليراها
فلما رأى مصر رأى جبل علبة مكسسا بالنور وكان جبلا أبيض ،
فناداه بالجبل المرحوم .. ودعا لارضه بالخصب والبركة .
أيدخلهم الشك في أن آدم القديم هذا ليس سوى جددهم
الاكبر كوكا لوانكا ؟!

لقد خاطب ايسا جده وهو يصيح من وقفته على السفح
ليسمعه فى مغارته المرتفعة .. وأخرج له كل ما بنفسه .. وحكى
له بالتفصيل ما فعله ، ثم رفع السبيكة بين يديه كأنه يقربها من
عينى جده الصخريتين ، فتوهجت بأشعة الشمس المنكسرة على
حوافها الذهبية .. وأخبره أنه سيعود بها الى مكانها فى المنجم ..
فليست السرقة من شيمه وأخلاقه .. وطلب رضا جده ليهديه فى
دروب الصحراء الى المراعى المزهرة والماء الوافر .

وقد خرج من بين أقدام الجبل بعض أقارب ايسا ومعارفه
وقفوا حوله منتصبين بقاماتهم الشامخة وأسنانهم البيضاء المصقولة
ورءوسهم الملبدة بالشعر الكثيف المضفر ، ثم أمسكوا قرص الذهب
بأيديهم وقلبوه فى وجه الشمس مرتين أو ثلاثا ، وقذفوا به على
الصخر ليختبروا صلابته وأصاآته .. ثم أعادوه لايسا وهم
يباركونه .. فوضعه فى صدره ثم أقام جملة ، وانكفأ عائدا الى
المنجم يتبعه رفاقه .

أمضوا الليل والجمال تقطع بهم الصحراء كرماح مطلقة ،
مستنيرين بقمر الصحراء السحري ، وبالنجوم والكواكب .. وفى
الصباح كانوا يقتربون من حافة جهنمية عثروا عندها على قبعة
نيكولا .. فتعرف عليها ايسا . وأمر رفاقه بالبحث عن الخواجا ..
فوجدوه بعد ساعتين من تقصى الاثر وتشمم الارض .. منحنيا على
صخرة ، واصابعه التى تشبقت وجفت عليها الدماء ، مغروسة فى
الارض تحتها .. كأنه كان يحفر على الماء .

وكان يبدو كأنه قد مات منذ ساعات ، فانحنى عليه ايسا وسمع
صدره ، ثم بلل وجهه بالماء ، مجاذرا ان يسقط منه فى فمه أكثر
من قطرتين .. حتى يلين بلعومه وتتندى قنواته الداخلية .. فتبدأ
فى تقبل السائل .. وحين بدأ يفتح عينيه ، شرب من الماء جرعة
صغيرة وهو يرتجف .. فخلع ايسا عباءته ودثره بها .
ثم حمله على بعيره .

لم يحصل نيكولا على الموت الذى تمناه فى تلك اللحظة القديمة
بعد خمسة ايام من الضلال فى تيه العطش . وأصابه الدامية
المغروسة فى الارض قد فشلت فى أخراج الماء من الصخر .. كما أنه

لم يحصل على سبيكة الذهب المسروقة التي خرج الى الصحراء وراءها .
ولم يكن يدري ان قرص الذهب قابع في ذلك الكيس المعلق
على صدر ايسا الذى يقود جملة صامتا عاندا به من جبال الموت الى
وديان الحياة ، بنفس الصمت الذى قاد به جملة ليدخل به الصحراء
أول مرة .

ومضوا يخترقون الصخور عائدين الى المنجم . . عبر انقاض
المدن القديمة فى وادى العلاقى ، وركام القلاع فى وادى شنشف
ووادى سكييت والخريط ، عبر تلك الطرق القديمة التى كانت
تقطعها جيوش الفراعنة القدامى وأباطرة الرومان . . غازية أو فى
طريقها للغزو . . أو لحراسة الاسرى والمحكوم عليهم ، الذهبين
للعمل فى المناجم ومقاطع الاعمدة والاحجار المرمرية التى تزين قصور
الفرعون او الامبراطور او المعابد .

فحيثما سارت القافلة الصغيرة التى تحيط بنيكولا عثرت
عيونهم على بقايا هذه المناجم الاثرية المهجورة . . ولمحوا على الصخور
آثار الكتابات القديمة .

وكان نيكولا يرتجف مهابة وخشوعا ، وقد استولى المكان على
حواسه المضطربة بالرغبة فى التحليق . . وشعر بأنه يوشك أن يجد
مكانا يرغب فى الانتماء اليه .
يوشك أن يجد وطننا .

وكان متأكدا أنه قد اكتسب ايسا أخا وصديقا .
ولم يكن قادرا على الكلام أو الحركة ، فأخذ يتأمل ايسا حينما . .
ويتأمل الصحراء من حوله حينما آخر . . ولم يكن فى الصحراء حوله
غير الرمال الباهتة الصفراء ، والسماء الباهتة الزرقاء ، وانفاس
الارض التى تتكاثف تحت الشمس فتبدو كلما ابتعدوا عنها سرايا . .
فأخذ نيكولا يحرق فى السراب ويتأمله .

فى الاول ظهر له ظلالات كثيفة عند الافق . . مجرد ظلال . .
وعندما أمعن النظر ظهرت له قباب ومآذن وأسوار وبوابات ويمكنه
أن يقسم أنه رأى اشجارا كثيفة الاوراق وارفة ، مثقلة بالثمار ، تبدو
كأنها تموج وتتحرك .
فحاول أن يكشف المغز الذى تحويه هذه الظلال فيجعلها تبدو
قبابا ومآذن ذات مرة . . وحدائق ونافورات مرة أخرى بل وخطر من

هذا ان تجعل ذلك الذى يراها يصدقها .
ثم أدرك أن اللغز فى داخله هو .

كان على درجة من الوعى بموقفه مما جعله يدرك أن الامس
والرغبة ، هى الفخاخ التى ينصبها البشر لانفسهم ويلهثون جريا
وراءها ليسقطوا فيها .

فالآن ، وهو مطمئن فوق جملة محاط بالرعاية من هؤلاء الرجال
الاشداء الذين يعرفون الصحراء كما يعرفون اصابعهم يمكنه ان يجلس
تماسكا يتأمل السراب ويحلله ويفكر فيه .

ذلك السراب نفسه . . الذى قاده من عينييه المضللتين بالامس
فقط ، وهو يهيم ضالا مشقق الفم من العطش فى تلك المساحة الهائلة
من الصخور الجهنمية التى لا يظهر فيها ظل لشجرة أو مخلوق . .
فيجربى تجاهه جريا لحوحا ملتاعا ، يبغى الامان تحت قبابه ، وينشد
الارتواء من نافوراته واشجاره يجرى وينكفى ، ثم ينهض ويواصل
الجرى ، مدفوعا بقوة العطش الخارقة . . حتى تبددت قواه تماما . .
فانهار على الصخور هامدا متشقق البلعوم والجوف . . دون ان يصل
الى هذه القباب أو تلك الاشجار الوارفة . . لانها لم تكن سوى وهم
صنعتة حاجته .





الفصل الرابع

فى تلك الايام كان للاجانب فى مصر كلمة عليا ، وحق يكاد يكون موروثة .

فلم يكن باستطاعة المواطن المصرى مثلا ان يبتعد فى الصحراء بعد مصر الجديدة أربعة كيلو مترات ٠٠ دون ان يحصل على تأشيرة عبور من المحتل الانجليزى .

لقد عاش نيكولا ليرى بعينه ذلك الهيلمان يذهب وينداح . لكن وقتها فى تلك الايام البعيدة ٠٠ كان الانجليز قد انشأوا فى الصحراء فرقا من الهجانة مسلحة بالبنادق والكرابيج ظاهرها حماية الحدود من عمليات التسلسل والتهريب ٠٠ وباطنها حماية تلك الشركات التى انتشرت فى جبال هذه الصحراء بحثا عن الذهب والنحاس والريصاص والزنك والتلك .

ولم تكن قد وقعت بين هذه الجبال سرقة يعتدبها ، منذ سطا هؤلاء الاغرار ابناء عمومة أيسا من قبيلة المعازة ، على قوافل المحمل

الشريف والكسوة الشريفة ونقود الصدقة الاميرية ٠٠ الذهبية فى طريق الحج الى مكة ٠٠ بين قفط والقصير ، عبر جبال الصحراء ٠٠ واجتمعت رءوس قبيلة المعازة تتقاسم المغنم والأسلاب بناحية الجبل المعروف الآن باسم جبل الجوخ ، نسبة الى جوخ الكسوة المنهوب ، فمكادوا ينتهون من القسمة ٠٠ حتى كانت الحملة التأديبية التى ارسلها محمد على الكبير فوق رءوسهم فاستولت على الجمال والاحمال ثم جمعت رجال المعازة ونساءها وبناتها وأطفالها وعادت بهم أسرى ٠٠ ليعرضوا جميعا للبيع ، فى سوق الرقيق بساحة القلعة !

من وقتها لم تحدث فى الصحراء سرقة يعتد بها ٠٠ حتى هذه البراميل المستهلكة والاشخاب القديمة التى يجمعها الاعراب من حواف المناجم ، ليصنعوا منها اخصاصا ومظلات وأوعية ٠٠ لم يعد اصحاب تلك المناجم يعتبرونها سرقة .

ولهذا كان الحادث جللا ، جاءله هجانة الحدود من بئر الشلاتين فبقى بعضهم بالمنجم وانطلق بعضهم فى الصحراء وراء سارق الذهب وكان الباشا المصرى قد جاء من القاهرة وهو يرغى ويزيد ٠٠ واخذ يهدد بما يملك فى العاصمة من اتصالات وسلطات ٠٠ فأفسحوا له فى الباحة مكانا وثيرا ، بينما اخذ تابعه يخرج من حقييته لفافات الحلوى القادمة من جروبي ٠٠ وقفص الفاكهة المغلفة بالأسلوفان ، فجلس يروى عطشه بعد الرحلة المتعبة ٠٠ بينما وقف ماريو مرتبكا ، مدهوشا ٠٠ يحكى له ما حدث ٠٠ كيف استيقظوا فى ذلك الصباح فلم يجدوا نيكولا ، ولم يجدوا قرص الذهب ٠٠ والباشا يسمع مرتابا ، ثم يحدق فى وجه ماريو بين الحين والحين كأنما يخامرهُ الظن أن ماريو قد دبر تلك اللعبة مع صديقه نيكولا ٠٠ فالباشا هو الباشا ٠٠ مهما بدا من اتصاله بهؤلاء الاجانب والتحام مصالحه بمصالحهم ، يظل حذره الماكر التقليدى منتبها ومتيقظا !

لقد شعر ماريو بهذا الحذر المتهم فى عينى الباشا شريكه ، فاستشباط غضبا ، وأقام الغضب بينهما سِتارا كثيفا يكاد يكون مرثيا ٠٠ عاقهما عن تبادل الكلام خلال الايام الخمسة التى امضاها الباشا فى المنجم للاشراف على البحث والتحقيق .
متباعدان ٠٠ كل منهما كبير بتلك العزلة التى يقيهما حول حجمه ٠٠ بينما البدو والعمال والهجانة حولهما ٠٠ كمخلوقات

اضافية • أفقدها الحادث قدرتها على الاستيعاب والتفكير فاقعت على الارض صامتة ، وأن همست فبالتكهن أو التخمين •

وفي اليوم السادس هبوا جميعا مع الفجر ، على ضجة الابل وهي تحط في باحة المنجم •• ليجدوا فرقة الهجانة التي كانت تواصل البحث في الصحراء ، قد عادت بصيدها الثمين •

لقد بهت الباشا وتدلّى فكه • ووقف ماريو منتصباً يتطلع الى نيكولا وهو يهبط عن جمل ايسا •• بينما كان ايسا يتعثر في تلك الجبال التي قيده بها هجانة الصحراء ، فبدأ للجميع فجأة •• وبشكل مصدق •• كانما ايسا هو السارق •• ونيكولا شريكه !

قال كبير الهجانة للباشا انهم عثروا على ايسا ورفاقه على حافة جبل النقرس ، فبدأوا محاصرتهم •• وقد تمكن رفاق ايسا من الفرار •• وسقط ايسا ونيكولا في ايديهم •• وكان قرص الذهب في صدر ايسا •

وقال نيكولا انه اندفع الى الصحراء ليلا وراء اشباح رجال تغادر المنجم •• وانه ضل وتاه •• وان ايسا انقذه من الموت في الصحراء ، وليس ممكنا ابدا أن يكون هو السارق ، لعله قد ضبط الذهب المنهوب وكان عائدا به الى المنجم حينما عثر عليه وأنقذه •

أما ايسا فقد التزم الصمت • وكان الباشا قد انشرح لعودة الذهب •• ولم يعد ما يجري بعد يهمه في شيء ، الا بالقدر الذي يحفظ مهابته وسلطانه • أو يبعث في نفسه البهجة أو التسلية •

ولعله بخبث خفى •• اراد أن يستفيد من دفاع نيكولا الملحوظ عن ايسا ، ليترك ظلال الشك فترة •• تحوط ماريو بأحتمال اشتراكه في تدبير الحادث •• أن نيكولا ليعلم ذلك جيدا الآن ، بل أنه متأكد منه •• فبعد مرور تلك السنوات ، يمكنه أن يكون متأكدا من أن الباشا لم يأمر عبثا بحبسهم مع ايسا ومراقبتهم معا •• في ذلك اليوم القديم ، حتى يفكر في الموضوع ويتخذ فيه قرارا •

في ساعات الحبس الطويلة تلك التي كان الباشا يتجول خلالها في باحة المنجم وينزل في السرايب ليحصى الآلات والادوات ، يفقده ماريو المحاط بالشك •• يعتقد نيكولا انه قد ولد ولادة

جديدة ، فى محبسه الخشبي فى تلك الباحة ٠٠ مع أيسا البدوى
الذى يدين له بحياته - عاجزا عن أن يمد له يد العون - بينما
يعرسهما من الخارج رجال الهجانة المسلحون بالكرابيج والبنادق .

لقد ارتعش نيكولا بالغضب فى لحظة ٠٠ وهو ينظر فى عيني
ايسا ، مقتنعا اقتناعا غريزيا ببراءته ٠٠ مغتاظا هاجما من صمته
هذا الذى يتسربل به .

ولعل ايسا قد اهتز لانفعال نيكولا ٠٠ ذلك الخواجا الوحيد
الذى أحبه حين رآه بنظرة مختلصة مندهشا مسحورا كطفل بينما
يقوده ويلج به جبال الصحراء التى ينتمى إليها .

ولعل محبسهما معا قد ازال ما بينهما من حواجز الجنس
واللون .

فبدا أيسا يحكى لنيكولا همومه التى ينوء بها قلبه ٠٠ قال
له انه أخذ الذهب ليطلع جسده عليه ثم يعود به ٠٠ رغبة عارمة
سيطرت على حواسه أن يعكس على سفوح الجبال وهج تلك الثمرة
التي خرجت من بطونها ، فلشد ما كان يخالجه الشعور أكثر من مرة
٠٠ ساعة الغسق ٠٠ حينما تلتصق هذه الجبال تحت الضوء الذابل
الاحمر ، فيبدو له كأن صخورها الحادة تضم خليطا من اللحم والدم
والعظام ٠٠ خليطا من الرجال الذين راحوا ضحايا الاختناق فى
الآبار القديمة ٠٠ أو مطمورين تحت الانهيارات الصخرية المفاجئة
داخل انفاق التعدين ٠٠ فيخالجه الشعور بأن الجبل من لحم ودم !
ولو غير نيكولا يستمع لايسا فى تلك اللحظات لعجز عن فهمه
أو تصديقه .

لكن نيكولا كان قد بدأ يشعر بالولادة الجديدة التى سيكون
هو ثمرتها ، بينما يستمع لايسا .

وكان يكتشف تلك المعانى الحقيقية للانتماء خلال كلمات هذا
البدوى الذى يواجه الطبيعة حوله بالفطرة ٠٠ فأقتنع به .
بل انه احتضنه فى صدره وقلبه !

وكان الشيخ على قد جاء الى الجبل منكسا خزيانا بما يحوط
ابن أخيه ايسا من شبهات ، فطلب من الباشا أن يحتكموا لشريعتهم .

لقد عاد الذهب ، لكن الحقيقة ماتزال غائبة ٠٠ وفى شريعتهم
يحتكمون الى النار ، لتظهر الحق من الباطل .

فليمش ايسا على الحطب المشتعل ، فان كان ما قاله هو
الصدق فسوف ينجو ولن تصيبه النار بضرر .

وقد وافق الباشا على اقتراح الشيخ على . فهو حريص على
ارتباطه به ، ومنافعه في الصحراء كثيرة . ومن ناحية أخرى فقد
استطاع بهذه الحادثة أن يحقق غرضه ويترك في هاريو أثرا نفاذا
يمنعه من المساومة حين يحين الوقت لتقسيم قرص الذهب .
وكان من الذكاء بحيث يدرك أنه لن يعود عليه بشيء انتقال التحقيق
من الصحراء الى البندر ، وترحيل مجموعة من البدو الى سجنه .
بل حتى اعدامهم لن يعود عليه بشيء . فمن الواضح أن مهابته
في الصحراء . لا تزال محفوظة .

وأمر الشيخ عماله فحفروا امام البيوت حفرة طولها ثلاثة
امتار ، وعرضها متر . وجمعوا من فضلات الاخشاب والحطب
ما ملأها . موسدا مرصوصا ، غير مخلخل . ثم اشعلوا النار في
الحطب وتركوها تسرى منه الى الاخشاب فتشعلها . فتوهجت
النار في ذلك العصر الحار بينما الوجوم يثقل بظله الكثيب على
الشيخ على ورفاقه وعمال المنجم الذين تجمعوا حول الدائرة ،
مشحونين بالقلق والتوتر يرقبون النار وهي تحيل الاخشاب السميقة
الى جمر ملتهب ما تزال اللسنة الحارقة تتصاعد منه كأنها شياطين
نهمة .

وأمر الباشا باخراج ايسا ، فأخرجوه ، وأوقفوه أمام النار
فشد قامته ، ونظر بثبات في عيني عمه . ثم صاح ولكنته البجائية
مؤكدًا للشيخ على انه لم يكن ينوى سرقة الذهب . وانهم امسكوه
وهو في طريقه لاعادته .

ووقف نيكولا المتحضر مرتجفا ، يحملق في الباشا المصري
الذي يخرج من أشداه فكاهات بذيئة ، يحاول بها أن يخفف من
ذلك الثقل المأساوي الجاثم على المشهد الذي كان واضحا أن أحدا
لا يستمتع به غيره وحده ، بينما كان الجميع من حوله صامتين
عاجزين عن الاستجابة لفكاهاته . ينقلون ابصارهم الواجفة بين
ايسا النحيل المنتصب ، وبين الحطب المشتعل في الحفرة المستطيلة
وقد التحم بكتل الاخشاب فحولها الى جمر تتصاعد منه السنة من
النيران قصيرة ، تكاد تكون غير مرئية ، في ذلك العصر الحار .

فيتداعى الى ذهنه مشهد قديم لزوجة هذا الباشا المسماة اقبال هانم،
والتي تصغره بواحد وعشرين عاما . . شبه عارية على رمال مرسى
علم الساحلية . . ممددة بجسدها اللدن المعطاء كله . امام ماريو
الجالس بجوارها شبه عار هو الآخر . . يجمع قواقع الشيش
الدقيقة الحجم . . المتوجة الالوان ، ويرصها جامدة ساكنة على
الجسد الانثوى العارى ، فتتلاأ فى وهج الشمس العاربة كأنها
فصوص من جواهر ، تزينه وتزيده فتنه ، فما تلبث الحيوانات

اللزجة الدقيقة المختبئة فى تلك القواقع أن تطمئن للدفع المنبعث
من حرارة اللحم ، فتخرج اقدامها الهلامية وتزحف بقواقعها على
جسم المرأة . . بنشاط وسرعة هنا وهناك ، حول الرقبة ، والتدين،
وفوق البطن ، وداخل السرة ، كانما قد دب الحياة فى القواقع
فيجأة . . بينما تتلوى اقبال هانم ، مدغدة مثارة . تصرخ وتضحك
ويختلط ضحكها بصراخها فيخرج من فمها الشهوانى على ذلك
الشاطيء البكر مزيج من الرعب المصطنع واللذة .

هل كان خليل باشا فى ذلك الغروب يستمتع وهو يصيب
لهم كئوس الويسكى فى الشرفة الخشبية ببيت الشيخ على ، فى ذلك
العشاء الاخير من السمك الكبير المشوى على طريقة الحملان ، ليلة
الرحيل الى هذا الجبل . . بينما زوجته العارية على بعد أمتار منه
تملاً ذلك الشاطيء البكر بضحكاتها الشبقة ؟!

أكان يستمتع ذلك المساء ، مثلما يستمتع الان فوق هذا الجبل
المنحوس نفسه ، حين رأى ماريو المهيج ينحنى بذراعيه العاريتين
حول جسد زوجته الخاصة ، فيحتويها ويحملها تجاه البحر . .
ويغيب بها عن عيونهم داخل الماء الساكن المشع تحت غروب
الصحرء السحرى . كانه فراش اسطورى ممهد للقاء شهوانى،
عارم ؟!

كان يفكر نيكولا وهو يتأمل أيسا البدوى بينما يلقي على
مستطيل النار نظرة سريعة واجفة ، ثم ينحنى فيخلع نعله ، ويشمر
سراويله عن قدميه النحيلتين المعروقتين الغامقتى السمرة . . ثم
ينهض بصدرة شامخا . . ويمد قدمه . . ويخطو على النار مفتوح
العينين على الافق . . لعله وقتها كان ينظر بغريزته الصافية فى
أغوار الزمان القديم ، فى النمرود يدفع إبراهيم الى النار فيخرج

منها سالما ٠٠ أو يرى معجزة بابل القديمة ، حينما القى بخد نصر
بنثلاثة من رعاياه فى النار موثقين فخرجوا منها محلولى الوثاق ، لم
تمس النار حتى ثيابهم ؟

لقد كان أيسا مؤمنا بحكايات الاجداد ٠٠ كما انه كان مؤمنا
ايضا بما فعل ٠٠ مدركا ٠٠ بحسه الفطرى أنه لم يغتصب حق احد
٠٠ وبهذا الحس الفطرى نفسه ، أمكنه ان يوائم جسده المدرب على
المشاق المهولة ٠ مع آلام النار الجامحة ٠٠ فيجتازها ٠٠ مرة ٠٠
واثنتين ٠٠ وثلاثا أمام العيون المحملقة ٠٠ ثم يخرج منها سالما
فيجمع نعليه ٠٠ ويرتقى على الارض مادا قدميه فى وجوه الجميع ،
كانه يشهدهم على براءته ٠

هل كان ذلك غريبا على احد من هؤلاء البدو الذين يدربون
أجسادهم جيلا بعد جيل ، على التلاؤم مع النظام الضارى الذى
تفرضه الصحراء على من يختارها مكانا لحياته ٠

أن الشئ عندهم هو الشئ ٠٠ والرجل عفا للسان كريم
متأمل ، لايمكنه أن يكذب أو يسرق أو يزنى ٠٠ ومن يخطئ فى
واحدة من هذه الخطايا يحتقر ، وترفض البنات زواجه ، وإذا دخل
مجلسا ووزعت فيه القهوة ، مد الساقى يده بالفجانة موهما اياه
انه يقدمها له فاذا مد يده لتناولها سكبها الساقى على الارض امتهانا
لشأنه ٠٠ فينصرف عن المجلس دون ان ينطق بحرف ، وفى أغلب
الاحوال يرحل عن الصحراء الى بلاد لايعرف احد فيها جنايته ٠

لقد غرست فيهم الصحراء شتى الفضائل ، فأخذوا يشهرون
من هذه الفضائل سلاحا يواجهون به مخاطر حياتهم اليومية ٠ فإن
مئات الخطايا الصغيرة التى نرتكبها بسهولة ويسر فى المدينة ، ضد
انفسنا وضد الآخرين ٠٠ تتراكم على قلوبنا وعقولنا ، ثم تتكشف
ضبابا يغشى عيوننا وأفدأنا فنتخبط فى الحياة كالوحوش العمياء ،
فالمدينة زحام ، والزحام فوضى وتنافس وهمجية ، ولكنهم فى
الصحراء قلة ، والخطايا الصغيرة تصبح واضحة تطارد من يرتكبها
٠٠ ويصبح ضبابها على النفس اشد كثافة وثقلا ، بينما تحتاج
دروب الحياة فى الصحراء الى بصيرة صافية نفاذة لتجنب اخطارها ٠
أن الفضائل تمنحهم قدرة على الصفاء فيمتلكون حسا غريزيا

مشبعاً بالطمأنينة ، يضيء في عقل البدوى حينما يضيع منه الطريق
في رمال الصحراء الساخنة الناعمة ، فيهتدى الى طريقه ٠٠ وتجعل
قلبه يدق له انذارا بالخطر وهو نائم في ليل الصحراء السحرى ،
حينما يقترب من جسده عقرب أو ثعبان .

لقد زحف نيكولا مأخوذاً من موقعه خلف الباشا خليل في
الدائرة المحيطة بالنار ٠٠ وجثا الى جوار ايسا فأمسك بقدميه
واحتضنهما .

كانتا شديديتى السخونة ، كأنهما قد اختزنتا لهب الجمرات
وهاهما الآن تخرجانه في صدره ، الى جوار قلبه .

أى أحساس شمولى قد احتواه فى تلك اللحظات المهمة ،
فمزجه بالمكان واذابه فيه ، فأخذ يهمس فى اذن ايسا المغضض
العينين بنجواه وجيشانه . قال له أنه يرغب أن يصعد خلفه فى
الجنوب بحذاء الساحل البعيد للبحر غير المرئى ، فيعبران رأس
صمادى ، ويمران بالشرم ووادى الجمال ويترنجة وحماطة ونكرات
ويخلفان وراءهما خليج بناس الشهير ، وانقاض مدينة الاميرة برانيس
ذات الاصل الزنجى ٠٠ ويجتازان بشجاعة تولد من توحدتهما معا ممر
الاعاصير والعواصف الرملية عند بئر الشلاتين ٠٠ فى طريقهم الى
الجبل الابيض المرحوم المقدس عليه ، فيتمسح نيكولا بجبهته
الاوربية على اعتابه توقيرا واجلالا ، بينما يقدمه ايسا الى جده الكبير
العظيم الصخرة .

قال له انه يود لو يهيم معه فى حنايا تلك الجبال ودروبها
فيتعرف على اقربائه القدامى ، أبناء عمومته وابناء ختولته وأصهاره .

يفكر فى ذلك نيكولا وهو عار على قمة الدرهيـب المتزلجة ،
تحت شمس أغسطس الجهنمية ، وسط ديكور فـج من بازلت
وجرانيت وأحجار جيرية وقواقع متكلسة من مليون ألف عام ٠٠
مؤرجح هناك على صلبان عذابه وتكفيرة ، بينما يتأمل الجبال المزهوة
بعريها تحت الشمس من حوله ، وقد بدأت صخورها الحمراء تشع
لهبا ، بينهما صخورها السوداء أصبحت قادرة على انضاج الخبز .

يفكر فى هؤلاء البدو البسطاء الذين يعيشون بين هذه الجبال

يصارعون الطبيعة الام ، ويقبلون قسوتها وعطفها بخلق فطرى رائع
٠٠ بينما يسمح بعينه في حنان وديع قمم تلك الجبال المغموسة
فى السماء ملتفة ومتوهجة ، يرى بعين خياله خلفها مئات الجمال
العارية المكسوة بالسحب الربيعية المنعشة وهى تتعانق برقابها
وتتغازل عند الافق المتصل بالبحر ٠٠ أو يلمح نساء البدو المحجبات
من الرأس للقدم ٠ يطفن بالاشجار المتوحدة بين هذه الجبال ،
فيكرمنها ، ويقدمن لها نذور التقديس ٠ ويعلقن فى اغصانها
المسامير والخرز ، ويزينها بحبوب البقول وباريق الزيت والنقود
القديمه ٠ فيعاوده اليقين بأن الحياة هنا جديرة بالبشر الحقيقيين
الذين يكرهون المدن المليئة بالخلوقات الهمجية المستوحشة ٠

ويمتلئ بالزهو ، فيجرع من السبرتو الاحمر جرعة تملأ احشاءه
بالنار والخدر ، فيصرخ فى العراء منتشيا ٠ لانه كان صائبا حينما
قرر لنفسه البقاء ، بينما كان ماريو يقرر لنفسه الرحيل ٠

ايمكنه أن ينسى أن منقذه وصديقه ايسا ، قد عبر اناار ماشيا
ثلاث مرات أمام عينيه !؟





الفصل الخامس

ذات صباح قديم ، اشترى الحاج بهاء دفترا صغيرا بقرش
وكتب في صحيفته الاولى بالقلم الكوبيا الذى كان يبلله بلسانه بين
الكلمة والكلمة : بسم الله الرحمن الرحيم وعلى بركة الله عزمنا السفر
مع صاحب السعادة الخواجا انطون بك الى أدفو ، يوم الثلاثاء المبارك
الموافق غرة محرم ، سنة ١٣٤٧ هجرية ، لتقابل المهندس الخواجا
نيكولا بصحبة الشيخ على . ومن هناك نأخذ الجمال الى الدرهيىب فى
صحراء الشرق حيث يكون العمل .

كانت الكتابة بدائية ، فالخط متباعد الاطراف مكسور الحروف
والسطور صاعدة هابطة فى مسطح الصفحات . . وهكذا فى أبسط
الاشكال واكثرها ركاكة ، تتحدد المصائر وترسم النهايات . . فلم
يكن الحاج بهاء يعلم ، أن مصير حياة بأجمعها قد أصبح مرتبطا
ومعلقا بذلك التاريخ الذى خطه بيده .

كان الحاج بهاء فى الاصل بدويا ، انفرط جسده من عنقود

عبادى وانحدر عبر دروب الصحراء الى حافة النيل ، فترك الرعى وزرع وتاجر ، وحين اراد الزواج من اقاربه فى الصحراء قوبل بالرفض . فالعبادية لا تقبل الزواج من رجل هرب من الصحراء الى الحضرة . . وهكذا تزوج الجد العبادى من ائريف ، وولد أولاده واحفاده فى صعيد النيل على خير زرعه وتجارته التى كبرت ونمت .

وقد احتفظ الحاج بهاء بعينى جده الواسعتين الجبلتين ، وانفه النحيل ذى الارنبه المميزة . . وكان جسده متناسقا يميل الى القصر ، لكنه على العموم كان وطيد البناء ، متسع الافق ، فأستطاع ولم يبلغ الاربعين بعد أن يقيم ذلك الجسر القديم الذى انخلع بعبور جده من الصحراء للحضر ، فعاود الاتصال بأهله ، وأقاربه ، فاشترى منهم غنمهم وباع لهم زيتهم ودقيقه وسكره . . وافادهم بماله وخيرته . . ومن خلالهم تعرف على جبال الصحراء وما تحويه من مناجم ، وما يحتاجه عمال هذه المناجم ومهندسوها من ادوات وتأمين .

وقد اعطاه واحد من اقاربه حجرا من خامه التلك عثر عليه فى الواجهة الغربية لجبل يسمى بالدرهيب ، فذهب الحاج بهاء الى الجبل وعائنه ، واقتطع لنفسه مساحة منه ، ثم ذهب الى مصلحة المناجم واستخرج تصريحاً بالحفر ، وسجل اسبقيته فى الكشف عن هذا المنجم القديم . وقد ظل حجر التلك ملقى فى جانب من دكانه بجوار تصريح الكشف والحفر عاما ونصفا حتى جاء صاحب السعادة الخواجه انطون بك الى الصحراء باحثا عن منجم فعرش بالدرهيب . . وعلم ان الحاج بهاء قد سبقه اليه فأتصل به وأخذ يساومه .

فى ذلك الثلاثاء المبارك ، وصل صاحب السعادة الخواجه انطون الى كوم امبو قادما من مصر ، وتوجه مباشرة الى بيت الحاج بهاء المرتفع على الهضبة وجلس الاثنان فى الباحة الخلفية المطلة على بؤادر الجبال ومشارفها . . وعلى مرمى حجر منها وقف رجال الحاج يشيرون خروفا صغيرا على نار الحطب ، يديرونه فيتساقط منه الدهن فى النار فتتوهج لحظة ثم تخرج دخانا شهيا ، فيديرونه من جديد . . ومالبثوا أن قدموه أمام الاثنين الحاج والخواجه مقنطرا على هرم من الارز ، فأنشب فيه الحاج أصابعه وقسمه قسمين ، وضع اطييهما أمام الخواجه . فرمق انطون بك نصيبه بتوجس غير ملحوظ ، ثم دار ببصره هنا وهناك كأنما يبحث عن شوكة أو سكين ، ثم مد

اصابعه النحيلة المترددة فاقتطع من اللحم الملتهب نسيرة صغيرة ٠٠
أخذ يلوكلها تحت أسنانه التي ينوى ان يغيرها بطاقم صناعى سليم
٠٠ ثم بدأ الاثنان وهما يمضغان اللحم والارز ، يتكلمان عن العمل
الذى كان والعمل الذى سيكون ٠

قال الخواجة انطون انه قد شحن الادوات والالات والخيام ،
وكمية كبيرة من الاخشاب على المركب فؤاد ٠٠ فقال الحاج بهاء ان
المركب فؤاد قد وصلت ادفو منذ يومين وانزلت شحنتها على البر ٠
وانه يتوقع ان يكون الشيخ على قد حملها على الجمال حسب الاتفاق ،
وتوجه بها ومعه العمال الى الدرهيى ٠٠ ثم اتفقا على الرحيل الى ادفو
فى الصباح المبكر للاطمئنان على كل شىء ٠

وسأله الخواجة عن مشكلة الماء ٠ فأخبره الحاج بانهم عثروا
على بئر قديمة غرب الجبل مطمورة منذ سنين ، فأرسل لها الشيخ
على ولد أخيه أيسا مع ثلاثة من الرجال لتسويتها وتطهيرها ، لعلها
تغنيهم عن اجتلاب الماء من بئر شاذلى البعيدة ٠

وقد أمضيا معا بعد العشاء ساعة شربا فيها من الشاى ثلاث
دورات ، وتبادلا توقيع بعض الاوراق ، وفى الفجر ايقظ الحاج
ضيفه الخواجة ، وصب على يديه الماء من ابريق فضى فى جانب من
الباحة ، فغسل وجهه ، وازدرد كل منهما بيضتين ، وشربا الشاى
ثم اخذا القطار الى ادفو فوصلاها والنهار لم يشرق بعد ، فوجدا
نيكولا يتناول افطاره فى بوفيه الخواجة اندريكو ٠ فقدم الحاج كلا
منهما للآخر وتعارفا ٠

وكان الاتفاق أن يعمل نيكولا مديرا فنيا للمنجم الجديد ٠

كان الباشا المصرى خليل قد حسم المسألة فى ذلك العصر
الذى بدأ مأساويا وأخذ ماريو فى جانب واعلنه انه باع ترخيص
منجم السكرى لشركة فرنسية سوف تحسن استغلاله بأحدث
الادوات ٠٠ وكان ماريو عند حسن ظنه ساعة التقسيم فلم
يساوم وأخذ نصيبه من الباشا مشمئزاً منه ٠٠ وقرر ان يرحل الى
ساحل البحر الاحمر ليدلى بدلوه مع الباحثين عن البترول ٠
وقال نيكولا انه سيبقى فى الشرق الجنوبى مع أقاربه هؤلاء
٠٠ فضحك ماريو وهو يودعه ، وذكره بأن له نسلا فى ايطاليا ،

يجب أن يذهب اليه .

وقد تبادل نيكولا مع ايليا زوجته بعض الرسائل حدثته كثيرا عن ايليا ابنته التي أصبح عمرها الآن ست سنوات وأنمرت في عقلها روح الفضول فبدأت تسأل عنه بالحاج ، وارسلت له صورتها في الكازينو المظلل بالاشجار الصناعية ، وأخبرته ان حماه قد مات مودة الله . وقال ماريو انه سيذهب أولا الى ايطاليا ثم يعود الى صحراء الغرب في الرشيع فأعطاه نيكولا خطا با كان قد كتبه لزوجته وحمله بعض الهدايا الاقليمية الصغيرة لايلى ابنته . ثم ودعه تابعا أيضا الى كوم امبو للتعرف بالحاج بهاء .

رحب الحاج بنيكولا وقدمه للخوافة انطون بك ، ثم جلس الثلاثة في بوفية اندريكو للراحة واخبر نيكولا الحاج بان الشيخ على قد أخذ الجمال محملة بالادوات الى الدرهيى وسبقهم في ذلك الطريق القديم ، عبر وادى الخريط ووادى خشب الى بير شاذلى ثم الدرهيى . وقال الخوافة انطون بك أنه اشترى سيارة جيب للمشروع ، وعين لها سائقا ، فهنا الحاج بهاء شريكه على تلك البادرة الحسنة . وأبدى بعض التحفظات تجاه وعودة الطرق وخشونتها على السيارات ، فأسهب الخوافة انطون في الحديث عن العربة الجيب . وأخبرهم انهم قد بدأوا يستعملونها في الحرب لقدرتها على صعود الطرق الوعرة ، واختراق الغابات . ثم ألقى حكمة ظلت تدوى في اذنى نيكولا بعد ذلك على مدى السنوات ، اذ قال أن على المرء ان يعطى الكثير اذا اراد ان يأخذ الكثير . وقد بدا من حديثه انه يعلق على مشروع الدرهيى امالا كبيرا ، لو تحققت لنفخ الرب في صورة شركته الصغيرة في القاهرة لتجارة أدوات التجميل ، فتضم مصنعا وربما مصنعين . لتصنيع خامة تلك التى سيعطيهم اياها جبل الدرهيى العظيم .

وجاءت السيارة الجيب يقودها سائق حضرى . فوقفت جديدة مزهوة أمام بوفيه اندريكو . وكان زهوها جديرا بأول سيارة تجر أن تدير عجلاتها على رمال هذه الصحراء وحصاها لتسلك طريقها بجرأة ، عبر الدروب الملتوية والمنحوتة في الاحجار . واشرح الحاج بهاء أن يأخذوا تلك الطريق الاضمن والاطول نوعا ، الى جبل الشلول غربا . ثم جنوبا عند مفرق جبل مدرك ،

وعبر وادى البرامية الى جبل حفافيت ثم جبل التيممة فيطلوا على الدرهيب مع الغروب ان لم يتوقفوا فى الطريق •

ووافق انطون بك على الاقتراح • واضاف اليه انه يرغب أن يملوا بأبى غصون • ليعلم مدى ما وصل اليه مشروع البحث عن الامنيات هناك • فله فى المشروع صديق يرغب ان يلقاه •

وجلس انطون بك ونيكولا فى المقعد الخلفى • بينما جلس الحاج بهاء الى جوار السائق ليدله على الطريق •

وحين وصلت الشمس الى مجلسها العمودى فى الاتفاق ، فى ذلك النهار المبارك المرصود فى دفتر الحاج بهاء كانت العربة الجيب ، تتلمس طريقها بصعوبة على الاطراف الشمالية للهضبة التى تعلو وتنخفض وتدخل فى البحر ثم تنأى عنه ، فتظهره لهم حيناً ، وحيناً آخر تبعده وتخفيه • ولاحث لهم على البعد مشارف أبى غصون ، فرفع جندى الحدود خشبته الطويلة التى تسد الطريق ، ثم تبادل مع السائق كلمات مضغمة لم يفهما فأشار له على الحاج فحياه الشاويش • وألقى له بالخبر •

قال فى هدوء ، ونبرة ساكنة ان الرجال قد ماتوا فى البئر •
— أية بئر ؟ •

سأل الحاج بدهشة • فأجاب الشاويش :

— البئر القديمة غرب الدرهيب •

لقد اختار أيسا رجلا وأخاه وولده • وحملوا غبيط الجمال بالماء والزاد وادوات الحفر وأنجال والزناييل ، وساروا الى الغرب الجنوبي لجبل الدرهيب مع المساء فوصلوا البئر مع الفجر • فحطوا الرجال واخذوا يتفقدون المكان • وامرهم أيسا فأقاموا مظلة من اغصان جافة جمعوها عبر الطريق ، ووضعوا تحتها الزاد والماء ، وأنأخوا الجمال • بينما كان أيسا يزيح الصخور على حافة البئر ، ويربط حبلا للمهبط • وحبلا آخر علق فى نهايته الزناييل الذى سيحمل الردم • ودلاه داخل البئر • واتفقوا على أن يهبط أثنان داخل البئر لرفع الردم ، ويبقى اثنان خارجه لاستقبال الردم وافراغه وإعادة الزناييل •

ونزل الرجل وشقيقه .

وبقى أيسا مع الغلام يرقبان العم وهو ينزلق على الجبل داخل البئر ، يتبعه الاب ، كأنهما قد دربا الاف المرات على الهبوط . . وبعد أن اختفيا فى عمق البئر البالغ عشرين مترا واستغرقا من الوقت ما يكفى لماء الزنبيل ، اهتز الجبل ، فجذبه أيسا بمساعدة الغلام . . وصعد الى السطح زنبيل الردم الملائن فأغرغاه ، ثم دلياه ثانية وانتظرا عودته . . لكن انتظارهما طال .

فمد أيسا رأسه داخل البئر فلم ير غير الظلام فنادى على الرجال فلم يسمع غير صدى الصوت .
هز الجبل بالإشارة المتفق عليها ، فلم يتلق اشارة الرد المماثلة .

فأنزعج . . وقرر النزول ليعرف ماحدث . . وترك الغلام فى الخارج .

وقف الغلام على الحافة يرقب أيسا وهو يغيب داخل الظلام العمودى المجوف . . لم يكن يسمع صوتا . . والشئ الوحيد الذى كان يعلن عن الحياة داخل البئر ، تلك الاحتكاكات التى يصنعها الجبل بالحافة اثناء نزول أيسا . . ثم توقفت هذه الاحتكاكات وسكن الجبل ، فعرف الغلام ان أيسا قد وصل الى القاع . . فانتظر فترة وهو يرقب طرف الجبل الساكن عند الحافة ، بعينه الضيقتين . . متوقعا اشارة من أيسا بالجبل . . لكن الاشارة تأخرت ، فعملها هو . . حرك الجبل يمينا ويسارا ثم تركه يسكن على الحافة وانتظر الرد . . لكن الجبل ظل ساكنا . . فمد رأسه داخل البئر وأخذ ينادى الاب . . فلم يرد عليه . . فأخذ ينادى العم ، فلم يرد عليه . . فأخذ ينادى أيسا . . فلم يرد عليه .

لم يرد عليه أحد ، وكان الظلام العمودى المجوف يبتلع نداءاته وينغمها ويكررها فذهبت الطمأنينة من قلبه . . واصابه جنون الخوف فأخذ يصرخ فى فتحة البئر صراخا مفعما بالأس ، ومضى يجرى هنا وهناك حول البئر فى خبل . . يبتعد ، ثم يعود فيطل على الظلام الذى يحتوى الرجال الثلاثة . . فى تلك الفوهة ، وينادى بأقوى ما تستطيعه حنجرتة ، دون أن يرد عليه أحد ! .
جمدت حركته واقعى على نفسه عند الحافة يحرق فى الفوهة

والجبل الساكن .. ساعة وساعتين وثلاثا .. وحين أحس بالظلام
يزحف على رمال الصحراء وصخورها نهض مفزعا ، وقد أدرك أنه قد
أصبح وحده تماما في تلك الناحية الموحشة من الجبل .
فمضى يجرى في وهاد الجبل واخاديه ، صاعدا هابطا وقد
تشققت قدماء بينما يخترق الصخور ، ليدور حول الدرهيب .

كان يعلم ان الشيخ على قد سار بأحمال الادوات تجاه الواجهة
الشرقية للجبل ليهيئ المكان عند فتحة المنجم لاستقبال القادمين ..
وقد وصل الغلام الى خيام الشيخ على ورجاله مع الليل .. ومن خلال
لهائه وشجوبه ، ادركوا الواقعة .. فوضعوا للغلام طعاما وماء لم
يقربهما .. وجلسوا حوله يخمنون ما حدث للرجال في البئر .
قال واحد : لعل البئر مليئة بالطين ، وقد غرقوا فيها .
فقال الغلام : أبدا .. أول زميل طلع مليون ردم ناشف .
فقال آخر : يكون البئر فيه غازات خنقتهم .
- يمكن .
- والا يكون فيه تعابين .
- يمكن ..

وكان أنشيوخ على قد انطوى منكسرا ، وقد هده الخبر لحظة
فتمالك ثم قرر ان يذهبوا فورا الى البئر لمعرفة ما كان .
هبطوا دروب الدرهيب الشرقية الملتوية .. مائلين حوله في
ظلمة الليل الشديدة البهاء متجهين الى الغرب حيث توجد البئر
فوصلوها قبل الفجر بقليل .
وجدوا الجمال على حالها تحت العشة التي أمر ايسا باقامتها ،
ووجدوا الماء وطعام الرجال على حاله في المناديل .. ووجدوا سيف
ايسا ودرعه على حافة البئر ، بينما كانت الحافة فاعرة فاها المظلم
تحت هذا الفجر الصاعد على الصحراء بجبالها الساكنة ، التي
لا توحى ابدا بوقوع مأساة .. فانقبض قلب الشيخ على قبضة
موخزة .. وكأنما هو يدرك للوهلة الاولى ان هذه الفوهة اللعينة قد
ابتلعت ايسا ابن اخيه الى الابد ، دون ان تترك منه سوى تلك
البقايا من الحديد .. التي كان يتسلح بها في مواجهة الحياة .

انحنى أنشيوخ على ومال مبتعدا ليخفي دموعا انفجرت دون
ارادته من عينيه .. ثم جمع نفسه في صوت اجش وأمر الرجال

ان يضموا اليهم جمال الضحايا ، لينذهبوا الى حماطة ٠٠ فلم يكن باستطاعتهم ان يفعلوا شيئا حينذاك .
حماطه بين برانيس وأبو غصون .

هناك ينحدر الجبل مكونا سفحا ممددا الى ساحل البحر الاحمر ٠٠ سفحا يضم عددا غير قليل من التلال والوديان .
وعلى هذا السفح كشك صغير من الخشب وبرميل ماء وعسكري شاب ، هو فقط كل مظاهر الامن المنظم والمظهر الرسمي للقانون .

وفى المنحدر أقيمت مظلة من الخشب القديم والصاج ٠٠ عشة فقيرة لكنها نعمة عظيمة فى وهج الصحراء ٠٠ وما انفعها واعظمها واغناها بقعة الظل التى تحتها . حيث يجتمع الرجال الهابطون من الجبال فيعرفون الاخبار ويتبادلون الرسائل وينتظرون القوافل ويجتمعون بشيوخ الصحراء ويتناقشون فى الملمات .

وقد وصل الشيخ على ورجاله الى هذه العشة وقد امتلأت بالعبادة ٠٠ أقارب الرجال الذين غابوا فى البئر ٠٠ فقد انتشر الخبر فى الصحراء .

قال الرجال : شوف لك صرفه ياشيخ على .
وكان الشيخ على منطويا على فاجعته ٠٠ فقال :
لازم نبعث اشارة للقصير عشان يبعثوا وكيل النيابة يعمل تحجيج ٠٠ !

توجد محطة صغيرة نلاسلكى اليدوى فى مرسى علم يملكها حرس الحدود ، يتصلون منها بالقصير على ساحل البحر ، اقرب حضر للصحراء .

وفى القصير يقيم حرس السواحل والبوليس ووكيل النيابة فى القصير يقيم القانون .

وأخرج الشيخ على ورقة كتب فيها ملخصا للحدث ، ثم طلب وكيل النيابة للتحقيق ، وطوى الورقة واعطاها لولد فى الثالثة عشرة ٠٠ ملأ اولد كيسا جلديا بالماء وربط منديلته حول بعض الطعام ثم شمر جلبابه وعقده حول خصرته ، وربط الطعام والماء على كتفه ، واحضر فرعا صغيرا من شجرة جافة فشقه من طرفه شقا

صغيراً وضع فيه الخطاب .. ورفع الفرع بالخطاب فوق رأسه
كالعلم .

قال الشيخ علي : لا تعوق .. جاعدين مستنظرين .
وانطلق الولد يجري في خط مستقيم مرتفعاً ومنخفضاً حتى
غاب عن الأنظار .
وعندما اختفى نظر واحد الى الشمس وبحث عن مكانها في
السماء ثم قال : ان شاء الله يوصل مرسى علم بالليل .
قال رجل : يكون بتاع اللاسلكي نام .
وقال آخر : ويكون وكيل النيابة نام .
فقال الشيخ : يبلغوها الصبح يوم الثلاث ، ووكيل النيابة
يوصل عندنا الظهر أو بالليل .

قال الرجال مستنكرين : بالليل !؟
قال الشيخ : ادى احنا جاعدين .. اعمل يا ولد الشاي .
ودخلوا بقعة الظل تحت العشة .. وبدأوا يتهأئون لهذا
الانتظار الطويل .
وانحدرت سيارة الجيب على حصى الهضبة بيننا الحاج بهاء
يمد ذراعه منها مشيراً للسائق على الطريق ، حتى توقفت أمام
العشة في حماه .
وبجوار العجلات رأى نيكولا النار تحت كوز الشاي ، وصبياً
من الابنوس ، يغسل أكواباً من الألمنيوم لها اذان مطلية بلميناء .
وكان الرجال الجالسون على أنفسهم داخل الظل وقد احتضن
كل منهم وجهه بركبتيه قد نهضوا جميعاً واقفين ، واستاءوا الطريق
للشيخ علي ليرحب بالقادمين .
وقف متماسكاً يتطلع الى الخواجا انطون بك ذلك الضيف
الجديد على الصحراء ، ولم تمنعه فاجعته من ان يقدم له عايلاً ثمه
من حفاوة وترحيب .. وسأل الحاج بهاء عما حدث فقال الشيخ
علي : أمر الله .. قضاء الله .
رددها مرتجفاً محاولاً أمسك انفعاله .. ثم مال جانباً واخفى
حزنه في الترحيب ، بينما تطوع واحد من الرجال للاخبار
بالتفاصيل .

واقترب الغلام الابنوسي من نيكولا مقسداً له كوبه الشاي

فراى ايسا مائلا امامه فجأة فى وجه الغلام .. بهت نيكولا وامسك
بالغلام من كتفيه محدقا فيه وهو يهز رأسه كأنما يجلو عينيه ..
لكن الغلام كان يحمل وجه ايسا مايزال .
وقال الشيخ على : هذا أبشر ، ولد ايسا ابكر .

ولم ير نيكولا أثرا واضحا للفاجعة ، فى وجه الغلام .. حتى
وجوه اقارب الموتى من حوله لم ير فيها اثرا بارزا للفاجعة .. كانت
وجوههم المستقيمة الحادة ، جامدة صلبة .. وتحت العينين ذلك
الخط الوهمى انفاثر الذى يوحى بالطيبة والبساطة ، بساطة ذلك
النوع من البشر الذى يفطر بالشهدائد .. ويتغدى بها .. وينام
فى الليل وكل حواسه عيون صاحبة !

وكانت عيونهم جميعا مواربة .. تلك عادة الناس الذين
يسكنون مساحات فارغة ممتدة تكتوى بنار الشمس .. انهم
يواربون عيونهم فتصبح درجة الابصار اكثر عمقا ، واكثر حدة
وتحتوى الحدة من الضوء الشديد .. ويمكنهم حينذاك اخفاء
الحزن الفاجع خلف هذا الخط الوهمى تحت العيون المواربة .

كانوا على الاجمال رجالا ، يطوون فى جنوبهم كل الرموز
والمعاني التى تعطيها كلمة رجال هذه .

بل ان ابشر غلام ايسا ، كان أيضا رجلا .
وكان حزنهم جميعا متواضعا لان الموت فى الصحراء عادة .
قال نيكولا : سنأخذ أبشر معنا .
فلم يكن قادرا على مواجهة ذلك الشعور بانفاجعة وحده .
وانطلقت السيارة تحمل بداخلها الحاج بهاء والخواجة انطون
ونيكولا الذى افسح لابشر مكانا بجواره .. بينما وقف الشيخ على
والرجال فى وداعها حتى اختفت فى أسفل الهضبة ونيكولا بداخلها
منطويا على هذا الحدث انفاجع الذى شاءت الصحراء أن تواجهه به .
أن تتلع صديقه ورجلين آخرين .. على شرف استقباله
مواطننا دائما بها .

لقد تأكد له ساعتها ، وهو يحيط ابشر الصغير بذراعه فى
حنو ان هذا الحدث الذى كانت الصحراء مشغولة بتديره بينما
كان هو فى ادفو يحتسى النبيذ ويأكل البتاو مع طسواجن الحمام

المحشى فى بوفيه اندريكو ، سوف يلقي ظله الكئيب على اقامته .
وسيكون له وقع السحر فى تشكيل النفسية التى سيتعامل
بها مع هذه الصحراء .
ورغم ذلك فقد كان متأكدا أنه لم يعد بإمكانه التراجع .

لقد بدأ رحلته يومها من ادفو ، مرخا كرجل فى نزهة مع
مجموعة من الرجال . . لكن الصحراء فى حماسة ، كشفت له عن
وجهها القبيح . . فذابت خفته .
ومضى ينظر الى جبالها من السيارة ، فى وجل وتوقير . . فلم
يكن بإمكانه ان يستخف بها .





الفصل السادس

عبر هذا الزمن الطويل الذى لم يعد نيكولا يستطيع تقديره يصل الى حالة من الوجود تقترب من اللاوجود .. فعلام يتغذى ذلك الهيكل العجوز العارى ، المتوحد على قمة الدرهبب بجوار فتحة ساكنة لمنجم مهجور ، كان الى وقت قريب ينبض بحركة الحياة .

أى عناد يبقية حيا بين هذه الصخور الحادة بأشكالها المغرقة فى الغرابة ، الا شعور متفرد ونادر يملؤه ويوحى له ويقنعه بأن جسده البشرى ، ذلك المكان المحدود الذى يحتوى روحه اللامحدودة قد ذاب وانتشر وامتزج عضواً في ذلك المكان الام .. الممتد والفسيح .. فيزحف زاهدا فى الطعام .. وفى الشطرنج .. بل زاهدا ايضا فى التجول داخل شرايين الدرهبب العظيم ، تحيط به ، وكأنها سيوف مشرعة ، أسنان خامة تلك الشمعية التكوين ، باحثا عن ايليا .. صديقه الحميمة .. ابنته .. تلك التى اغلق عليها كهفا بانهيأ صخرى غادر .

زاهدا فى كل هذا .. يزحف نيكولا بجسده الاوروبى العارى

الذى لفحته شمس الصحراء فأحالتة الى لون البن المحروق ،
مصطحبا ما بقى فى زجاجة السبرتو الاحمر .. متسلقا الصخور
ودائرا حولها ، تاركا الشرق خلفه ، زاحفا الى الغرب .. فيصل
والشمس فى قلب السماء ، الى حيث توجد البئر القديمة ..
المهجورة .. فيتوقف يلهث .. وقد سال العرق التغزير على جسده
العارى ، حبلا مضفورة بما استوعبه من تراب .. ويتأمل المكان
السكن كأنه مقبرة اثرية .. ويلقى بعينه المنكسرتين تحت جفونه
البضاء فى فوهة البئر الساكنة .. فينكر عليها سكنها .

من ذا يصدق الآن ان ايسا قد هبط هذه الفوهة بارادته
ليخرج لهم الماء .. فلم يخرج ايسا ولم يخرج الماء .
من ذا يستطيع ان ينكر عليه ان ايسا لا يزال هنا .
بأى شكل من الاشكال موجود هنا .
ويقعى نيكولا على الحافة منكسرا لحظة ، ثم يجرع من السبرتو
الاحمر جرعه نارية ، ويهدر فى فتحة البئر المهجور مناديا ايسا ..
ساديا باقوى ما تملكه الحنجرة من طاقة وجهه .. لكن ايسا
لا يجيب .. فينزوى نيكولا ويلتوى على نفسه .
ليتك بقيت فى أبو غصون تتسلى باصطياد الاسماكوزا مع
صاحب السعادة انطون بك .
ليتك لم تقرر والصغير أبشر يرمقك بعينه الرجلتين ، أن
تذهب معهم الى البئر ، فى ذلك الوداع الاخير .

كانت الشمس الالهة قد اشعلت النار فى حديد السيارة
الجيب .. نارا اذابتهم وجعلتهم كتلا من الدهن لا أثر للنشاط
العقلي فيها .. وفجأة انعطف السائق بالسيارة يمينا ثم يسارا ..
وانبعث من تحت العجلات التى احتكت بالارض الصخرية صوت
مكتوم .. كأن شيئا قد تحطم .. وأعلن السائق بفخر انه قد قتل
ثعبانا .. ثم اوقف السيارة ونزل منها يفحص العجلات ويتأكد من
سلامتها فانتبهزها الحاج بهاء فرصة ليفرد جسده وغادر السيارة ..
فتبعه نيكولا .. والشيخ على .. وبقى الرجال اقارب الضحايا
مكدسين فى صندوق المؤخرة .

وانحنى الشيخ على ودقق النظر تحت عجلة السيارة وأعلن أن
السائق قتل طريشة ، وليس ثعبانا عاديا .. فاحتفى الرجال فى

مؤخرة السيارة بالسائق .. فعل رمال الصحراء وبين صخورها
تزحف آلاف الأفاعى .. نوع يبخ السم .. ونوع يغرسه بأنياه ..
والطريشة من النوع الآخر .. وأخذ الرجال يتبادلون الحكايات عن
رجال قطعوا أعضاءهم بسيوفهم وخنابرهم لان الطريشة قد هبشتها
.. فلا علاج أبدا لسم الطريشة بغير القطع ، بغير التخلص من العضو
المسموم .. التنازل عن العضو .. أو التنازل عن الحياة كلها .
وحينما تأكد السائق من سلامة العجلات عاد الى السيارة . فعادوا
جميعا اليها .

كم ساعة ساروا وكم ساعة بقيت حتى يصلوا الى غايتهم ..
لم يكن نيكولا يستطيع التقدير .. كان واجما ولاحظ أن السائق
مستغرق تماما كما لو انه قد أصبح قطعة من حديد السيارة .. وكان
واضحا أن الطريق تسحبه من عجلاته . وانه لا يملك سوى الطاعة
والاستسلام .. فليس عليه سوى أن يتبع الماركة التى مهدتها آلاف
الاقدام للبشر والجمال الذين عبروا هذا الطريق من قبل .. وخيل
لنيكولا أن الطريق من وجهة نظر السائق يبدو مائلا ، وأنه ينزلق
عليه ، وان هذا يسبب له اللذة .. وكأنه نائم يحلم .. لكن وجهه
سرعان ما يريد ويقلق وتنتبه عيناه .. حينما تضيق الماركة .. أو
تبدو باهتة فى مكان .. حينما ينظر أمامه فيجد الارض منبسطة
فسيحة .. جديدة كأنما لم تمسها من قبل قدم انسان .. صامتة
لكنها مشحونة بالخطر فى داخلها .. وابسط اخطارها أن ينطلق
فى أرض رخوة ، وتغوص سيارته فى بحر من الرمال .. وسمع
نيكولا الشيخ على يحذر السائق عند مفترق ماركتين ، ويهديه الى
احدهما .. وسمع السائق يعطى لايشر وعدا بأن يعلمه قيادة
السيارة ، لو قدر له البقاء فى الصحراء .. وسمع حديث الحاج
بهاء عن الاستاكوزا التى يصيدها الخواجة أنطون فى أبى غصون .
لكنه كان غائبا رغم ذلك .. كأنما روحه قد انشطرت
نصفين .. وكانت صورة ايسا دائما طافية فوق كل انصور .

وعبطت بهم السيارة واديا حفرتة السيول .. ومن بعيد لاح
لهم الدرهيىب جانما فى مواجهتهم كظل هائل يمد جناحيه الهلايتين
فيحتضن ههما الوادى العظيم الذى يعبرانه اليه .. ولم تكن ملامحه
قد ظهرت لهم بعد رغم الضوء الجارح الذى تلقيه عليه الشمس من
السماء البيضاء .

ورأى نيكولا على الصخور ظلال الرجال داخل صندوق السيارة وهم يمدون رؤوسهم خارجها . . وسمع ضجة تسأل الشيخ عن سببها فرد رجل من الخلف بأن الرجال المكلفين بالانتظار جوار البئر قادمون . . فدهش الشيخ على ، ومد بصره محدقا ، حتى لمح شبحين قادمين على السفح . . لا فرق بينهما وبين صخوره .

كانا يلهثان كأنما الأشباح تطاردهما ، وعندما توقفت السيارة بجوارهما تهالكا عايتها وقال أحدهما : الشعبين يا شيخ على . . الشعبين والطريشات نازلة طالعه من البئر زى يوم الحشر . . ولا فيه فتفوت أرض الواحد يحط فيها رجله . . كل الأرض حوالين البئر غطتها الشعبين .

وكانت رائدة عفنة قد بدأت تلفح أنوفهم داخل السيارة . . فتمتم الشيخ مستعيذا بالله . . وأمر السائق بمواصلة السير الى البئر .

وجدوا السفح مغطى بحبال غليظة طويلة مختلفة الاحجام ، تلف وتدون وتتحرك مندفة للامام . . عشرات من الحبال السوداء والصفراء والمرقطة . . أهاجتها رائحة العفن الصادرة من البئر ، فخرجت من بيوتها بين الصخور متجهة اليها .

ولم يستطيعوا أن يروا فوهة البئر . . مثل قبائل النمل كانت الشعبين قد غطت الحافة وأخذت تصعد منه وتهبط فيه .

وبدا السفح لنيكولا كبحر خرافى والشعبين أمواج فشعر بدوار . كانت الحركة الملتفة الدائبة قد بهرته ، واكتشف خلالها الى أى مدى هو وادى البنيان فى مواجهة تلك الصحراء الوحشية ، بقوانينها وقوانينها ، حيث يهون الموت ، وتعالج الامراض بنبات الأرض ، ويقتل الخجل ، وتصبح المباشرة هى الاسلوب الصحيح . لقد أصبح موتور السيارة تلك الشعبين ، فأرهفت رؤوسها تتسمع وسكنت حركتها حينما ، فأنحدر السائق فى سرعة وأخذ يدور بالعربة يسارا ، ثم يرتد ويدور يمينا . . وكأنه يطارد الشعبين بالعجلات . . فبدأت تنقلص وتتلوى على نفسها وتندفع مبتعدة عن المكان . . حتى خلا السفح منها ، كأنما ابتلعها الجبل . . ولم يبق منها سوى الجرحى ، تجرر ذيولها المكسورة وهى تفح منسحبة خلف الصخور . . فتوقفت السيارة ونهيا الرجال لمغادرتها فأسرع الشيخ على يحذرهم ، فالشعبان الجريح أشد خطرا من الصحيح .

واتفق الرأي على أن يكتفوا بالقاء صفيحة ماء في البئر لتطهير الموتى .. ويؤدوا عليهم الصلاة ويعودوا .. فهبط الرجال بصفيحة الماء وساروا الى الحافة وهم يطوحون رؤوسهم يمينا ويسارا بحذر .. وعند فوهة البئر بسملوا وقرأوا الشهادتين والقوا بالماء في البئر .. وغطوا الفوهة بقطعة كبيرة من الصاج أثقلوها بصخرة .. ووقف الشيخ على اماما واصطف الرجال خلفه .. يقرأون الفاتحة وهم يتلفتون حولهم خشية أن يتسرب بين أقدامهم ثعبان !

أية سكيئة كان ينعم بها الموتى في مقرهم الاخير داخل البئر ، تاركين الفزع والرعب لهؤلاء الاحياء الذين كانوا يدركون بشاعة نهايتهم ويصلون لارواحهم ؟ . كانت الشمس تغرب على السفح الغربى للدرهيب ، فتكسر اشعاعاتها الحمراء على صخوره الزرقاء ، فتنبعث منها كل ألوان الطيف .

وفي هذا الجو الاسطوري .. فى تلك البقعة المنعزلة .. تذكر نيكولا ما كان يقوله ايسا .. وخيل له أن دماء الرجال الذين ابتلعتهم البئر ، قد نشرت لونها فى الصحراء وصبغت كل شيء . فكأن الطبيعة كانت رغم ذلك حزينة على الضحايا . وما أروعة من حزن ذلك انذى كانت تفوح رائحته فى الارض والسماء والجبال .

وحين خرجت السيارة من بقعة الظل التى منحها لهم جانب الدرهب الغربى ، بينما هى صاعدة الى الشرق .. كانت الكآبة قد أذابت حيوية الجميع ، فدخل كل منهم فى البئر الخاصة به ، وأخذ يهبط ويهبط داخل نفسه .. واصبح سكون كل منهم وطيدا فى علاقته بسكون الجبل ، وسكون السماء .. وصارت السيارة الحديدية هى المحي الوحيد المتحرك فى ذلك السكون كله .

ورأى نيكولا أن هناك قرابة خفية بين كل الكائنات .. الشمس المسطرة على مشرق الجبل .. الجبل الرابض تحت الشمس ممتدا بجذوره الصخرية العتيقة فى حافة الوادى الذى خلفه وراءهم منذ ساعات .. الارض الرملية والارض الصخرية فى البقعة المحيطة بفوهة البئر الساكنة .. بل البئر ذاتها .. وصور أخرى لصخور مفعمة بالنباتات الحريفية اللون الحادة التكوين .. الشبيهة بشظايا الصخور .

كل ما على الارض ممتد في الارض .. وهو خارج منها وعائد اليها لامحالة .

كل ما على الارض دائم التحول والتبدل والتغير .

هل أنت يانيكولا من كنت من قبل ؟

تحت أقدام الجبل المرحوم علبة ، وفقتما خاشعين أنت وايسا أمام جده المقدس الصخرة .. وقدمك له كصديق .. وكنت خائفا والشمس تلهب ظهريكما بينما أنت معلق العينين بالوهج المرتد عن حواف المغارة العليا حيث يوجد كوكالوانكا .. لكن خـوفك كان ينزاح كلما احتواك ايسا بابتسامته البدوية الصافية .. وحين دلفت الكباش البيضاء الى اشجارها الكثيفة في الوديان العليا المزهرة فوق انجبل المرحوم .. وبدأ وهج الشمس يسقط بعيدا متراخي الاطراف خلف الافق .. اعطاك ايسا من زاده ، وقادك من يدك الى صخرة مشرفة على السماء انتى بدأت صـفحتها تكتسى بالرمادى والفضى احتفاء بالنجوم .. وأخذ يعطيك من عقله أيضا ، فأخبرك أن القيط عندهم هو الصيف ، والخريف سجيح ، أما الشتاء فهو الحمة .. قعود لا عمل فيه لأن السيول تهدر الماركات وتغير معالم الوديان وتحرك الصخور وتهيلها .

ورفع عينيك الى السماء وأخذ يعلمك اسرار نجومها .. تلك الاسرار انتى اقتنصها هو وأجداده من تأملهم الطويل فى تلك النجوم ومراقبتها آلاف الاعوام .. وبصوته الخافت والمهموس قال ان الثريا تطلع أول الصيف قبل الفجر ، وبعد ذلك بأربع عشرة ليلة ، تطلع البربرة .. وبعدها بخمس وعشرين ليلة يطلع السماكان والمرزم . وتطلع كلها فى صف من الشرق .. واحدا وراء الآخر .. وبعد طلوع البربرة بأربع عشرة ليلة أيضا ، يطلع النجم سهيل من الجنوب ايدانا ببدء السجيح .. وتدوم هذه الانجم فى الفلك عشرة أشهر قمرية ، وعشرين يوما ، الى أن ينتهى الربيع ثم تبدأ فى الغياب الواحد بعد الآخر .. فتغيب أربعين يوما ، ثم تعود للظهور من جديد والثريا فى المقدمة .. وهكذا يمكنك أن تعرف الفصول وتتوقع الاجواء وتقدر الحول بعد الحول .

أخبرك بذلك النظام الدقيق لظهور النجوم واختفائها ، لكنه لم يخبرك بشئ عن ظهور البشر واختفائهم .
لقد ظلت نفسك وديعة آمنة فى رحاب حفاوته ، وكنت عاطفيا

كطفل . لم تصقلك صولاتك وجولاتك كمهاجر أمضى صباه في
الترحال . . فطللت محتفظا بقدرتك على الاندهاش لكن هاهو يختفى
من جوارك فجأة . . اختفاء لا عودة منه . . فما بالك ساكنا لاتنبض
بالدهشة وكأننا قد انكسر بداخلك شيء ؟!

لقد أطل نيكولا على باحة المنجم حين وصلوه ذلك اليوم دون
بهجة . . وكان جديرا به أن يقيم الافراح داخل نفسه بالمكان
الجديد . . لكن روحه كانت مهياة لدخول المكان الجديد في صحبة
ايسا . . لقد كان ايسا بديلا لماريو . . كما كان ماريو بديلا لأمرأته
الصديقتين التي تسمى كل منهما ايليا .
والآن هاهو قد أضاع الجميع وصار وحيدا .

وكان رجال الشيخ على قد نصبوا الخيام في الباحة . . خيمة
كبيرة للمعامل في المؤخرة بجوار خيمة الفضلات . . وخيمة المخزن
والمطبخ . . وثلاث خيام صغيرة في المقدمة ، لنيكولا المدير ولصاحب
السعادة انطون بك ، وللحاج بهاء مع الشيخ على الذي لم يكن ينوى
البقاء كثيرا . . وكان الحاج بهاء قد اشترى في الطريق ثلاثة حملان
من راع غابر ، اهداه فوقها كيسا الماء من جلد اشواه . . فأمر الرجال
أن يقودوا الحملان الى فتحة المنجم لذبحها طلبا للبركة ، فوقف الرجال
على باب المغارة يبسملون ويكبرون ويقرأون الفاتحة ، طالبين لأنفسهم
من الله اصلاح الاحوال ، وطالبين لصاحب السعادة الحاجة انطون
والحاج بهاء دوام العز والجاه . . أما نيكولا فلم يطلبوا له شيئا .

كان قد بدا كأنما قد تلبسته فجأة شياطين العمل ، بينما كانت
دماء الحملان الوديعة القانية ، تسيل غزيرة على صخور الفوهة الجانبية
الفاغرة التي تؤدي الى أحشاء الجبل الداخلية . . كان نيكولا قد جمع
ثلاثة رجال وأمرهم بتنظيف الباحة ، فانحنوا على الارض ينتقون
منها الفضلات القديمة . . فأزالوا الصخور الصغيرة وأزاحوا الكبيرة
على الحواف في شبه دائرة . . ونيكولا فوق رؤوسهم المنحنية يشير
هنا وهناك . . ثم سار بهم بعد أن انتهوا من الباحة الدائرية ، فمهّدوا
الطريق الى فتحة المغارة وكانت الخراف قد اسالت كل دماؤها على
الصخور فداء وبركة . . فحملها الرجال خلف الخيام وانهمكوا في
شقها وتقطيعها وغسلها بالقليل من الماء . . ثم اشعلوا تحتها النار ،
وبينما كان الخواجة انطون والحاج بهاء يستريحان حتى ينضج

الطعام .. أشعل نيكولا مصباحى كربون ، وطلب من الشيخ على أن يرافقه ليهيئوا داخل المغارة .

كانت الفتحة ممتدة نوعا كأنهما يدخلان كهفا ، وكان المدخل وعرا ، فأمر نيكولا رجال الشيخ على بتسويته وواصلوا الدخول بينما مشاعل الكربون فى يد كل منهما تعكس ظليهما على جدران المغارة ، كأشباح طويلة لها ذؤابات تنقوس حسب الضوء على الجدران الصخرية المقوسة .. وانتهى بهما السير الى فجوة عميقة هابطة ، فمال الشيخ على وتحسس حافتها ثم أعلن ان السلم الحديدى ما يزال موجودا .

لم يكن المنجم بكرا .. فاختر نيكولا ذلك المعبر القديم الذى خلفه وراءهم أسلافه من المعدنين القدامى ومد قدمه رافضا أن يسبقه الشيخ على فى النزول .

مائة متر أو مائة وخمسين ظل السلم يهبط فى شبه بئر .. حتى استوى بهما على أرض ممهدة اشبه بفناء بيت ، تمتد منه على الجانبين أنفاق قديمة وممرات .. ورفع نيكولا مصباح الكربون الى جدران الانفاق باحثا عن الحامة ، ومشى مضيقا الحوائط من ناحية يتبعه الشيخ على من الناحية الاخرى ، فلم يريا من حامة التلك سوى آثارها .. فضلات الاسلاف القدامى .. وانتهت بهم الطبقة الاولى الى لا شئ .. وواجهوا فجوة اخرى عميقة ، ماتزال تحتوى سلمها الحديدى أيضا .. فواصلوا الهبوط الى ثلاثمائة متر استطاع الشيخ على أن يحسبها وهو يحصى مقابض السلم الحديدى أثناء الهبوط .. ووقف امام الطبقة الثانية من الانفاق والممرات .. ورفعوا مصباحى الكربون الى الحوائط ، كل فى ناحيته .. بحثا عن الحامة .

نسى نيكولا نفسه .. ونسى الشيخ على الذى يصاحبه ، وكان قد نسى الحواجه انطون والحاج بهاء والحملان التى تدور فوق النار خلف الخيام .. وانغمز بكل حواسه فى اكتشاف هذا العالم الجديد الذى سيكون عالمه .. كان يتحسس الجدران بشغف لم يحدث له أبدا حينما كان يتحسس بأنامله وجنتى ايليا ، ابنته ، الموردين . كانت ايليا الكبرى تقول أنه متوحش فردى لا يجب الاطفال وكان هو واثقا أن الامر ليس كذلك ، وأنه هو شخصيا يجب الاطفال أكثر مما تحبهم هى .

وكانت ايليا الكبرى تقول أنه جاف القلب ، جامد الشعور ، وربما غير قادر على أن يعطى الحب أصلا .. ناسية هى انها اخذته

على غرة .. فاعطته جسدها وأعطته أحلامها وطموحها .. بل أعطته أيضا زوجة وابنة .. دون أن تترك له الفرصة ليختار بنفسه شيئا .. بينما لم يكن يطلب وقتها سوى عمل يعيش منه !
ألم تقع في حب ايسا يانيكولا ؟ .. ألم يحدث لك ذلك عبر هذه الصحراء المترامية وانت تخوض وتكتشف الصحراء في نفس الوقت ؟

لقد كان ايسا بديلا لما ريو .. وكان ما ريو بديلا لما رأيك الصديقين .. فهل يكون حزنك العظيم هذا ، حزنا على الجميع ؟ .

أفلا يؤكد هذا قدرتك على عطاء الحب والشعور به ؟
لقد أخذت منك الطبيعة ايسا غدرا ..
كشفت لك عن وجهها القبيح فأصبحت وحيدا .. واصبحت مطالبا بأن تكون قويا على مستوى تلك الوحدة .
بل انك ها هنا مسئول ايضا ..

تلك أنفاق لا نهاية لها تمتد في قلب هذا الجبل كالشرايين عليك أن تقود الرجال القابعين الآن حول الشواء على سطح الجبل ، خلالها .. وتعلمهم كيف يزيحونها من طريقهم بما تحويه من خير وشر ، مثلها مثل الطبيعة الام .. فينحون الشر جانبا ، ويقبضون على الخير .. بينكم وبين الخير مشقة وإهوال يا نيكولا .. فلم يبق أسلافك في هذه الأنفاق سوى صخور حادة وأتربة متخلقة عن الانهيارات وسنادات خشبية قديمة يجب تغييرها عليك منذ الآن أن ترتب نفسك على اقتحام هذا كله والغوص وراءه .. بحثا عن الحامة الحقيقية واستخراجها .

كان يتحسس صخور السرداب بشغف لم يحدث له أبدا حينما كان يتحسس بأنامله وجنتى ايليا .. بينما كان مشعل الكربون في يد الشيخ على يلقي بضوئه المهتز على جسده الممشوق والمنحنى ، ويعكس منه على الحواف الدائرية للسرداب ظلالات طويلة ومقوسة .

وربت الشيخ بأصابعه النحيلة المعروقة على كتفه واقتصرح أن يكتفيا بهذا القدر ليصعدا للطعام .. وكانا قد أدركا نهاية الممرات في الطبقة النهائية ولم يجدا أثرا للخام .. وقال نيكولا وهما يصعدان السلالم القديمة الى سطح الجبل ، ان عليهم أن ينشئوا طبقة ثالثة ، بعمق مائة وخمسين مترا أخرى ، وربما مائتين .. فالتلك ما يزال موجودا داخل الجبل ، لكنه ممتد جانبيا في الاعماق

السفلى .. وقال الشيخ على ان الاسلاف القدامى توقفوا عن الاستثمار حينما عجزوا عن الوصول الى تلك الاعماق .. فأكد نيكولا للشيخ أنه يتحتم عليهم أن يصلوا الى مالم يصل اليه هؤلاء الاسلاف .. فتلك شريعة التقدم .. وكان الرجال قد أقاموا على سسفع الباحة أمام الحيام سماطا دائريا جلس الجميع حوله .. ينتظرون انضمام نيكولا والشيخ اليهم .

صعد نيكولا من المغارة وانضم الى السماط الممدود مقتصدا فى ابتساماته ، يغلب عليه الوجوم .. ذلك الوجوم الذى غطى محياه على مدى السنوات الطويلة التى تلت ذلك .

ورأى أنطون بك يجلس متربعا على الوبر المفروش فى الارض أمام السماط بجوار الحاج بهاء ، يحاول أن يكون ظريفا ومقبولا لهؤلاء الذين سيعملون معه .. هل تطمع يا نيكولا أن يكون مختلفا فى كثير أو قليل عن ذلك الباشا المصرى خليل ؟ .. الديك شك فى أنه الآن يتلمظ من الداخل ماضغا احلامه المحسومة على تلال تلك الشاهقة البياض .. التى ستحملها الجمال من المغارة الى البحر ، وتحملها المراكب من البحر الى مصنعه الصغير فى مدينة القاهرة .. فيكبر المصنع ويتضخم .. ويكبر بالتالى ويتضخم ذلك الحوجة أنطون بك ؟

وذلك الاخير .. العبادى الاصل ، الحاج بهاء .. ليس فضموما هو الآخر على أطماعه الخاصة فى الكسب المادى أولا ، وفى التضخم المعنوى بين أقاربه هؤلاء الذين غادرهم جده القديم مهاجرا الى الحضر ، ففقد احترامه البدوى كما فقد انتماءه للاصل والجذور ، أليس راغبا ذلك الحفيد أن يعود الى قبيلته السابقة غازيا ؟ ومن منهم سيبقى هنا ؟

سيرحل أنطون بك الى القاهرة .. تلك العاصمة المشهورة التى وعدك بأن يدعوك لزيارتها مع أول شحنة من التلك يخرجها المنجم .

وسيرحل الحاج بهاء الى تجارته وزراعته فى ادفو وكوم امبو . حتى الشيخ على سيواصل الترحال بين جبال الصحراء . وستبقى وحدك .. مع هؤلاء الرجال الذين سيقع على كاهلهم ثعب استخراج التلك من المغارات . هؤلاء الرجال الذين كان المرحوم ايسا يرى دماءهم القانيسة تطفح على سفوح الجبال ساعة الغروب ، فتظللها باللون الدموي .

الفصل السابع

للشيخ على حكمة بالغة يلتقى بها بروية على حصى الصحراء
كلما عبر برجل عارى المؤخرة ملتو على نفسه يعصرها لخراج فضلاته
.. يقول ناصحا .. اضبط نفسك .. يازول اضبط نفسك ..
مهده الأرض واحفر ثقباً تصوب إليه واضبط نفسك !
ذلك العجوز الضامر ، كشجرة صحراوية جافة وشامخة
يعرف كيف يخلط المزاج بالجد ، ويشق طريقه مارقا بوضوح بين
الدروب .

سيكون يقونتك يا نيقولا ، ذلك الشيخ على ، بعينه انواحدة
التي يستطيع أن يكشف بها من خفايا الصحراء آلاف الاشياء
والعلاقات التي تخفى على عينيك الاثنتين .. فها هو عبر هذا الزمن
الحافل الذي عاشه منذ كان طفلاً يحبو خلف الحملان الصغيرة وراء
الحيش فى ظلال الجبال مع اربعة .. الى أن غدا شاباً يروح ويجي
مع قوافل الجمال المرسلة للبيع فى سوق كردفان .. ما يزال ضابطاً
نفسه .. أليس حزنه أكثر جدارة من حزنك .. وايسا ابن اخيه
زوج ابنته .. وابشر اليتيم حفيده .

لقد استطاع هذا العجوز على كبر حصيف وعقل مجرب ثاقب أن يكون جسرا ومعبرا بين الحضر والبدو .
أليس هو أكبر الادلاء واقدمهم خبرة ، ذلك الذى تخطى خيام الحيش الى ابواب الصحراء ومدخلها ليستقبل المغامرين الافرنج وشركاءهم من اصحاب المال المصريين ، ويقود خطاهم عبر هذه الجبال ، ويضع اصابعهم الحمراء على خاماتها واحدة بعد الاخرى . .
مغمضا عينه الواحدة عن رجة الطمع فى عيون الاجانب .

هل كان ساذجا وهو يفعل ذلك ، أم كان أكثر الجميع حكمة ؟
لقد أدرك العجوز أن الجبال على حالها منذ القدم ، وأقاربه على حالهم منذ القدم ، ولن تفتح الكنوز على ايديهم ابدا . . فلا بد لمن يحمل التهمة ان يجيء ويفك رموز الطلسم ويفض الاختام . .
ويقتل الوحش ، ويفتح ابواب الكنز للجميع . . سيكون له نصيب الاسد فى البدء أى نعم . . وبعدها يبدأ الفيض يعم .

هؤلاء الاجانب يملكون المعرفة ، والخبرة ، ويملكون من السلطات ما يجعلهم يشيرون بأصابعهم تجاه الحضر فتجئ السفن وتجيئ الموريات محملة بما لم تره فى الصحراء عين ، أو تسمع به اذن . . ادوات وآلات ومشاريب وأطعمة وكساوى . . فيض غامر يتحرك الى الصحراء ويتسرب على جبالها حيث يقيم هؤلاء الاجانب ، ويسيل على الحواف حيث يقيم البدو فيتعلمون منه أو يعلمون به . .
ان لم يزد عن ذلك النصيب .

لقد رفض البشاريون هؤلاء الغرباء رفضا رومانتيكيا أقرب لرفض الانعام . . فيدير البشارى رأسه تجاه الفضاء اذا رأى واحدا منهم ، حتى لا يراه . . مما جعل هؤلاء الغرباء يستقدمون العمال من ويف الجنوب .

أما ايسا فكان ثائرا غضا . . مالت نفسه الجامعة الى مقاومة هؤلاء الغرباء لأول وهلة وكان ذلك خطأ ثانيا . . فلو انصرف الغرباء عن الجبل نتيجة مقاومة البدو لهم ومناواتهم لمشروعاتهم . . فسيبقى الجبل على حاله وسيبقى البدو على حالهم ، مئات السنين الاخرى ، فلن تعلمهم الرحلة من وادى الجمال الى سوق كردفان شيئا يذكر .

وهكذا قرر الشيخ على أن يغرس فى صخور الدرهيبت شتلة كاملة للتقدم . . لقد حاول فى مناجم النخيرة والفواخير وحماطة أن

يغرس بذرة ٠٠ فوضع مع الغرباء في كل منجم منها بشساريا أو
عباديا ، جمعه بالحيلة مرة ، وبالوعد أو الوعيد مرات أخرى ٠٠ حتى
خلصه من أسر العرف والعادة ، والقى به في خيام الصفيح التي
كانت تؤرق ايسا في منامه وتشعل رؤاه ، ليتعلموا عن صنعة التعدين
شيئا .

فبدون تعلم الصنعة ، لا يمكن أن تكون لهذه الجبال قيمة .
وهاهو العجوز الماكر يجمع هذا النبت الاخضر النامي في تلك
المناجم الاولى ليكون منه شتلة واحدة يغرسها في الدرهيبي لتنتب
الشجرة .

هل يحلم الرجل بأن يمتلك معارف هؤلاء الاجانب قطرة قطرة
مهما طال الزمن ، خلال تلك البذور التي يلقي بها بينهم في المناجم ؟
لقد أخذ نيكولا يحرق من خلال وجوهه الى سماط العمال القائم
غير قريب من سماطهم ٠٠ سبعة رجال مختلفين تماما عن رجال الريف
الذين جاء بهم الباشا المصري خليل للعمل في السكري ٠٠ يبدوون
كهؤلاء الذين اعتاد العبور بهم في رحلاته القصيرة حول جبل السكري
أو كهؤلاء الشامخي الانوف المترفين بأسمالهم وفقر اجسامهم ،
الممثلين بالشعور بالغنى الفاحش لاندماجهم في الطبيعة ٠٠ كأنهم
آلهة قديمة غير مدربة ٠٠ تبدو فجأة وجاهلة ، ولكن تفوح منها عظمة
الآلهة ٠٠ بينما جلس الشيخ الى سماطهم ، يدس لهم مع الطعام
أوامره ونصائحه ، العم اوشيك العجوز نوعا ، سيقم على المدخل
السفلى للدرب المؤدى الى الباحة ، خصا من الصفائح والاشخاب
وبقى فيه للحراسة ٠٠ سيكون غفيرا ٠٠ وعبدربه كريشباب سيعمل
في التحميل والوزن لأن عمله الاساسي سيكون تموين المنجم
بالاسماك ٠٠ ثلاث مرات في الاسبوع عليه أن يغادر المنجم ليلا حين
يأوى الجميع للنوم ، حاملا حراجه وشباكاه ، فيأخذ جملا يقضى به
بعد ساعتين أو ثلاث الى أطراف خليج بناس الشهير ٠٠ يحط رحاله
جوار الماء قبل الفجر ، فيجهز حراجه ويتسلل بقدميه العاريتين في
الماء دون حس ٠٠ متربصا للاسماك الكبيرة التي يغريها الظلام المضيء
بالتسرب الى الجواف الرملية القليلة العمق لتلتهم فرائسها من
الاسماك المتوسطة والصغيرة .

هاك عبد ربه يا نيكولا ٠٠ حاملا بذور المأساة في دخيلة نفسه ،

سليل قبيلة الكريشاب القديمة . حاملة تقاليد الفراعنة فى صيد الاسماك بالقضبان والحراپ القصيرة ، يعيشون على حواف الصحراء البحرية ، يأكلون من رزق البحر . . يشقون الاسماك ويجففونها على شمس الصحراء وهوائها ، ثم يرحلون بها الى الاخصاص بين الجبال لمبادلتها بالشعير . . حتى جمالهم دربت بطول الزمان على هضم الاسماك الصغيرة الجافة والتغذى بها .

هاك عبد ربه كريشاب يا نيكولا يتطلع كأنه ينتخبك من بين الموجودين جميعا ليخصك بعواطفه ومأساته . . ألم يبدأ فى ذلك اليوم بوعده أن يأتى لك بكومة هائلة من الاستاكوزا التى سمعت عنها فى الصحراء كثيرا ، ولم تتذوقها بعد ! .

والباقون . . خمسة . . سيعملون معك فى الانفاق . . هاهو الشيخ على يوصيهم بك . . يعدمهم ليكونوا الورثة الشرعيين لهذه الجبال وكنوزها بعد أن يأخذ الغرباء نصيبهم ويرحلوا .
لقد استهوتك يا نيكولا قدرة هذا المعجوز على الصبر ، وإيمانه بأن الزمن فى صفه .

ولعلك منذ تلك اللحظة على سباط الحملان المشوية قررت أن تأخذ جانبه . . فما الحواجه انطون بك غير طارء عابر ، ينتمى لمصنعه الصغير فى المدينة ولأملكه وعلاقاته بها . . وما الحاج بهاء بأقل منه اخلاصا لثروته فى ادفو وكوم أمبو . . أما انت فلا تنتمى لشيء .

ولن يفيدك أبدا أن تظل واقفا بين بين . . فاضبط نفسك .
على حد قول الشيخ على . . مهد الارض واحفر ثقبا تصوب اليه ، واضبط نفسك .

ولتكن مغارة هذا التجل مجال تصويبك .
وليكن موقفك الى جوار هؤلاء الورثة الشرعيين . . هو انضباطك .

ولتبدأ بالعلم . . فكل الاعمال العظيمة فى تاريخ البشرية بدأت بالاحلام .

وليكن حلمك على مستوى تلك الطاقة الهائلة المختزنة فى قلبك . . والمختزنة فى قلب هذا الجبل . . والمختزنة فى سواعد هؤلاء البدو وقلوبهم . . رجال الشيخ على ، ورجالك بعد أن ينصرف الجميع .

ستكون القائد توجههم للعزف فى هذا المجال الوحشى ، بين
الصخور .
أمامكم أغنية تنشدونها .. تتجاوب اصدائها فى هذا الخواء
البكر ، ليتحول الخواء البكر الى مدينة تحفل بالحركة والحياة على
أحدث مستوياتها الآلية .
انشاد مدينة .

ما أجدرك بهذا الحلم يا نيكولا .. وما أجدر هؤلاء الرجال
الغامقى السمرة به .
وهكذا رأى نيكولا أن اكتفاءهم بنبش الصخور يحصرهم فى
دائرة صغيرة لن تزيد أبدا عما يسمح به فى مناجم النخيرة والفواخير
ونكرات ، وغيرها من مناجم الصحراء .
فقال نيكولا ، ان القدامى قد هبطوا فى جوف الجبل طبقتين
على عمق ثلاثمائة متر تقريبا .. ولا بد أنهم فعلوا ذلك خلال عدد
كبير من السنين ، وقد أخذوا من سراديب هذا العمق وممراته ، كل
ما يمكن أن تجود به الصخور من الحام .

وقد رأى عرق التلك الشاهق البياض ، يطل بذوابته من
السرداب الواقع فى قلب الجبل تماما ، فى نهاية الطبقة الثانية ..
ولا بد ان القدامى قد وقفوا عنده وترددوا فى متابعتة لان ذلك كان
يعنى أن يحفروا فى عمق الجبل طبقة ثالثة ، ينطلقون منها خلف
الحام .. ولا بد لهذه الطبقة الثالثة من بئر تلتهوية .. ثقب عمودى
يتصاعد من تلك الاعماق حتى ينفتح على السماء فى قمة الجبل فيحمل
للعمال داخل السرداب هواء نقياً .. فلن تكفى تلك الفتحة التى
فتحتها القدامى لتمد الاعماق الثلاثة بأنفاس الحياة .

قال نيكولا .. لا بد من التفجير ، ان كنا راغبين فى عمل
جاد .. فلنستخدم البارود .. ولنستخدم مدربا يدرّب العمال على
تخريم الصخور وحشوها بالمتفجرات ، ولنستخدم أخصائيا فى
التفجير .. سيكلفنا هذا مالا .. أى نعم .. لكنه سيوفر لنا وقتا
كثيرا .. فلنواجه هذا الجبل بكل شجاعتنا وكل قوتنا ان كنا راغبين
أن نفوز عليه .. ونبقى فيه .

فهذا الحام المبعثر يمكن لهؤلاء العمال السبعة أن يجمعوه خلال
شهرين .. وشهران آخران يكفيان لجمع الفتات المتبقى داخل

السرايب والانفاق .. وبعدها سنواجه عرق التلك الشاهق البياض
يطل علينا بدؤابته الثلجية في ذلك السرداب الاخير ، ضاربا ببذوره
السخية والكثيفة في اعماق الصخور .. عند قلب الجبل تماما ..
وسيكون علينا أن ننكص على اعقابنا ونرحل كما فعل القدامى ، أو
نلقى حتفنا بطول الزمن ونحن نحبو في عمق الجبل بالفأس والازميل .

مال الحاج بهاء للمغامرة ، بينما تردد الخواجة انطون فترة
مضى خلالها يقلب الامر على مختلف الوجوه .. فأكد عليه نيكولا
متحمسا .. لابد من التفجير .. واحضر أوراقا مضى يخطط فيها
راسما للخواجة انطون مسار الجبل ودهاليزه مبينا مجرى الحامة
خلال تلك المسارب والدهاليز .. مؤكدا حاجتهم لوسيلة سريعة
تقتحم لهم تلك الصخور فاتحة فيها مسارب ودهاليز جديدة ..
ومضى فحسب له حساب البارود وفتايل الاشعال ، وتكاليف
التدريب .. وحين رآه مازال مسربلا بتردده طلب أن يصحبه داخل
المغارة ليريه ذؤابة الحامة المطلة من جدار السرداب الاخير .. فانتبه
الخواجة انطون ومال للاقتناع .. كان واضحا أنه مستعد لكل شيء
الا أن يفوض بجسده التحيل الانيق بين تلك الصخور .

وسافر الخواجة أنطون بك الى مصر .. وبجيبه قائمة جديدة
بما يحتاجه هذا التوسع الذي لم يكن متوقعا من آلات وأدوات
لشراؤها وشحنها من هناك .
وسافر الحاج بهاء الى ادفو ومعه قائمة بالتموين المطلوب للمنجم
كل أسبوع .

بينما دخل الشيخ على الصحراء ، ليجمع عددا آخر من شباب
العبادة للعمل في الدرهيبي .
وكان الصيف قد بدأ يا نيكولا .. حينما جاءت ايليا الكبرى
مصطحبة معها ايليا الصغرى بحثا عنك .
كان متحميا أمام برميل الماء ، بينما ابشر يصب الماء بين يديه
ليزيل من وجهه وذراعيه تراب اليوم ، اذ عاد السائق بعربة الجيب
قادما من ادفو .. محملا بتموين الاسبوع كله . فاقترب من نيكولا
وقدم له قائمة التموين ، وقدم له برقية ارسلها الخواجة انطون على
عنوان الحاج بهاء يخبره بأن زوجته وابنته في القاهرة ، وأن حضوره
للقائمه ضرورى ، فليس ممكنا ارسالهما الى الصحراء .

ولم يكن ممكنا أن يرحل نيكولا فى الليل ، فـدس البرقية فى جيبه وخلا لنفسه فى الباحة بعد أن وزع التـموين والماء .. ومضى يـرـقـب أوانى الطـعام التى نصبها العمال على نيران الصخور فى جوانب الباحة .. مستغرقا فى ذلك الشعور المفاجئ الذى دهمه واستولى عليه .. ولقد فكر أن ايليا الكبرى تسعى خلفه بالحاح نابع من عنادها الموروث وشخصيتها الامتلاكية .. فما نيكولا سوى الجانب الاجتماعى المتم لمشروعاتها الناجحة .. وهكذا سافر فى الفجر بالسيارة الجيب الى ادفو .. ومن ادفو اخذ القطار الى القاهرة .. وفى القاهرة ما كاد يرى امرأته الصديقتين .. زوجته وابنته .. حتى ذابت هواجسه فى دوامة من المشاعر الزوجية والابوية المرهفة .. كانت ايليا الكبرى قد جاءت مسلحة بكل فتنتها العارمة التى اعتادت أن تدير بها رؤوس الرجال على شواطئ ايطاليا .. قبل أن يعرفها نيكولا ، وتزوجه .. وقد أعدت العدة لتقضى مع نيكولا فترة تعيد اليه صوابه .. وتذكره بما نسيه من مآثرها الزوجية .. أعدت العدة لتغويه .. وتعود به الى ايطاليا .. فحجزت فى افخر فنادق المدينة جناحا استقبلته فيه بحفاوة تليق بزواج غائب ، عائد الى زوجته المنتظرة والمشتاقة .. وقد امضيا معا أسبوعين عاشهما نيكولا ببساطة وصدق ، كرجل سعيد مستقر النفس يقوم بسياسة ممتعة فى عاصمه مصر مع زوجته وابنته .

ومن خلال العناق الحار ، والقبلات المـهموسـة والخافـطة طلب نيكولا من ايليا أن تبقى معه .. لتكون ملكة فى مدينته التى يعتزم انشاءها فى تلك الصحراء التى وهبها قلبه وجسده . وطلبت منه ايليا أن يعود معها ليكون ملكا على كل مشروعاتها الناجحة .

وأدرك انهما قطبا صراع لا يلتقيان ، ولم يكن الصراع لائقا بمشاعرهما التى يبذلها كل منهما للآخر بعد هذا الفراق الطويل . ولم تكن بعد قد استنفدت كل اسلحتها .. لقد خصصت لهذه الرحلة قنبرا كبيرا من مالها ، وكان فى تقديرها أن سعيها لن يخيب .. وأن هذه السنوات الماضية قد تكفى لتملأ الشعور المجوف داخل نيكولا ، الذى يدفعه للمهجرة .. فيهدأ ويعود . حدثها نيكولا عن احلامه العريضة فى الدرهيـب العظيم .. وعن

الصحراء والجمال والبدو والاشجار المزينة بقطع النقود القديمة ..
وعن الحفر والتفجير والسراديب العميقة التي تخرج الحامة التي تصنع
منها مساحيق النساء .. قال لها أنه يقوم بما يجب على الرجال أن
يقوموا به .. وانه ينوى أن ينشئ فى تلك الصحراء مدينة تليق
بملك حقيقى .

لكن أحلامه كانت مغايرة لأحلامها .. وهكذا اتفقا على أن يبقى
كل شئ مؤقتا كما هو سنة اخرى أو سنتين .. فربما يغير أحدهما
موقفه .

وكانت ايليا الصغرى قد تعلقت بأبيها نيكولا وأبدت رغبتها
فى البقاء معه .. وحين حاولت ايليا الكبرى أن تعترض . فوجىء
نيكولا بأن ايليا قد تكررت فعلا .

فلم يكن عناد الابنة بأقل صلابة ومقدرة .. من عناد امها .
وهكذا عادت ايليا الكبرى الى ايطاليا وحدها .
وعاد نيكولا مع ايليا الصغرى الى الدرهيبي .
حيث مدينته المتوقعة والمشتهاة .. والتي يجسدها له حلمه
لائقة بملك .



الفصل الثامن

ايلىا شهوة جامحة .. كما أن الجبل شهوة جامحة ، كما أن
تلك الصحراء من حوله بسكونها الصوفى ، شهوة كبرى أشد
جموحا .. فما الغريب فى أن تتكرر داخل جسده رجفة النشوة
التي تهز الروح وتسرقها لحظة انتقال سائل الحياة المخصب من جسد
الى جسد .

ما الغريب فى أن تتكرر داخل جسده تلك الرجفة حين يقف
فى قلب الدرهيىب العظيم .. فى السراىب الحارة والسراىب
الباردة .. يتحسس الجدران البكر مختبرا طراوتها .. محددًا
بالطباشير الابيض علامات نعماله ليثقبوها بآلاتهم .. ويحشرون فى
بكراتها أصابع متفجراتهم .
كأنه فعل جنسى من أفعال الاخصاب .

ألست مخصب الآن هذا الجبل فعلا يا نيكولا ؟
وما انزلاقك الدووب فى رحم هذا الجبل .. سوى سعى
لزرعه وايلاده ؟

لقد أولدتك ايليا الكبرى ، ايليا الصغرى بارادتها .. أما أنت فتولد الآن هذا الجبل بارادتك واختيارك .
وينتميه نيكولا ، بينما يغطيه تراب التفجيرات الداخلية التي تهتك بكاراة الصخور الى أن الدرهيـب قد أصبح بديلا لايليا .. زوجته .

لقد كان ماريو بديلا لايليا فى البدء وجاء ايسا فأصبح بديلا لماريو . ولايليا فى نفس الوقت .. وعاش نيكولا تلك السنوات فى الصحراء لم يرتجف جسده خلالها بشهوة الجنس .. ما أعقل أن يختار ابرهـبان فى جبال تلك الصحراء صوامع عبادتهم .. فلقد ساعده سكونها الصوفى المشحون بالتوتر الباعث للنشوة على التخفف التلقائى من أحمال الجسد الداخلية .. ولم يشعر أبدا بحاجته الى امرأة .. فقد كانت الطبيعة من حوله امرأة عظـمى احتوته واستأثرت بجموحه وحيويته .

حتى تلك المرة الوحيدة التى التحم فيها جسده الرجولى بجسد امرأة .. حتى تلك المرة كانت مسلوـبة منه .. حين جاءت اقبال هانم زوجه الباشا المصرى خليل تزور منجم الذهب فى السكـرى كعادتها ، وألحت ساعة خروج العمال من المغارة للغداء والراحة أن يهبط بها نيكولا داخل هذه المغارة لتتفرج .. فلم يدرك نيكولا وقتها أنها قد بدأت تنفض جسدها من ماريو .

حتى وهو يسبقها على سلالـم المغارة ويسـتدير رافعا قمع الكربون مضيئا لساقـيها مكان الهبوط مستوعبا بعينه الفضوليتين جسدها اللدن المعطاء كله .. لم يتذكر نيكولا أو يتداعى الى عقله صورة هذا الجسد ممددا عازيا على رمال مرسى علم الذهبية ، بينما ماريو يزينه بيديه الشهوانيتين ، بحبات البشـبش المتحركة . ذات القواقع اللؤلؤية .

بل أنه لم يشعر برجفه انـتـرقب الداخلية التى تصاحب الشهوة ، وذراعه تحت ذراعها يقودها فى تلك السرايب والممرات بينما انـظلام يحوطهما .

وحين احتوته اقبال هانم فى صدرها المتباهى وانحنى الى الخلف هابطة به على الصخور .. كان ذلك بالنسبة له بديهيا ومتوقعا .

لقد استجاب لها ، كأنما كان من واجبه أن يستجيب لها ..

ثم أصلح ملابسه ورفع مصباح الكربون فأضاء لها حتى أصلحت
ملابسها .. وتقدمها عائداً .

لقد القى هذا الحادث العابر بظله الجنسي على نفسيته اياما
ثلاثة وربما اربعة ، وبعدها عاد الى طبيعته الجديدة المكتسبة من
المكان .. ونسى كل شيء عن هذه المسألة .. فلم يشعر برجفة
الشهوة بعدها حتى فقد ايسا .

وفى تلك الليلة الاولى التى واجه فيها الدهيب مطاطىء الرأس
كانما قد انكسر بداخله شيء .. كانت وليمة الشعابين حول الفوهة
التي احتوت ايسا ورفاقه ، هى الصورة الوحيدة التى تملأ رأسه
حين أغلق عليه باب خيمته .. وكان ايسا يشاركه فراشه الصغير
الضيق طول الوقت قبل أن يغلق عينيه .. يتصوره رافعا سيفه
وهو راكع على اعتاب مغارة جده القديم الصخرة ويتصوره مارقا
كالسهم على بعيره بين الجبال مبشرا تعساءها بالرحمة وفقراءها
بالعدل .. صاحبها بحماسة المثالي فى الوديان .. ويتصوره مشيرا
للمنجوم يعلمه مواعيد طلوعها واختفائها .. ويتصوره مشمرا عن
ساقيه المعروقتين الغامقتى السمرة ، ماشيا على الاخشاب المشتعلة
بقدميه الخافيتين جيئة وزهابا ثلاث مرات .. مادا هاتين القدمين فى
وجوه الجميع كأنه يشهدهم على براءته .

وحين أغلق عينيه ودخل فى النوم اختفى ايسا وظهرت ايليا
الكبرى زوجته .. ظهرت عارية كما اعتادت أن تظهر فى لياليهما
القديمة بجوار فراشه الجانبي بمخزن الادوات فى مطعم والدها
الساحلي .. وادخلت تحت غطاءه الحشن فى تلك الخيمة كل مفاتيحها
القديمة التى خبرها وعرفها .. ولم يشبع منها تلك الليلة ولم تشبع
منه .. حتى صعد الفجر من الوديان الخلفية وزحف بضوئه على
صخور الدهيب ودخل خيمته ، فاستيقظ مترعا بالنشوة ليجد
ايليا قد اختفت ايضا .

وعاد اليه وعيه بأن ايسا قد مات فعلا .
فى ذلك الوقت شعر نيكولا بحاجته الى ايليا .
وجد نفسه وحيدا ، ووجد نفسه مطالبا بأن يكون قويا على
مستوى تلك الوحدة .. وأمكنه أن يتغلب على ذلك الضعف الذى
يجره لمسارب الشهوة .. وحشد طاقته كلها لينسج حلمه بأن ينشئ
فى هذا الجبل مدينة عامرة بالخصوصية والحركة .

حتى جاءت ايليا .
هل كان ممكنا ان تكتفى بالحلم يا نيكولا والى جوارك ايليا
بمفاتها الأخاذة التى كانت تدير بها أعناق الرجال ورؤوسهم فى
شواطئ ايطاليا ؟

هل كان ممكنا لجسدك الذى اختبر هنا الظمأ كله أن يمتنع عن
الارتواء من تلك الينابيع التى فجرتها ايليا ؟
هل كان ممكنا لكل هذه الأثرغائب الملتهبة التى استيقظت فى
دمائك يا نيكولا ان تهدأ وتهجع ، بعد رحيل ايليا ؟

فما الغريب اذن فى أن تتكرر داخل جسدك رجفة النشوة
التى تهز الروح وتسرقها كأنما سائل الحياة المخصب ينتقل من
جسد الى جسد بينما انت تنزلق قائدا لعمالك فى قنوات الدرهيـب
باحثا عن كنوزه الخفية ؟

لقد كان طبيعيا أن يصبح الدرهيـب بديلا لايليا . . وأن يصبح
اقتحامك لدخيلته على هذا المستوى الشهوانى . . كانه امرأة ترغب
فى الاتحاد بها لامتلاكها .

وما هذه الصخور العاتية التى تواجهك بين الحين والحين كأنها
تتحداك وتطالبك بمغالبتها والتغلب عليها . . غير ذلك أنفـور والصد
الطبيعيين فى المرأة ، متممين لفتنتها وغوايتها .

كان الشتاء قد بدأ يبذر بواده فى سماء الحريف ، فسعى
صاحب السعادة أنطون بك لدى بعض معارفه حتى التحقت ايليا
الصغرى بالمدرسة الإيطالية بالقاهرة . . فى القسم الداخلى . . وفى
اجازات نهاية الاسبوع كانت تذهب الى بيت الخواجه أنطون فى
جاردن سيتى محملة بكتبها وملابسها . . فتلقى بما تحمله هنا
وهناك كأن البيت بيتها .

حورية لم تبلغ عامها العاشر بعد ، فى بيت محروم من
الحوريات . . فقد كانت السيدة زوجة أنطون بك مصابة بمرض
أقعدها عن الحمل والانجاب . . بل انه فى سنواتها الاخيرة تلك قد
أقعدها عن السير فى جنبات بيتها .

وكان فى البيت عدد لا بأس به من الخدم جاءت بهم تلك الاسرة
المسيحية من ريف مصر حيث توجد اطيانها وممتلكاتها . . فكرس
هؤلاء الخدم انفسهم لهذه الحورية الصغيرة المتوحدة . . التى كان

يبدو أن سيدهم أنطون بك المحروم من الحريات سعيد بوجودها .
كان قد تخطى الخامسة والأربعين من عمره دون ولد .
وما كان قادرا على الخروج عن تقاليد العرف والعادة والمعتقدات
السالفة لينفذ حياته الجدياء الحانية . فكرس نفسه للعمل .
واغرقها في معمل مصنعه لادوات التجميل بين التراكيب الكيماوية
المعقدة . حتى استطاع في معرض صناعى عام أن يفوز بالجائزة
عن عطر استخلصه .

وبطريقة جانبية تبدأ من حفلات الطبقة الراقية وتندرج بين
محافل الجمعيات الخيرية وحفلاتها الصاخبة للتبرع والاحسان استطاع
الخواجة أنطون أن يصل الى قصر الملك . وأن يحصل على الباكوية
بالطريقة التى كانت متبعة فى ذلك الزمن . شهادة مذهبة مزينة
بالتاج الذهبى علقها فى برواز خضير مذهب فى حائط الصالون
الامامى لتواجه بتألقها كل من يدخل بيته للعمل أو للضيافة . لم
تكلفه سوى هدايا لم تزد قيمتها عن ثمن فدانين أو ثلاثة .

وهاهو نيكولا الغريب الذى لا وطن له يفتح أمامه أبواب
التوسع . ويحطم حواجز خوفه الغريزى وتردده فيزرع له جزءا
من ثروته فى جبل بالصحراء ، ويعفيه من الجهد والمشقة والفكر ،
ويقف هناك بين الصخور بديلا عنه وعن شريكه الآخر الحاج بهاء .
يهز لهما الجبل لتتساقط عليهم ثماره فى أدفو والقاهرة .

فما الذى يمنعه أن يكون سعيدا بايلى الصغرى ضيفة فى
بيته . وحين يجيء الصيف ، تأخذ أجازتها من المدرسة فتذهب
الى والدها فى الجبل محملة بمرحها الطفولى النزق ، فلا يستغرب
فى الصحراء وجودها . كأنها زهرة برية متفردة من تلك الزهور
النادرة التى تنبت دون قاعدة بين حنايا صخور الجبال ، فتهدد
بجمالها وحشيه الجبل . وتضفى عليه من جمالها وحنائها .

وفى الفجر تهبط وردية الصباح داخل المغارة لتواصل ثقب
الصخور فى مكان العلامات الطباشيرية التى خطتها نيكولا ، وتحشوها
بالمفجرات . وقبل الظهر بقليل يبدأ التفجير . يجمع العمال
أدواتهم من السرايب وينسحبون متراجعين خارج المنجم . يحصيه
نيكولا واحدا وراء الآخر خلال انسحابهم حتى يتأكد انهم
جميعا قد غادروا المنجم . فيشعل فتيلة التفجير وينسحب ساعة

الخطر .. ويهتز الجبل هزة لا تكاد ترى ، ويسمع من الخارج صوت الانفجار المكتوم .. سلسلة من الانفجارات المكتومة يدرك نيكولا جيدا وهو يحصيها بأذنه المرهفة بينما يتناول غذاءه البسيط المكون من ثريد اللحم ، انها تفتح الطريق الى الطبقة الثالثة .. وسرايبيها .

وبعد ساعتين تكون سلسلة الانفجارات الداخلية المتتابعة قد توقفت تماما ، ويكون تراب الانهيارات الصخرية قد بدأ يسكن أيضا ويرتاح على أكوام الصخور التي فجرتها شحنات البارود من الجدران وأهالتها في قيعان السرايب والممرات .. فتبدأ الوردية انشائية في الهبوط الى المنجم لاجراج تلك الاكوام .

كالنمل يصعد الرجال ويهبطون من المغارة واليها ، حاملين على اكتافهم وظهورهم ماجادت به السرايب من صخور وأتربة بعد التفجير .. ثم ينحدرون بها في طابور متلاحق على حصى السطح المنحدر أسفل المغارة ، حتى يصلوا بها الى الساحة .. فيكومونها تلالا في الخلفية .. ليتلقاها رجال الوردية الاولى الذين يكونون قد انتهوا من الغداء والراحة .. فيتنالونها بانفحص والترتيب .. يستخلصون منها خامة تلك الشمعية التكوين الشاهقة البياض ، فيرتبونها في درجاتها المختلفة .. أكواما ممهدة لنقلها الى الميزان ساعة التحميل .

هاهو الجبل يعطيهم ثماره بجداره واستحقاق .. فيجلس نيكولا متوسطا الباحة .. مزهوا بادراكه الذي هداه الى أن يفتح في قلب الجبل طبقة ثالثة متتبعا عرق اتلك المثل عليهم بذوابته .. هاهي الطبقة الثالثة قد فتحت وتشعبت السرايب من باحتها المربعة ، وتعددت الممرات ، وأرتفعت من سقفيها بئر صاعدة لتسحب الهواء النقي من السماء الى قلب الجبل وشرايينه .

يجلس نيكولا مسترخيا يرقب طابور العمال المنحني انظهر تحت ثقل خامة التلك الشمعية مزهوا بنجاحه .. كم من الاطنان يا نيكولا حملها هؤلاء الرجال من داخل المغارة الى خلفية الباحة .. خلال هذه السنوات .. ليحملوا بها ظهور الجمال فتعبر بها الصحراء الى ميناء الدرهيب .

لقد أمكنك يا نيكولا أن تقيم على البحر ميناء ترسو به السفن

قادمة الى هذا الجبل الضائع فى متاهة الصحراء مغمور الاسم ..
وعائدة منه .

يجلس نيكولا فى الباحة مزهوا يدير عينيه فيرى الباحة قد
نسقت ورصفت ، واقامت على جوانبها ثلاثة بيوت خشبية ..
وعنبر للمخازن .. وللطعام ، ودورات خشبية للمياه ، وورشة
لاصلاح الآلات والادوات .. وأصبح لهم مولد للكهرباء ، وخزان كبير
لحفظ المياه .

هل كنت تعلم بأكثر من هذا يا نيكولا ؟

لقد جعلت من الدرهيب زوجتك وأولادك وبيتك .. واقمت
فيه حياة عائلية جديدة على المستوى الرجولى .. عائلة كبيرة كلها
من الرجال .. حياة جديدة خشنة جافة وقاسية لكنك تعودتها شهرا
بعد شهر ، حتى صارت حياتك التى كانت لك قبل ذلك نوعا من
الوهم الغامض والخيالات .

كانت ايليا الكبرى هى الشهوة .

وأصبح الدرهيب هو الشهوة .

شهوة مقلقة توقفك ساهرا أمام المائدة الهندسية فى خيمتك
على مصباح البترول ، تراجع ما تم حفره وترسم لما يجب أن يتم
حفره .. ثم تغفو قبل الفجر ساعتين وتهبط قبل العمال الى المغارة
تختبر الصخور .

وحدك كنت تدخل يا نيكولا .. تدق جدران السرايب بعصاك
الحديدية تختبر صلابتها ، وترحف بمقياسك المولبى على أبعادها
تسمع بالذبذبة تنفسها الداخلى وتنصت لضميرها ، لتتلافى أن
تفاجئك فى الصباح بانهييار غادر غير محسوب ، يختطف من
مجموعتك عاملا أو اثنين .

وحين تستدير عائدا مطمئنا تفاجأ بأنك لم تكن وحدك .

أنسييت أبشر ؟

ذلك الصبي الأبنوسى الجذاب العينين .. ولد ايسا .

جليسك وانيسك فى ساعات الاسترخاء واثراحة على حافة
الجبل الغربية تشرف على الشمس الهابطة بضوئها الدموى على
الوديان .. الاحمر المشوب بالصفرة الشاحبة فى تلك السماء
اللامتناهية ، تظلل جبلك كأن ليس فى اكون غيره !

وتابعك كظلك خلال العمل ليكون ذراعين صغيرتين وذكيتين ،
اضافيتين لك .

حامل صورتك وأوامرك فى الممرات المظلمة الى العمال ..
وطاهى طعامك .. ثم سائق سيارتك .

ينشئه من منامته الارضية وينهض جالسا يفرك عينيه بمخرد
ما تفتح عينيك .. ليقرب الى يديك كل ما يبعد عليك من أشياء .

فما الغريب أن تجده خلفك فى السرداب حين تعود مطمئنا بعد
اختبار الصخور ؟

ثم جاءت ايليا الصغرى فأصبحت ثالثكما .

الصيف بأكمله تقضيه ايليا الصغيرة معك قطعة منك ، مختلفة
تمام الاختلاف عنك .. تبهرك وتذهلك فتغيب فى تأملها ساعات
طويلة كأنك تحاول أن تتغلب على واحد من ألغاز الكون .

فى وجودها فكرت فى البيوت الحشبية وشرعت فى انشائها .

وهذا الحزان الكبير الممياه لتتمكن تلك البيوت الحشبية من
توصيل الماء لساكنها فى المواسير .. كعادة المياه فى المدينة ..
ألم يكن ذلك أيضا بسبب ايليا ؟ .. تلك الحورية النزقة لم تكن
تتورع حين يحى ميعاد حمامها أن تجرى الى براميل الماء عارية وتقفز
فيها .. أو تطلب من ابشر أن يصب الماء على جسدها الانشوى
الصغير النامى .

لقد جاءت ايليا الصغيرة واضفت على حياتك الحسنة من
جمالها وحنانها .. فأصبحت ربة بيتك .. وزهرة مدينتك الحشبية
الجديدة .. تشرف على الطعام وتنثر مرحها وبهجتها بالمكان على
الجميع .. وتبتكر الافكار فيسرع الجميع لتلبيةها .

وهكذا نسقت الباحة ورصفت .. وزرع جانب منها
بالشجيرات .

وكان العمل ينمو ، بينما المدينة الصغيرة على الجبل تنمو ..
وايليا الصغيرة تنمو .. وابشر ينمو .. وأنت أيضا تنمو يا نيكولا ..
يتصاعد الحام بوفرة الى ظهور العمال ، فتنقله الجمال عبر
الصحراء الى أدفو على النيل .. وتنقله مراكب النيل الى مصنع
الحواجه انطون فى القاهرة .. الذى كان أيضا ينمو ويتسع ..
وفكرت أن تختصر طريق النقل يا نيكولا .

كانت قد أصبحت للمدينة الحشبية على الجبل نظمها وتقاليدها
.. وامكنك أن تأخذ عائلتك الرجولية التى أصبحت تزينها ايليا
ابنتك كل صيف .. مرة فى الشهر .. تجوبون فيها الوديان
المجاورة للمدهيب لصيد الغزال ، أو ترحلون لزيارة الشاذل فى
ضريحه المتواضع فى عين عذاب ، على مشارف مكة يفصلهما البحر
الاحمر الكبير .. فتذبحون لفقرائه الذبائح وتتناولون طعامكم الجبلى
مع انصقور البنية الريش الصفراء المناقير .

أو تذهبون الى البحر على ساحل برانيس .. الى يمينكم على
مسيرة ساعة يبدأ خليج رأس بناس الشهير يبتسط ويتمدد ، ذهبي
الرمال ، مأوه شاهق الزرقة ، ليكشف عن جزر المرجان بأسمائها
المنوعة الملونة للعين المجردة .. ووراءكم تهجع أنقاض تلك المدينة
القديمة التى بناها القيصر بطليموس الزمار لابنته الاميرة برانيس
ذات الاصل الأنزجى .. وأمامكم داخل البحر ، فى عمقه البعيد ..
تبدو ظلال جزيرة الزبرجد .

لقد استهواك هذا الساحل يانيكولا وأسر لبك .. فبينما انت
مستلق على الرمال الناعمة عاريا ، تأخذ حماما من اليود والشمس ،
وايليا تشق الماء الشاهق الزرقة داخل الشاطئ أمامك .. تلهو
جينة وذهابا كسمكة أو كحورية ، ولدت فى رأسك فكرة اختصار
طريق النقل .

لماذا لا تجيء الجمال بخام التلك من الدهيب الى هنا ..
وتجىء السفن البخارية بديلة عن سفن الشراع ، عبر البحر الاحمر ،

لتنقله من هنا الى السويس . . فتختصر نصف الوقت وتضاعف كمية
الحام المنقول .

وفكرت في تجهيز الساحل ليكون ميناء . . وسرعان ما امتدت
من الرمال داخل الماء سقالة عريضة وطيدة لرسو السفن ، واقامت
على الشاطئ ، كبائن خشبية للراحة وللاقامة . . وبدأ الضيوف
يحيئون لمشاهدتك وأنت تنشئ على ذلك أنشطاتي القديم المغمور
ميناء شبه متحضر ، ليكون ملحقا لمدينتك الخشبية ؟

لقد فتحت في الصحراء منجما كان مهملا ومهجورا . . وأقمت
حول المنجم مدينة سكنية من الخشب مجهزة بنظام يكفل انتظام
العمل ونموه . . وأقمت للمدينة ميناء على البحر يرفع عنها سحابة
العزلة وفكرتها . . ويربطها بالمدينة الكبرى .

وأصبح ما أقمته في الصحراء يا نيكولا مثالا أخذ يطمح اليه
أصحاب المناجم الاخرى . . وتناقل الرواة اخباره فرغب في زيارته
ذوات العاصمة ، وسراتها ، فبدأ الضيوف يحيئون .

فهل كنت ترى أو حتى تكاد تشعر ، أنك تبذر بذور المأساة
التي سيحصد الجميع ثمارها حين يجيء الضيوف ؟



الفصل التاسع

يجيء العجوز الطيب العم أوشيك الى الكابينة التى يرتاح فيها نيكولا بالميناء .. ويدخل مترددا تسبقه لحيته الرقطاء وشاربه الكثيف غير المنتظم وعمامته البيضاء المدلاة .. ويغمغم أمام نيكولا فى صوته الخفيض : أبشر يا ولدى الخير جه .. !

عادته ، أن يقبع صامتا على رمال الساحل دوبا صبوراً ، يرقب الافق حتى يلمح على البعد تلك البقعة البيضاء الصغيرة الطافية فوق التماع الماء البعيد ، والتي غائبا ما تكون واحدة من « السكاين » تلك المراكب الكبيرة نوعا التى تدور بالموتور .. تجيء فى موعدها متجهة اليهم تحمل التموين والماء .. فما يكاد يراها حتى يهرول بقدميه العجوزتين الهزيلتين الى كابينة نيكولا ليبشره .

- الخير فيه ان شاء الله يا ولدى .. السكونر وصل .
- وين دى يا أوشيك ؟
- فيشير أوشيك باصبعه الى البحر البعيد قائلا :
- تراها يا ولدى .. جريبة !

ويحقد نيكولا ليرى أن كانت البقعة البيضاء هي سفينتهم
فعلا ، أم واحدة من مراكب الصيد المسماة بالقطاير ، خدعت أوشيك .
فيتأكد من صواب العجوز ، فيداعبه :
- لكن دى قطيرة يا أوشيك ..
فيرد أوشيك واقفا ينوى الانسحاب :
- الله يعلم يا ولدى .. لكن دى ما قطيرة .

حين اتسع العمل فى المنجم واقيمت المدينة الخشبية على
الدرهيب لم يعد أوشيك لائقا بأن يكون خفيها وحارس بوابتها ،
فنقله نيكولا الى الميناء ليرعى الكبائن فى غيابهم بالمنجم ، ويشرف على
العمال الذين يشنونون الخام فى الباحة الى جوار السقالة ، تمهيدا
لنقله الى السكونر حين تجيء .

وقبل أن تجيء السكونر يجيء نيكولا ليكون فى انتظارها
فيمتهل وجه أوشيك المجهد ويبتهج ويهمل مرحبا به : شوب ..
شوب .. شوب .
عادتهم فى التحية .. يظل الواحد منهم وحيدا .. جالسا أو
ماشيا وراء الماء والاخبار اياما طويلة ، حتى يلقي رفيقا يستقى منه
أخبار المطر أو أخبار الرفاق ، فيهل كل منهما فى وجه الآخر :
شوب ، شوب ، شوب .

ثم يقعيان على الأرض متواجهين :

- كيف الحال ؟
- رايجين ..
- لعل ما فى عوجه ؟
- ما فى عوجه .. وأنتو ؟
- رايجين ..
- ما فى عوجه .. ؟
- ما فى عوجه .

يبتهج العجوز أوشيك ويسعد ، حين يكلمه نيكولا بلفته .
- السكناپ شنو ؟
- فيشكو أوشيك فراغ الثموين .
- أنا تموينى .. كو .

فيبتسم نيكولا ويخبره بأنه سيوزع التموين فور وصول
السكونر .

فيفرك العجوز كفيه الذابلتين ، ويبدأ فى اعداد القهوة على
طريقة الجينة ، ثم يقدمها لنيكولا فنجالا بعد فنجال . فلا يمكنه أن
يرفضها قبل الفنجال الرابع .

ويسأله أوشيك :

- كيف الجينة هسا ؟

- مغشوشة يا أوشيك . !

- كيف مغشوشة يا أخى . .

ويتصنع العجوز الغضب :

- ها وصلت السكونر يا أوشيك ؟

- الله فراج يا أخى .

وينصرف لرقبها عند الافق .

تلك المرة كان نيكولا يعلم أن السكونر قادمة وعليها متاع
الضيوف .

ها أنت ذا يانيكولا قد حملت العالم الخارجى على أن يجىء اليك
فى تلك البقعة النائية . . يكونون جالسين حول الويسكى فى كلوب
محمد على ، أو نادى السيارات ، ونادى الصيد . . مجموعة تضم
وزيراً سابقاً . . باشا أو اثنين . . وثلاثاً أو أربعاً من حسان تلك
الطبقة العالية المحلاة باللؤلؤ المضمخة بالعطور الاجنبية . . وبعض
البكوات . . !

وتجىء سيرة الصحراء فينبى صاحب السعادة الحواجة أنطون
بك للحديث عن منحه فى الدرهيى ، وشاطئه الساحر فى برانيس ،
فيتحمسون للرؤية ، ويتحمس الحواجة أنطون فيوجه الدعوة ، ويبدأ
فى عمل الترتيب .

يوأتم بين موعدهم وموعد السكونر التى تروح وتجىء بالطعام
والحام بين برانيس والسويس ، فيحملها بمعدات الرحلة وطعام
الضيوف الخاص ومشروباتهم ، ثم يركب الجميع سياراتهم الى
الغردقة ، ومن الغردقة يركبون لنشآت البحر الى برانيس . .
فيهبطون فى ذلك الشاطئ الساحر المنعزل ، فيمزقون ستائر
عزلته . . ويملاؤن الكبائن الحشنة فى الميناء بملابسهم الثمينة

وأدواتهم الناعمة وعطورهم .. وينتشرون على الرمال حول المرساة ،
حفاة نصف عراة ، تاركين أنفسهم للطبيعة البكر حولهم .
كم من الوجوه رأيتها يا نيكولا على حقيقتها الفعلية خلال
تلك الرحلات ؟

كأنهم يسقطون أقنعتهم المستخدمة هناك في مكانهم على قمة
المجتمع المصرى وفوق سطحه .. بمجرد أن تلامس أقدامهم رمال
شاطئك .. ويضعون مهابتهم وعظمتهم المشكوك فيها جانبا ،
ويصبحون أطفالا على ذك الشاطئ البكر .. يلهون فى الماء بنزق
يشبه البراة .. يسبحون ويلعبون الورق ويقبلون بعضهم البعض
ويتضاجعون . ثم يتكدسون فى قطيرة يقودها عبد ربه كريشباب
داخل البحر ، ليصيدوا الاسماك .

عبد ربه كريشباب الذى يهيم الآن بين جبال الصحراء فاقد
عقله ، بسبب واحدة من نزواتهم !
نقد جاء فى خطاب أنطون أن الضيوف هذه المرة اكثر أهمية
وأن شخصية كبرى ستلحق بهم على يختها الخاص .
شخصية كبرى يانيكولا .

هل كان فى مصر شخصية كبرى .. غير الملك ؟
وجأت ايليا على عربة الجيب من المنجم يقودها ابشر الصغير
لنفسهم فى تزيين المكان وترتيبه .. فأمرت الرجال بحمل الرمل
يفرشونه حول الكبائن يغطون به بقع الزيت ، وأخذت تطمئن على
تموين الخزانات بالماء .. فهاهى السكونر تلوح فى افق برانيس
تحمل متاع الضيوف الذين يتناولون الآن غداءهم المبكر فى الغردقة .
ما أسعدتها ايليا الحبيبة بمجئ الضيوف لتزهو بجمالها البرى
الذى انضجته شمس الصحراء وهواؤها على حسان الطبقة الراقية
الذين يجيئون من سطح المجتمع المصرى هناك ، فرصتها لتكون محط
انظار رجال مختلفين يملكون الجاه والسلطان ، ومحل مجاملتهم
واستحسانهم .

هاهى امرأة تكاد تكون كاملة ، لم تصل بعد الى السادسة عشرة
يتأملها نيكولا مزهوا ، لكنه يشعر بزهوة مشوبا بالالم .
ثم ينادى عبد ربه كريشباب ويأمره أن يأخذ معه فى القطيرة
رجلين ، ويذهبان فى البحر لاحضار كمية مضاعفة من الاستاكوزا .
لتكون جاهزة فى انتظار الضيوف !

كان عبد ربه متوسط الطول ممتلئ العظام ، ساذج المكر وقد ولد في بطن من بطون انكريشاب الذين نسلوا من عبادة الصحراء . وانحدروا الى الحواف الساحلية لهذا البحر العجيب الاحمر ، الذي بهرهم بغرائب مخلوقاته . . . فعاشوا على حافته الممتدة على رمال مصر والسودان . . . يصيدون الاسماك بالحرايب الطويلة ويجمعون الماء القليل العذوبة عند مصبات الوديان على البحر ، ينشلونه ويحفظونه للشرب والطعام .

وحين بلغ العاشرة خرج الى البحر مع الرجال ، على قواربهم المجوفة المصنوعة من نخيل الدوم . وبينما يكتمل نموه ليصير شابا ، ثم يصير رجلا ، تتكرر في عائلته تلك الفاجعة المعتادة بين الكريشاب . . . أن يخرج الرجل مع الرجال الى البحر ، فيعود الرجال ولا يعود . . . أو يعود ولا يعود الرجال . . . تأخذهم عروس البحر ، نصفها امرأة ونصفها سمكة . . . تلك الجنية المسحورة التي لا تشبع أبدا . . . تغويهم أو تختطفهم ، وتأخذهم الى عالمها العجيب تحت الماء حيث لم يستطيع قط انسان أن يدخله ويعود .

يحكى الناجون الحكاية فكان عبد ربه يرهف اذنيه للراوى ويعلق بصره بلسانه وشفتيه . ! يكون البحر منبسطا كمرآة صماء شديدة السكون في هذا المحيط الشامل من الصمت المضاء بالنجوم . ويكون الرجال واقفين على قاربهم المنزلق على الماء الساكن يحفظون توازنه بأقدامهم الصلبة . . . وفي ايديهم حرايبهم . . . وعيونهم الجريئة الحادة مسددة الى الصفحة الساكنة لتلتقط أقل حركة غير معتادة تعكر صفو الماء . . . وبمثل البرق تندفع احدى الحرايب فى مكان الحركة . . . ثم يجذب الرجل حربته من حبلها ، فتعود من الماء بصيدها الحى الذى يقاوم للافلات بينما يواصل القارب انزلاقه على الماء . . . وهكذا تستغرق الرجال لذة الصيد . . . وفجأة تبهر عيونهم على صفحة الماء اضاءات قوية مفاجئة . . . واذا بشعر عروس البحر طافيا يلتمع ، يتموج فى انسكون كنغمة فطرية رائعة ! لا يحدث ذلك دائما . . . لكنه يحدث بين الحين والحين ، حينما يسكب القمر فضته الذائبة على ظلمة المياه فيضيئها . تحت هذه الاشعة المنسكبة تستطيع تلك الجنية المسحورة أن تلعب لعبتها ، وحيثما يروغ الرجال بقاربهم يجدونها امامهم . .

يعرفون مطلبها فترتجف دخيلة كل منهم لما يعرفه ، ويحرق في بقعة الضوء المتموجة على الماء لا مهرب منها ، تجذبه اليها من عينيه ، فيقاوم .. ويستجمع صلابته .. وتتشبث قدماء المفلطحان بسطح قاربه .. لكن ذلك لا يجديه نفعا ، فحيثما تظهر العروس ، لابد أن تأخذ طلبتها .

لعل هذا الشعور اليقيني الناتج من التجربة هو الهى يسوق واحدا من الرجال الى التخاذل ، فيلقى بنفسه في بقعة انضواء الغاوية .. فيلتف حول جسده البشرى شعر العروس المصنوع من أسلاك الذهب ، ويحتويه ، ويتنفض الماء انتفاضة قوية ويمور بينما تستدير العروس لتغوص به الى عالمها .. ويعود الرجال ولا يعود هو أبدا .

وحيثما تتكافأ صلابة الجميع ، فلا يتخاذل منهم أحد ويلقى بنفسه الى أحضان العروس راغبا .. فحركة واحدة من ذيلها أقوى كافية لتجعل أعلى قاربهم اسفله .. فيسقط الرجال جميعا ، فى أحضانها الشرهه . !

لقد فقد عبد ربه بهذه الطريقة ثلاثة من عائلته .. ولد عمه وولد خاله وأخاه .. وسمع فى مجالس النساء وهو طفل ، ومجالس الرجال وهو صبي ، حكاياتهم .. فادرك ان له عند العروس ثارا .. وفى المرة الأخيرة حينما فقد شقيقه .. أقسم بين الرجال أن يأخذ بثأره وتوعد تلك الجنية المسحوارة بأن يغويها ويسحبها الى عالمه الارضى .. !

لكن الجنية لم تظهر لعبد ربه أبدا ..

لقد كبر ونما وأصبح بين الرجال رجلا .. وصعد فى البحر شرقا وغربا بقاربه وحده ، أو بين الرجال بقاربهم .. دون أن تظهر له العروس .. يقولون انها تحب فى الرجال وسامتهم ، ولقد كان كل من ولد عمه وولد خاله وأخيه وسيما .. أما عبد ربه فملاحه مفلطحة نوعا .. بعيدة عن القبح ، كما انها أيضا بعيدة عن الوسامة .. فما الذى يغريها تلك العروس لتظهر له ؟

لكن عبد ربه كريشاب لم يفقد الامل فى أن يلقاها يوما وهو ينزلق بقاربه على الفضة الدائبة فوق الماء .. وساعتها سيبدل جهدا جنونيا ليغويها بملاحه المعلقة بين الجمال والقبح ، ويجذبها من

شعرها الذهبي الذى تجذب به الرجال .. ويأخذها سبية فى عالمه .
لقد صار قسم عبد ربه وتوعده ، فكاهة للكريشاب ومثار
تندرهم .. فحينما يخرج الى البحر ، تتوه عيناه كأنهما مكرستان
للبحث عن شعر العروس .. فتغيب عنهما بقية الاسماك .. ويعود
من الصيد خائبا ، أو على شفا الحية .

حتى مد الشيخ على يده اليه فى ذلك الخور النائي وانتشله
وضعه فى الدرهب ليصيد السمك للعاملين نصف الوقت ، ويتعلم
صناعة جديدة فى نصفه الباقي .. فتغيرت حياته .
شرب الماء العذب .. وعاشر أقواما مختلفين ، ودخل بطنه
طعام ما كان يسمع به قط ، وجرت النقود فى يده فتزوج ، وجاء
بزوجته فأقام لها خصا على الساحل على مبعدة من الميناء ، وأصبح
قسمه وتوعده مثار تندر وفكاهة فى الدرهب أيضا .. لكنه كان قد
نسى القسم .. وكان حزنه وغضبه على ولد العم وولد الحال
والشقيق ، قد هدد أواره ، واستكن فى قاع النفس للنسيان أيضا
.. ولم تعد عيناه مكرستين للبحث عن شعر الجنية المسحورة على
صفحة الماء .. وانهك عبد ربه فى تغذية المنجم بالاسماك .. وتعلم
فى وقته الباقي فرز خامه التلك وتصنيفها .. وأصبحت هوايته حين
يجيء الضيوف أن يأخذ قطيرة الميناء ويدخل بها البحر فتختصر له
الطريق الى جزيرة الزبرجد فيصلها فى ساعتين ، يصيد الاستاكوزا
من كهوف النباتات على حواف الجزيرة . بعد أن ينسحب المد ، ويعود
بها طعاما مميزا على مائدتهم الصحراوية ، ثم يصحبهم فى الامسيات
داخل البحر ، يعلمهم صيد البياض والكوش والبراكودا وأسماك
المرجان المتوحشة ، ويرجع بهم الى الميناء تفيض السعادة من جوانبهم
.. وتفيض نقودهم من جيبه .. بل انه لم يعد يجد حرجا حين
يسألونه متندين ومتفكهين ، عن عروس البحر التى تواعد أن يجيء
بها لعالمه الارضى .

خبزت له زوجته على الرمال رغيغين لعشائه ، حملهما مع أدواته
الى الميناء ، ومضى يجهز قاربه .. ثم طلب من أبشر أن يصطحبه .
وقبل العصر بقليل كان عبد ربه يرفع جبال المرساة .. وأدار
أبشر الموتور ، وتحرك القارب مبتعدا عن الشاطئ ساحبا خلفه
دوامة مثلثة الاستطالة من الزبد الابيض ، جاعلا من جزيرة الزبرجد
وجهته .

وجهن عبد ربه سنارته الكبيرة وحشاها بسمكة متوسطة ،
ثم دلاها خلف القارب المندفع على مبعدة ٠٠ فأخذت السمكة الكبيرة
نوعا المعلقة بالسنارة من طرفها ، تتقاذف نصف غاطسة في الماء تابعة
القارب وكأنها تسابقه وتوشك أن تلحق به ٠٠ تخدع الاسماك
الضخمة وتغريها فتتبع تلك الفريسة المعلقة ثم تنقض عليها من
الخلف فتحتويها في فمها الكبير الواسع ، فتمسك بها السنارة
المختفيه من داخل حلقومها .

وقبل أن يصلا بقاربهما الى حواف جزيرة الزبرجد ، كان
عبد ربه قد صاد قطعتين كبيرتين من سمك التونة بهذه الطريقة ،
تزن الواحدة خمسين رطلا ٠٠ قدر في نفسه أن نيكولا سيكون مزهوا
حين يشكهما في سيخ النار ويشويهما للضيوف على طريقة الحملان .
وأخذت جزيرة الزبرجد تدنو من القارب المندفع اليها بينما
تحولت صفحة الماء الى اللون الدموي خلال الغروب ، ولاحت لهما
الهضبة الجيرية المغطاة باتقواقع وطفح البحر ، بينما كان جبل
الزبرجد مشربا من وسط الجزيرة تلمع صخوره الغامقة الزرقاء مشعة
بلونها البنفسجي المشرب بدماء الشمس فبدأ ابشر يهدئ من سرعة
القارب حتى زحفت مقدمته على الحافة الرملية فأوقفه ٠٠ وقفز عبدره
وبيده حبال المرساة فغرسها في الرمال ٠٠ وانحنى ابشر فأشعل
مصباح القارب وعلقه ليكون دليلهما مهما ابتعدا عن الشاطئ وراء
حيات الاستاكوزا ٠٠ ومد عبد ربه ذراعه القوى الى القارب فحمل
الزكائب ومصاييح الكربون ومضى يتفقد المكان حوله حتى قفز ابشر
من القارب الى جواره .

كان المد المائي قد بدأ في الانسحاب عن ساحل الجزيرة كعادته
تلك الساعة بعد الغروب ، فأصبح عمقه اقل من ركبة رجل ٠٠ في
مثل هذا العمق تبدأ الشعب المرجانية المتطرفة في الظهور . حيث
تجىء الاستاكوزا لتعلق غذاءها من تلك الشعب .

تشبه الجنبرى لكنها متوحشة الحجم ، كبيرة الرأس لكن لحمها
المكون من تلك النباتات الفسفورية التي تلتقها موجود في ذيلها ٠٠
وفى هذا الذيل أيضا تكمن قوتها وأسلحة دفاعها ، حيوان له شهرة
يعرفها عبد ربه جيدا ٠٠ وشهرته تكمن في هذا الذيل المكون من
خلاصة فسفورية تضاعف القدرة على الشهوة ، لطالما سمع عبد ربه

الضيوف يتندرون بما تفعله الاستاكوزا فى أجسادهم الرجولية .
فيزداد حماسه لصيدها وارضائهم .

سار فى الحافة المائية يتبعه أبشر ، وقد صوب كل منهم مصباحه الكربونى لىضى له الماء أمامه ، فيتبين الشعب وما تحتوية . . انضوء هو أداة الصيد . . فالاستاكوزا سريعة وقوية ، لكن الضوء يربكها ويشل حركتها فما يكاد يسقط على جبهدها الفسفورى حتى يفعل الاشعاع فعله فترتبك خلاياها ، وتتشبث فى القاع الرملى باطرافها المتعددة المحيطة بذيلها . . وتنصب أشواكها كحرا ب تحمى جسدها العاجز من الحيوانات الأخرى الملتهمه . . تكون فى تلك الحالة عمياء غشى انضوء منافذ ابصارها . . فينقض عليها عبد ربه بيده الحشنة من أعلى ، ويتخلل اطرافها بأصابعه ، ثم يجذبها من الماء محاذرا ذيلها القوى الذى يضرب الهواء فى محاولة الخلاص . . ولا تهدأ الاستاكوزا حتى يلتقى بها عبدربه فى ظلام الزكية المحمولة على ظهره ، ثم يسدد مصباحه ويتابع سيره فى الماء وراء واحدة غيرها .

وقد اكتمل القمر فى سماء البحر . . وكسا جزيرة الزبرجد الصخور الخالية بضوئه الموشى بالبلاطين ، وبدأت الصخور الشامخة فى الظلال كآلهة قديمة منسية فى تلك الجزيرة الغنية بالكثور . . وكان ابشر قد خاض بحذاء البحر ممتدا فى الخلجان الصغيرة وراء حبيبات الاستاكوزا ، وسرقه الوقت وهو يملأ زكيبته بالحيوان الفسفورى ، حتى لم يعد بالزكية مكان . . فاستدار وأدار شعلة الكربون فيما حوله فلم ير لعبد ربه كريشباب أثرا . . كما لم ير لضوء قاربهم اثرا . . فعدل من حملة على ظهره وقفل عائدا وأخذ يفكر وهو يخوض فى الماء ، فى هذا العالم العجيب الواسع الممتد ، كأنما لا نهاية له حيث تقيم أعداد لا حصر لها من المخلوقات لم يتعرف عليها بعد . . ففى دخيلته كان فخورا بصيده من حبات الاستاكوزا ، كما كان فخورا بقدرته على تعلم ادارة وابور انقارب وقيادته . . كعادته فى الزهو والفخر ، كلما أثار فضوله شىء جديد فى ذلك العالم فيتعلمه . . لقد كان يخرج فى الامسيات التى يهجم فيها الجميع بمعسكر اندرهيب وينامون فيجلس أمام السيارة الجيب كانه عاشق يملأ قلبه من محاسن محبوبته وملاحمها وكثيرا ما تسلسل اليها خلسة ، يتأمل تفاصيلها ويتكشفها متتبعا ذلك الشريط المسجل

فى ذاكرته من الصور المختلصة للاسطى على وهو يدبر بيده الساحرة هذه التفاصيل ويحركها فتدب الحياة فى السيارة ٠٠ وخلال نومه القلق والمتقطع كان يحلم لاصابعه بتلك القدرة التى يملكها الاسطى على فى أصابعه ، ولم يكتف بالتأمل والحلم ، فبدأ يلاحق الاسطى على ويتابعه ، حتى علمه .

هو يعرف جيدا أن تلك الطاقة الشرهة للمعرفة فى داخله هى مصدر زهوه وفخره ٠٠ وكان يؤكد له جدارته بها ، لما كان يسمعه من نيكولا عن والده ايسا ٠٠ فما أحق ايسا بولد يكون مختلفا عن الجميع .

وبدأت برودة الماء المشوبة بدفء مختزن حول قدميه وساقيه تنعشه وتبعث فى جسده تدفقا نشطا رغم اجهاده وقد نما اسمه الى اذنيه مطوفا فى الفضاء عبر السكون البحرى حول الجزيرة مصطدما بالصخور الناتئة ، فانتبه الى أن عبد ربه يناديه .

كان كل منهما قد اعطى ظهره للآخر وسار خلف الاستاكوزا فى اتجاه تاركين القارب بينهما ٠٠ متفقين على أن ينادى زميله من يعود أولا الى القارب ٠٠ ٠٠ فلا بد أن عبد ربه قد عاد الآن .

رفع ابشر شعلة الكربون محاولا أن يضىء أمامه على مبعدة ٠٠ فلم ير أنرا لعبد ربه أو ضوء القارب ٠٠ فعرف أنه كان قد أوغل فى البعد عنهما ٠٠ فأخذ يغذ السير داخل الماء وهو يصيح مرددا اسم عبد ربه فى الفضاء .

كان عبد ربه كريشاب قد ملأ زكيبته بحبات الاستاكوزا واستدار عائدا يخوض فى الماء متجها الى القارب ، حتى وصله ، فألقى فى قاعه بزكيبته ٠٠ ومضى يرتب الصيد فى القاع المزدحم مفسحا مكانا لما سيحضره أبشر معه ، ثم جلس على مقدمة القارب متوقعا على ركبتيه منتظرا عودته واخرج من عب جلبابه علبة الدخان ومضى ييرم لنفسه سيجارة ٠٠ وبينما هو يحرق فى الماء الملتمع داخل البحر بمواجهته توقفت أنظاره فجأة على بقعة متألقة ، فرجف قلبه ٠٠ كان شعر العروس الذهبى يتألق تحت الضوء متموجا ٠٠ يظهر ويختفى ٠٠ فانتصب واقفا على سطح القارب وقد امتلأ كيانه بالخوف ٠٠ كل الحكايات القديمة التى تروى غزوات الجنية الساحرة قفزت الى رأسه فلم يهدأ روعه حتى أدرك أنه على القارب وأن انقارب مربوط فى الشاطئ ٠٠ وانه بمنجاة من العروس وكيدها ٠٠ فأخذ

يحملق في البقعة الملتمة ويتأملها في ظلال هذا الامان .. ولدهشته
وجدها تتجه ناحيته .

أخذ عقله الفطرى يعمل بسرعة غير معتادة .. وتذكر بخوف
قسمه القديم ووعيده .. وتساءل فى لحظة ان كان قد حدث
ما انتظره طويلا .. واستطاعت ملامحه المعلقة بين الجمال والقبح أن
تغوى تلك الجنية وتخرجها له .

كانت البقعة الملتمة تدنو منحرفة من داخل البحر ناحيته ،
وأمكنه أن يرى جلدها البنى خلال اقترابها فوجد نفسه يرتعد ،
وانحنى فقبض حربته بتردد من القارب وسدها تجاه البقعة المضئة
المتحركة ووقف ساكنا واجف القلب مثبتا قدميه المفلطحين على
سطح القارب الخشبي ، وكان المد المائى قد بدأ يفيض فيغمر ما كشفه
الجزر خلال الغروب ، واختفت شعب المرجان حول
القارب ، بل ان القارب نفسه ، الذى كان مغموسا فى رمال اشاطئ
قد أخذ يعلو ويعوم .. وكلما زاد المد زاد حجم ما يظهر من جلد
العروس البنى ، يتقدم تجاه الشط تسبقه بقعة الشعر الذهبية
الملتمة ، فيزداد خوف عبد ربه ويرجف قلبه ، ويصيح صارخا
مناديا أبشر .

هل جاء دورك يا عبد ربه ليلتف حوتك ذلك الشعر الذهبى
يسحبك الى زفاف هذه العروس النهمة فتنضم الى ولد عمك وولد
خالك وشقيقك .. وتذهب الى تلك الاعماق البحرية فلا تعود ؟

هل جاءت ساعتك يا عبد ربه وحانت .. أم تصمد وتكون رجلا
فتحقق ما وعدت وتوعدت وانت الآن خارج الماء فى أمان نوعا من
سحر تلك الجنية وغوايتها ؟

ودفع المد جسم الجنية دفعة زائدة فطمرت ، ولاح لعبد ربه
استدارة جسدها البنى الضخم وطراوته .. ولم يعد يفصلها عنه
غير أمتار عشرة أو تزيد قليلا .. ورايه انها ساكنة الجسد رغم انها
تواصل التقدم تجاهه .. فرفع ذراعه بحربته ثم تردد لحظة .. لعله
خشى أن يكون سهلا عليها أن تجذبه من حبل حربته وهو فى موقفه
فوق القارب ، فقفز من القارب الى الرمال وتوقف محتميا بجوار
صخرة وبدأ يسدد حربته من جديد .. لكن العروس بدت طافية
وكأنها قد تركت جسدها للمد المائى يقوده دون مقاومة ، فيدفع بها

نحو الشاطئء دفعا حيثما حتى قطعت المسافة الفاصلة بينها وبين القارب واصطدمت به ، حتى اجتازته .. ثم انقلبت بدفعة من المد فأصبح نصفها على الشاطئء .

تراجع عبد ربه مرتجفا من حجمها الهائل ، وصوب حربته ولم يجرؤ أن يقذف بها ، وبعد حين مدها ومس العروس مسافقا حذرا في رقبته .. فلم تتحرك ولم تختلج .
فأدرك عبد ربه كريشاب أن بغيته قد جاءت الى قدميه زاحفة وميتة .

كان طوال النهار الماضي يستمع الى فرقة المتفجرات تدوى في عمق البحر فترتفع مكانها نافورة ضخمة من الماء ما تلبث أن تنهال الى البحر من جديد ، فيسوده السكون حتى يدوى انفجار جديد .. تلك المفجرات يلقي بها داخل البحر هؤلاء الذين يبحثون عن البترول في قاعه العجيب .. قد أصابت تلك العروس فاختنقت وطففت ، وجاءته زاحفة ؟

جرب عبد ربه أن يحرك الوحش الجاثم على الرمال مرة واثنتين ، فلم يجد به للحياة أثرا فاقترب وأخذ يتأملها دون خوف .
كان شعرها الذهبي قصيرا خشنا ، ولا بد أن الماء هو الذي يطيله ويموجه ، والضوء يعطيه التماعته .. وذراعاها قصيرتين جدا ، وصدرها ضامرا لكن حلمتيه بارزتان .. وبطنها اللحمية مستديرة وناصعة .. وكان وجهها منكفئا على الرمال ، وبدا له عند نهايتها السفلى ذيلها السمكى مغمورا بالماء .

قال لنفسه : ما بالها قبيحة تلك العروس في هزيمتها على الرمل . أتراها تكتسب قوتها وسحرها من الماء والقمر ؟
وحمد حظه انها لم تظهر له وهي حية ، ثم خطر له خاطر شيطاني اندفع الى تنفيذه فأخرج الحبال من القارب ومضى يربط العروس من رقبته وكتفها ووسطها .. وبينما هو يفعل ، أخذ يصيح مناديا أبشر .. فكلما سمع أبشر النداء يغد السير داخل الماء متجها الى القارب حتى وصله .. فراعته الجسد الضخم ممددا على الرمال بجوار القارب بينما عبد ربه يحكم وثاقها بحباله .

وأبهجه أن يوفى عبد ربه دينه للناس ويأخذ بثأر ولد خاله

وولد عمه وأخيه ، ويرفع عن حياته تندر الناس وفكاهاتهم ٠٠ قال
عبد ربه انه رآها على حافة المد بينما كان يتتبع الاستاكوزا فألقى
عليها بحباله ثم ضربها خلف أذنها بكعب حربته فافقدها الوعي ،
وبدأ يجذبها الى الشاطئ ٠٠ لكن أبشر قد استتراب في أن تكون
الضربة من القوة أكثر مما قدر عبد ربه ، وتكون قد قتلتها ، فأكد
عبد ربه اغماءها ، قال له جرب أن تدفعها الآن الى الماء ٠٠ استراها
تفوق وتمور كبركان حي ثم تغوص ضاربة تلك الصخور بذيلها
الخفيف وليس علينا غير أن نبعداها عن الماء فلنصعد بها الى ذيل
القارب ونحكم وثاقها به .

وهكذا تعاونا على جذب مؤخرة القارب وأمالتها الى الخلف بعد
أن حفر أبشر أسفلها حفرة متوسطة ٠٠ وأخذا يدفعان بالعروس حتى
رفعها على المؤخرة ، ومضيا يحكما وثاقها الى القارب من أعلى ومن
أسفل ، ومن الامام والخلف ٠٠ حتى استقرت ممددة بجسدها الضخم
الطويل عليه ٠٠ ثم مضيا يدفعان بالقارب الى الماء لكن مؤخرته ظلت
غاطسة تحت ثقل العروس الوحشي ، وأبدى أبشر تخوفه من تلك
المؤخرة الغاطسة وحمل سمكتي التونة ٠٠ وزكيتي الاستاكوزا ،
وأحكم وثاقهما على مقدمة القارب ، فارتفع الجزء الغاطس عن الماء بقدر
مطمئن ، وأكد عبد ربه أن اقارب في سرعته المندفعة داخل البحر ،
سيساعد تلك الحافة الغاطسة على تجنب الماء ٠٠ فبدأ أبشر يدير
الموتور .

ولم يلبث القارب أن أندفع داخل البحر ، مخلقا جزيرة الزبرجد
وراءه وقد قبع عبد ربه في المؤخرة بجوار سببته ، ممسكا حربته
مشددا قبضته عليها ٠٠ مترقبا اسماك القرش المتوحشة ، التي لا يد
سوف تجذبها رائحة العروس ٠٠ فتتبع القارب متحينه الفرصة ،
لتهبش ذيلها الضخم الذي ينغمس في البحر ، كلما مال القارب بين
الحين والحين خلال اندفاعه .

حتى لاح لهما شاطئ برانيس على البعد ، ولدهشتهما كان
الشاطئ يلتمع بالنور . نور كثير غير معتاد لم يره عبد ربه في الميناء
من قبل .



الفصل العاشر

ما بالك تغرق نفسك يا نيكولا فى تلك التفصيلات الهزيلة
التي لا جدوى منها ، بينما أنت تحوم بذاكرتك حول بذرة العلقم
التي ألقيت بأهمال فى رمال مدينتك فأثمرت شجرة ضخمة
مستفحلة ، أظلت تلك المدينة بالحراب والحزن ؟
لم لا تخوض مباشرة فى اللحم المبلور لبداية المأساة وقد مضت
على ذلك الان سنوات كثيرة تتزايد يوما بعد يوم ولا تنقص ٠٠ وقد
أصبحت الان بمنجاة من فظاعة التوقع ، وفضاعة الوقوع ، بعد أن
وقعت المفاجعة فعلا وكان ما كان ؟

ألم يخامرك الشعور بالخطر فى لحظة بينما يسطع فجأة على
ساحة الميناء ذلك الضوء الباهر المنبعث من كشافات عربات الجيب
الست المحيطة بسيارة صاحب الجلالة ٠٠ فيكشف الضوء عن ضيوفك
عراة أو أشباه عراة ، رجالهم ونسأؤهم داخل ماء البحر الدافئ على
حافة مينائك الذى لم يخلص بعد من حرارة أشمس الغاربة ٠٠
ويكشف أيضا عن ذلك السماط البدوى الممدود بطول الباحة أمام

الكبائن ، حافلا بالطعام الذى صنعه طهارة الضيوف القادمون معهم من مصر بينما تلتهم الحراف على النار يديرها أبناء الشيخ على ليدفئوها حتى ينتهى الضيوف من حمامهم المسائي الغريب هذا .
ثم تزايد هذا الشعور بالخطر ومضى يدق داخلك بالحاح وانت ترى اشباح الحرس الملكى بشاراتهم النحاسية واسلحتهم الممتعة تحت ضوء الكشافات ، وهم يطأون بأحذيتهم الثقيلة رمال الباحة ، ويصطفون فى مجرى الكشافات التى بقيت مضادة صانعين بأسلحتهم قوسا ليعبر صاحب الجلالة فى ظله وحمايته .

ثم ضاع منك الانتباه لذلك الشعور الداخلى بالخطر وانت تنهض مبهورا بالجلال والعظمة التى صنعها الجند والاضواء فى المكان فجأة ، حول هبوط ذلك الرجل المسمى المنصب ملكا ، من سيارته ، ليزور مدينتك . . وقد وقف تحت قوس السلاح الابيض تحجبه ظلال الجند عن ضوء الكشافات ، يرقب ذلك القطيع الصغير من رعاياه يخرجون من البحر والماء يتساقط من أجسامهم اللامعة ، يظلمون أعينهم بأيديهم فى مواجهة ذلك الضوء المسدد مباشرة تجاههم ، تتقدمهم أقبال هانم دون أن تبذل جهدا لترى ، بل ركزت جهودها فى شد قامتها وأبرز صدرها ، واثقة ان صاحب الجلالة فى بؤرة هذا الضوء سيراهما هى . . فعليها ان تحسن تقديم نفسها . .

ولكم أسعدها أنها تكاد تكون عارية . . بينما كان صاحب الجلالة يضغط بكفه السمينة على أصابعها التى مدتها مسلمة .
واستأذنت للسيدات فى بضع دقائق للزينة بينما اخذ الخواجه أنطون بك يتقافز فى الضوء أمام الركب معبرا عن سعادته بهذا الشرف الذى تفضل جلالتة وغمره به . .

كانوا يتوقعون جلالتة فى الغد ، حين يتحرك ميكرا من معسكره الذى نصبه الحرس على حافة رأس بناس الرملية ، ليوصل رحلته لصيد الغزال فى وديان جبل علبة . .

فى تلك اللحظات المزدهمة بالمفاجآت والبهجة والخرج . . وكل مخلوق فى تلك المجموعة مشغول بالتنقيب داخل نفسه عن شئ يقدمه لصاحب الجلالة ويستميل به انتباهه ، وصل عبد ربه كرشاب بقاربته الى الشط ووقف مبهورا فى دائرة الضوء يتطلع الى أبشر وأبشر يتطلع اليه . . فى وجهيهما البدوى سذاجة طاهرة لا حدود

لها ٠٠ وفي خلفيتهم القارب مغموسا فى الشاطئ الرملى ، تتأرجح على مؤخرته مع المد ، تلك الجنية المسحورة على صفة الاسماك ٠٠ كأنهم بكتلتهم هذه التى برزت على الشاطئ فجأة وأحتلت اهتمام الضوء ٠٠ بذرة الفجيرة الاولى تولد فى بطن المكان ٠

وجاء الخبر الى السماط بأن عبد ربه كريشاب قد وصل لثأره وأغوى عروس البحر فأخرجها وجاء بها الى البر ٠٠ فوجدها أحدهم فرصة لتسليية صاحب الجلالة ، فأنطلق يحكى عن عبد ربه كريشاب وثأره ٠٠ وقسمه ووعيده ٠٠ وحين لاحظ احدهم ان الحكاية تستهوى الملك تساءل بمكر ان كان مايزال كريشاب جادا فى قسمه ، فلسوف يسعدهم ان يحضروا زفافه لعروس البحر اليلية ٠٠ فأنفجرت الفكرة على السماط البدوى أمام صاحب الجلالة براقة حافلة بالتشويق والغرابة ٠٠ ان يضاجع الرجل سمكة ، حدث لم يشهده جلالته من

قبل ، فتحمس الجميع ونهضوا مشحونين بالمرح الوحشى وتدافعوا تجاه الشاطئ مهللين كأنما يستقبلون بطلا ٠٠ بينما عيونهم الملتمة بشهوة الفضول مسددة الى عبد ربه تكاد تنقب هلاهيله وجسده وتنفذ منه الى البحر العريض وراءه ٠٠ والى الوحش ٠٠ والى المشهد الخرافى للزفاف المنتظر ٠٠ حتى ملأوا المكان حول القارب يتأملون العروس المسحورة ويطنبون فى محاسنها ويشدون على يد عبد ربه كريشاب وعلى كتفيه ويبالغون فى أطناط بطولته كأنهم يقبضونه عليها ٠

لقد وقف عبد ربه كريشاب بينهم مذهولا فى البدء كأنه أرنب جبلى وقع فى شباك مربكة ، ثم بدأت نفسه الفطرية تتلقى التهينة بزهو وتسعد بها ، وأنطلق على سجيته يحكى كيف رأى العروس وتفاذى غوايتها وأغواها حتى اقتربت من البر فضربها وأفقدوها وعيها ، ثم تعاون مع أبشر على أحضارها ٠٠

وجاء ذكر القسم القديم والوعيد خلال الحديث ، فلم ينتبه عبد ربه الى الفخ الذى يستدرجونه اليه ٠٠ بفطرته البريئة استجاب لحماسهم ، وقد ظنها فرصة للتحرر من هذا القسم القديم الذى عفا عليه الزمن ، وأنشغل فى دخيلته بمعالجة ضميره من تلك الكذبة الصغيرة التى كذبها ٠٠ ان العروس حية وهى ميتة ٠٠ ولا احساسه بالذنب بدأت الشهامة تغلب عليه ويخجله احتفاؤهم الذى يوشك أن

يشعره بأنه لا يستحقه وحينما أدرك أنهم يمهدون للزفاف ويعدون له أسقط في يده .. ولم يعد بإمكانه التراجع أو المقاومة ! .

كانت المقاعد قد صفت وتصدر صاحب الجلالة الدائرة ، وسلطت أضواء سيارة على الرمال حيث كان الرجال يمهدون المكان للعروس القادمة التي يشترك عمال الميناء في جرها .. وحينما توسدت البؤرة تحت الضوء كان جسدها الاحمر قد غطى بالرمل فحمل الرجال دلاء الماء من البحر وأخذوا يصبونها فوقها فأنزاح الرمل تحت دفعات الماء وظهر صدرها الضامر وبطنها العريض اللحمي المشقوق من أسفله ، فتعالت صيحات الاستحسان والتشجيع ، ووجد عبد ربه كريشاب نفسه أسير الضوء الكاشف أمام ملك وحاشيته يحيطونه بحماسهم كأنه بطلهم ، لا يبدو عليهم أن الشك يداخلهم لحظة في أنه سيخذلهم وأنه لن يكون رجلهم .. فكيف يخذلهم .. وكيف لا يكون رجلهم ؟ .

ومضى ينقل بصره المتردد .. والمرتجف بين السمكة الممددة بظهرها على الرمل .. وبين البشر المحيطين بها .. وبدأت له المسألة قدرا لا مفر منه فهي لحظة يجتازها رجلا ، ويمضي بعدها بين الرجال متوجا بالصدق والشهامة وبقية المناقب الاخرى ، أو يسقط في برائتها ويعجز ، فلانقوم له بعد ذلك بينهم قائمة ولا يقدم له أحدهم قدحا في مجلسه .

وأحرجه السكون والصمت حين سادا في محيط الدائرة كأنهم يعلنون فراغ صبرهم ، وألتقطت عيناه نظرة ملكية من عيني صاحب الجلالة اللتين ظل طوال الوقت يتجنبهما أجلا وخشية ، فزاد حرجه وبدأ العرق الغزير ينبثق من جسده المرتجف داخل هلاهيله ، فتقدم منه صاحب السعادة الحواجه أنطون بك حاملا كأسا ممثلا بالويسكي ، وطلب منه أن يجرعه فجرع من الكأس جرعتين ألهتبه بعدهما احشاؤه ، وصعد الدم الى رأسه وأصاب عقله بصمم وقتي ، فمد يده الى تكة سرواله وجذبها وأخذ يخلص منه ساقيه العضليتين ، فأتاح للجميع فرصة قصيرة لاستباحة مراكز رجولته ، ومضى منكس الوجه فأنحني وألقى بنفسه دفعة واحدة منبطحا فوق الجرم اللحمي للعروس الراقدة .

شعر بقشعريرة حينما التحم جسده العاري بلحمها الخشن

المبلل .. فدفن وجهه فى صدرها الضامر وأخذ يبكى .. دون أن يسمعه أحد .

وجلس نيكولا صامتا على الطرف المقابل للسيدة أقبال هانم من السماط الممدود .. وعلى مرمى حجر منهما كان ضوء السيارة المسدد يكشف الدائرة البشرية التى تضم ملكا وباشا وثلاثة بكوات مشكوك فى أصلهم وخواجه أكيد ، ومجموعة لا بأس بها من رجال الارض والمال يملكون تقريبا ربع الاقتصاد المصرى .. يزدردون لعابهم مع أكواب الويسكى التى يحملونها طول الوقت بينما يحملون بشبق وحشى فى الجسد الاسود العارى لذلك البدوى المغمر الذى أوقعه المكان فى فخاخ مرحهم المستهين ، وقبل بخلق فطرى أن يلتحم جسده البشرى هذا الانتحام الحميم بذلك الجرم المؤنث المخيف الحجم ، لمخلوق من عالم آخر .. رخو ولزج ومثير للنفور والاشمئزاز .

وقد أخرجت أقبال هانم نظارتها المقربة والمكبرة التى لا تفارق حقيبتها كتحفة فنية أنيقة ودقيقة ، وسددتها الى بؤرة المشهد ، ومضت تضبط عدساتها حتى أمكنها أن ترى العرق الغزير يتدفق من مسام الجسد الاسود لذلك البدوى العارى .. وان ترى نبض قلبه البدوى يدفع صدره ويملاً عضلاته النافرة بالدماء ، حتى كادت تسمع على هذا البعد لهاث أنفاسه .. وحركت نظارتها الى وجوه الرجال المحملقين بشغف ، وكانت للوهلة الاولى قد تقززت ، فعجبت كيف يثير شهيتهم هذا الانتحام الشاذ والمقزز .. ومضت تدقق النظر فى تلك الاعضاء الخاصة للمخلوقين الملتحمين فى بؤرة الضوء ، ولدهشتها وجدت أن ذلك قد بدأ يثيرها أيضا ..

ومن الشرفة المواجهة للسماط .. أطلت النساء بفضولهن النزق ، وسألت أحادهن أقبال هانم عما يحدث فضحكت السيدة أقبال وأجابتها بجملة فاحشة .. وبدأت تصف لهن ما يحدث بالفرنسية بطريقة ماجنة حافلة بالاثارة والتشويق .. وكأنها تذيع عليهن مباراة هامة ، بين فريقين فى الكرة .

ورأى نيكولا أيليا واقفة فى نافذة منفردة فلم يعرفها فى البدء وقد موجت شعرها الذهبى وأدارته حول رأسها وتركت خصلاته تغطي جانبها من وجهها فبدت أكبر من عمرها ، وكانت مستغرقة تتأمل السيدة أقبال هانم ، وتنصت بشغف لوصفها وترمى ببصرها

الى بؤرة الضوء ، حيث كان من الصعب عليها أن ترى بوضوح ما يحدث فيها . . لكن نيكولا يدرك جيدا أن كلمات أقبال هانم ستساعدنا على تصور وضايقه انها تترك نفسها لفضولها ، فنظر في ساعته وأدار ظهره للكبان ومضى مبتعدا تجاه دائرة الرجال المحيطة بعبد ربه كريشاب . . وبينما كان يقترب لمح على الساحل ذلك القارب الذى حمل العروس الوحشية من داخل الماء الى مينائهم يكاد نصفه الغموس فى الرمل يدخل فى دائرة الضوء الملقاة حول الحقل الوحشى الماجن ، بينما نصفه الآخر المورجج على الماء غارق فى الظلمة . . ورأى ابشر . . قابعا فى مؤخرة القارب محتضنا ركبتيه بذراعيه . . دافسا ذقنه بينهما . . بينما عيناه الواسعتان الشديدتا الحدة . . عينا ايسا . . مسددتان الى وسط الدائرة ، حيث يلهث عبد ربه كريشاب فوق بطن الوحش منتهيا من واجبه الشاذ . . فانقبض قلب نيكولا ومال مبتعدا وهو يلوك فى نفسه فى ذلك الشعور بالقلق الذى أخذ ينمو ويتزايد منذ توقعه للضيوف حتى مجيئهم .

كان ما يحدث فى مكانه الآن شيئا فوق التصور والعقل ، ورغم بهجته الداخلية بوجود صاحب تلك البلاد كلها فى زيارة تشرفه وتميزه . . الا أن ذلك لم يمنع الضيق أن يستولى على مشاعره لاستباحة هؤلاء الرجال مكانه الخاص بنزقهم .

وكان عبد ربه كريشاب يلهث مايزال عاجزا عن النهوض ، كأنما كان غائبا عن وعيه خلال فعلته وبعد أن انتهى عاد الوعى وأدرك كم هى مشينة ومخجلة . . فعجز عن رفع رأسه لمواجهة كل هؤلاء البشر المحيطين به ، وارتاح لثقل جسده الملقى بتراخ غير مسئول على جسد عروس البحر ، كأنما هذا الجسم الوحشى كان أرحم به من تلك العيون التى تحلق فيه وتلتهمه بفضولها وتطلعها !

كان فى البداية قد بكى ، وشد البكاء من أزره كأنما قد غسل له نفسيته من الذنب . . لكنه بعد أن انتهى احس بالفراغ والضياع وعجز عن اتخاذ الخطوة التالية . . أن ينهض ، فبقى فى مكانه عاريا على بطن السمكة العارية حتى استغرب صاحب الجلالة بقاءه فأوما مستفسرا ، فأشرع الحواجه انطون بك الى وسط الدائرة يستطلع الامر وانحنى على عبد ربه كريشاب ثم نهض مندهشا . . وأعلن أنه مستغرق فى النوم .

ونفض الملك فنهض الجميع ، وسرعان ما دار موتور السيارة التي كانت تسدد كشافها على بؤرة الحفل التي كان عبدربه وعروسته هما مركزها .

وبدأ ضوؤها ينسحب تاركا عبد ربه وسـمـمـكـته في الظلام وأخذ يزحف على الرمال مضيئا لصاحب الجلالة طريقه الى السماط . . . وقد أثار ماحدث شهية الجميع .

وجاءت النساء فاتخذ المكان طابعه المفتقد ، وأهـسـبـغ عليهن الرجال من الشراب والغزل ما يعوضهن عن غيابهن . . فأظهرن داريتهن الكاملة بتفاصيل الزفاف الشاذ كأنما هن بذلك يصدمن الرجال في غرورهم . . وشاعت بين المجموعة اذاعة اقبال هانم للتفاصيل خلال نظارتها المكبرة ، فابتسم لها الملك مشجعا وادانها منه . . فوصل الحفل الى حافة لم يعد ممكنا التراجع بعدها .

ولعل واحدا من قادة الحرس قد أصدر أوامره فاطفأت السيارات كشافاتها ، فساد المكان ظلام مفاجيء أتاح للرغبات الحبيسة داخل الملابس الفاخرة المحبوكـة أن تتحرر وتنطلق وأصبح مسموعا بوضوح في ذلك الظلام المضاء بالنجوم الشديدة البعد ، صوت السيدة اقبال هانم وهي تتأوه بين الحين والحين بينما تتأود متمنعة مستعذبة تحت تأثير ما يمكن تخيله من أفعال صاحب الجلالة والمهابة . وانفلتت في الظلام امرأة مارقة من السماط وهي تضحك بخلاعة ، فطاردها رجلها ، وانبثق صوتهما على البعد وهو يلحق بها ويسقطان معا على الرمال . . ثم اختلطت الاصوات وتلاحمت كأنما هي نغم متسق ذلك الذي كانت المجموعة تعزفه في ذلك الظلام الخلوى .

وقد شذ عن النغم صوت نيكولا ، فتصاعد في الظلام هامسا مناديا ايليا . . كان الموقف قد استغرقه لحظة فمضى يتسمع للاصوات في الظلمة ويسلي نفسه بالتعرف على أصحابها ، وفجأة تذكر ايليا . . فنادها بصوته المهموس أولا ليتبين مكانها في تلك المعمة ولما لم تأت اجابتها تصاعد صوته رويدا ، ثم نهض ملهوبا فجأة ومضى يتلمس طريقه بحذر بين الاجساد باحثا عنها . . تعثر في فخدين لزجين واصطدمت ذراعه بصدر عار . . ولعله لمس عضوا من أعضاء روجل . . وكان يلهج بالاعتذار فلا يعبأ به أحد .

وجرى الى الكبائن ملهوبا فلم يجدها في غرفتها . . فأخذ يقفز

بين أغرف باحثا عنها .. وهبط السلم يمنى النفس بأن تكون قد
نأت بنفسها عن كل هذا الشبق الجنوني .. فمضى الى الشاطئ وهو
يناديه .. وخلال اسراعه وهروله تعثر بشيء طرى فانقلب على
الرمال بجواره ، وحين رفع رأسه وجد نفسه ملقى بجوار عروس
البحر .. ومايزال عبد ربه جاثما بجسده العارى فوقها .
وكانت ايليا .. وأبشر .. جالسين على الرمل قبالة ،
ساكنين فى ذلك الظلام الساكن ، يحملقان فى صديقهما كريشاب
وعروسته .

كطفلين ملائكيين جالسين على الرمال المنداة ، وقد الصق كل
منهما كتفه بالآخر ، ومضى يحملق فى الجسدين المتناقضى الحجم
والنوع ، الساكنين امامهما على بعد خطوات ، سيكون الموت ..
وهمست ايليا فى اذن أبشر بتوجسها من أن تكون العروس قد
قضمت رقبة عبد ربه كريشاب ، وأماتته ؟ .

فهز أبشر رأسه الصغير الاسود ، وضيق عينيه الواسعتين
فى وجه ايليا الابيض ، وغمغم بأن السمكة ميتة .. ولا بد أن عبدربه
كريشاب كان يعرف ذلك ؟

دهشت ايليا ومضت تستفزع ماحدث باسئلة فضولية دفعت
بأبشر لان يحكى ماكنمه حتى عن عبد ربه كريشاب نفسه .. هو
قد لاحظ منذ البداية أن العروس ميتة وكنمها عن كريشاب حتى
ينصره أمام نفسه وأمام الآخرين .. وهاهو كريشاب الآن يدفع
ثمن كذبتة .

وسقط نيكولا أمامهما فانتبها ونهضا متلاصقين .. فأمرها
وهو ينفذ الرمال الرطبة عن بنطلونه أن تذهب لفراشها فمضت
تحميلق فيه كأنما تواصل اندهاشها مما حدث بأجمعه . هل يعرف
هو مثلما تعرف هى أن عبد ربه كريشاب قد زف نفسه الى سمكة
ميتة ؟ .

ولاحظ نيكولا جمودها فدنا منها مبتسما وربت على خدها
الرقيق ، وغمغم بانها ماتزال صغيرة بعد ، لترى كل ما حدث فأبعدت
ايليا خدها عن كف نيكولا الممتدة وشمخت بأنفها ، كعادة أمها ايليا
الكبرى حين كانت تحتفظ ببراءتها .. واستندارت مبتعدة دون أن
تنبس بحرف .. كعادة أمها ايليا الكبرى حين تضبط مخطئة ،
فتشمخ بانفها مبتعدة لتلقى بوزر الخطأ على نفسها من يضبطه .

فهز نيكولا رأسه معجبا ، وتابعها لحظة ببصره ثم جذب ابشر
من ذراعه وانحنى على عبد ربه ومضى يهزه من كتفيه ، ثم قلب وجهه
ومضى يصيح فى أذنيه •• دون أن يتحرك عبد ربه من غشيته •
كان يتنفس بهدوء كأنه غارق فى نوم طبيعى تملأه أحلام
بهيجة ، وعلى شفثيه كانت مرثسة ابتسامة زهو وبراءة فاستولى على
نيكولا قلق داخلي •• لعله قد أدرك أن اللعبة قد مست عقل الرجل
•• فأمر ابشر أن يملأ الدلو من البحر ويحضره •• ومضى يبذل
وجه عبد ربه ورأسه ورقبته ، ويدلك بالماء البارد صدغيه وجبهته •
بينما خلعت ايليا حذاءها ومشت متباطئة تشق الرمل بقدميها
الصغيرتين وقد نكست رأسها تتابع بعينيها حركة قدميها وتفكر فى
كلمات والدها •• أصغيرة هى حقا ، أم هو فى قرارته يفضل أن تظل
صغيرة ليستأثر بها ؟ !

ألم تتسرب الى اذنيها فى مدرسة الجالية بالقاهرة حكايات
زميلاتها الكبار عن ليلة انسبت والاحد فى قاعة الموسيقى بالمدرسة
وفى حدائق البيوت ؟ •• ألم تقرأ مع زميلاتها كتباً ويشاهدن صورا
ويتبادلن الفكاهات الخليعة والنكت ؟ فما الذى يظن بابا نيكولا
العبيط هذا أننى سأتعلمه من حفلته ؟
ليست خلاعة السيدة اقبال هانم وزميلاتها ، ولا غزال الرجال
ومجونهم هو الذى كان يستهويها •• ولا حتى التحامهم فى الظلام
وصراخهم الشبق ! •

انما كان يستهويها منذ البدء وجود الملك •
أن ترى عن قرب ملكا وتتأمله •• وهامى حتى امالها فى الملك
تخيب •• فلا فرق بينه وبين أى رجل من الحاشية ، سوى تلك الهالة
من التمجيل والتفضيل التى يتطوع الجميع بتقديمها له • لا تدرى لم
•• ربما خشية وخوفا من أن يأمر بقطع رءوسهم كما قرأت مرة فى
اسطورة ملك ! •

كانت مستغرقة فى خواطرها تستمتع فى دخيلتها برجفة
البرد اللذيذة تتسرب الى جسدها بينما قدمها تشقان الرمل
وتغوصان فيه حتى تصلا الى الدفء المستكن فى جوفه ثم تصعدان
الى السطح البارد وتشقانه من جديد •• حينما رآها ذلك الوصيف
الخاص للملك •

كان واقفا في الظلام يلمع منه سيجاره المعلق بالفلتر الطويل
الانيق ، يتطلع بزهو الى السمات الذي سادته الفوضى وانقلبت
مقاعد الجالسين عليها على الرمال حوله ، يصخبون ويلهثون ، ثم
يمد بصره ليصل الى البقعة التي يشع منها ضوء موله ٠٠ فيرى هذا
المولى مسترخيا بهيكلة المهيب على الرمل بينما قد تعلق اقبال هانم
بأطرافه كأنما قد سمرت به ٠٠ فلا يدهشه ما يحدث أو يؤثر شهيته ،
انما يدفعه لتقدير ما بقي من الوقت لينتهي مولاه مما يشغله الآن .
ليبدأ في الاعداد لما يشغله بعدها ٠٠ ففي الفجر ستتحرك القافلة
بصاحب الجلالة مخترة وديان الصحراء وجبالها الصخرية الوحشة
الى وديان عليّة الزهرة ، فيطارد جلالته غزالة أو غزالتين تعود بهما
القافلة مزهوة مظفرة ! .

ورأى ايليا قادمة من تجاه الشاطئ تضيء البقعة المظلمة حولها
بوجهها الابيض وشعرها الذهبي فانتبه ٠٠ تلك نبتة برية طالعة
عليه من ظلمة الشاطئ تفوح منها بوادر نضج شهى ، استجابت له
خبرته الدفينة واهتزت كما يهتز بالشهوة قلب رجل ٠٠ لكن قلبه
الخاص كان يهتز بالشهوة لرجل آخر ٠٠ كان لعابه الداخلى يسيل
على ضحيته بينما عقله يتصورها مبسوطة كقربان بين ذراعى مولاه
وولى نعمته ٠٠ كأنما هو يلتذ بلذته ؟ .

رآها مقبلة ٠٠ كشجرة شهوة فواحة لم تخرج بعد ثمارها
فجرى عقله المدرب المأجور مجراه المتوقع والمعتاد ٠٠ وتصورها وجبة
الحلوى على مائدة صاحب الجلالة ، فى خيمة الصيد بوادى عليه ،
الحافلة بأطباق لحم الغزال المنقوع فى النبيذ قبل أن يشوى . ذلك
الغزال الذى صاده ذلك المولى ، أو صاده له الصّحاب وأوهموه
بصيده ٠٠ ليعلقوا جلده على طرف المائدة الى جواره علامة ايثار
وتفاخر .

وبينما كان يجرى بعينه متفحصا ايليا المقبلة مفكرة مستغرقة
٠٠ أمكنه أن يرى بذكرته شارب صاحب الجلالة الانيق والمديب ،
تهتز ذؤابته وتتراقص حول ابتسامة الرضا والطمع ، التى سيغدق
منها جلالته على ايليا .

واقترب ملها مغمغا : ألسنت ايليا ؟ ٠٠ سمعتهم ينادونك
بذلك ٠٠ ها ٠٠ ابنة نيكولانت ؟ ٠٠ ما أجملك ٠٠ فلا أقدم

مشروباً يمنحني فرصة التطلع اليك .
وقادها من يدها التي تحمل حذاءها ، الى جانب السباط
مقتربا بها ، بمكر ناعم وليق ، من بقعة الالتحام المشير على الرمال ،
وهو يغمز بعينه متوددا فخفضت عينيه الى الرمال بخجل . . لكنها
لم تغلق اذنيها عن تلك الهمسات الصاخبة ، والصرخات الخافتة
المختلصة من الصمت بين المقاعد المقلوبة حولها .
وناولها كأساً من خمر مخففة . . وشربا في نخبها ، بينما
يستندرجها للحديث عن مدرستها في القاهرة ، وحياتها الصيفية في
الصحراء ، وطموحها ، وأحلامها . . وببراءة طفلية وصرخة تكاد
تكون مغرورة ومتكبرة انطلقت ايليا تحكى عن نفسها وعن الآخرين
بمرح . . فزاد اقتناعا بفراسته . . فتحت هذا القناع الباهر
للجمال الطفولي الطازج النضج ، الذي تظهر به تلك الايليا الصغيرة ،
توجد امرأة شديدة المراس لم تكتشف بعد . . فقرر أن يقودها من
غرورها .

لقد قدم لمولاه مئات العذارى من قبل كهدايا مفاجئة أو متوقعة
على شواطئ اخرى كثيرة في العلمين ورأس الحكمة والمنتره وغيرها . .
وفى الكباتن الصحراوية في حلوان والمقطم والاسماعيلية وتحت
سفح الهرم . . وكن جميعا اقرب للاستسلام من طول التوقع ، منهن
للمقاومة التي يأخذها مولاه مأخذ الفواتح لشهيته . . وقدر ان الامر
تلك المرة سيكون مختلفا مع ايليا هذه . . فبدأ يحدثها عن رحلة
الصيد التي سيقومون بها فجرا . . فقالت ايليا ، انها ذهبت مرة مع
والدها نيكولا والخواجة انطون بك في رحلة صيد بوديان عليه هذه
وصادوا غزالة صغيرة أطلقوا عليها اسمها . . وأهدباها لها . .
كانت ترتجف دائما وتبدو مذعورة فبنت لها قفصا كبيرا من الخشب
الرفيع بلون الرمال ، في جانب من الباحة في الدرهيب خلف الكباتن
. . لكنها ماتت . . فقال لها أن مولاه صاحب الجلالة سوف يهديها
غزالته التي سيصيدها لو ذهبت معه . . فلن يجسد مولاه في الركب
سواها يستحق غزالته . . ووعدا أن يعمل على اصطحابها في حاشية
الملك . . فلم تظهر اهتمامها . . ورجحت أن بابا نيكولا لن يوافق على
ذهابها . . فأكد لها أن بابا نيكولا اكثر ذكاء ولباقة من أن يعترض على
رغبة الملك .

واوما لها ناصحا بالذهاب للنوم فورا ، لتحفظ بنشاطها حتى
يوقظها عندما يتهيأ الركب لرحلة الفجر المبكرة .



الفصل الحادى عشر

فى الفجر دق الخواجة انطون بك ، باب الكابينة على نيكولا وأخبره أن صاحب الجلالة يطلب ايليا لترافقه فى رحلته ، فبهت نيكولا وشحب .. فأشار أنطون لما يعنيه مصاحبته لصاحب الجلالة من رعاية وشرف .

ولم يكن نيكولا قد نام اكثر من ساعة فوقف بالباب مؤرجحا بين النوم واليقظة ، يواجه هذا الموقف المفاجئ ، المزدحم بآلاف المحظورات .. وبالرغم من السمة الحضارية التى اتسمت بها الدعوة الموجهة لايلىا .. ورغم الزهو والحماس الذى جاء بهما الخواجة أنطون بك ، ليطلب ايليا ويتعجلها . ورغم البساطة والبراعة والتلقائية التى أطلت بها ايليا من مخدعها فى هذا الوقت الشديد التبكير ، لتلبية دعوة صاحب الجلالة .. الا أن شيئا فى داخل نيكولا أخذ يتقلص وينقبض ، ويتقلص وينقبض .. وتما لك متحاملا على ارادته ليواجه الموقف بما يليق برجل يتلقى شرفا من ملك .. شرفا لا يجرو أن يظنه مشوبا بالتوجس أو الريبة !

وكانت السيارات قد هيئت يتقدمها الحرس ، وركب صاحب
الجلالة مفسحا لايليا مكانا في سيارته فخرجت مزدهرة مشرقة طفلة
ما تزال .. لكنها طفلة ناضجة .. لبست رداءها الصحراوي المعتاد
وقفزت سلاالم الكايبنة الى الرمال بمرح ، ودلفت دون تردد أو وجل
في سيارة الملك .. ولوحت لبابا نيكولا بأصابعها النحيله الجذابة ،
ولم يكن في رأسها أى خاطر من تلك الحواطر التى تزاومت فى رؤوس
المحيطين بها .

وسار انطون بك مبتعدا عن نيكولا وهو يفرك كفيه ويقول
لنفسه : « أنت سعيد الحظ يا أنطون ، لقد ولدتك أمك سعيدا » !
لقد غمز له الوصيف بعينييه محييا وهو ينطلق بسيارته وراء
سيارة صاحب الجلالة التى تحمل ايليا .. آه .. ما أشهاك يا ايليا
.. ! واستطاع أن يقرأ فى تلك التحية المشوبة بالخلاعة اسمه مكتوبا
فى قائمة مقدمة للملك .. مسبقا بلقب باشا .. ألم يأخذ على عاتقه
اقتناع نيكولا ببراءة المسألة ليوافق على رحيلها ؟
ذلك هو العصفور الاول : انطون باشا .
وتصبح صاحب السعادة التى يستخدمها الناس مجاملة له ، من
حقه فعلا .

أما العصفور الثانى ، فكان ايليا نفسها .. !

هاهى ايليا الشهية ثمرة للقطف على شجرتك ، قال ذلك وهو
يجتاز البلوك الخشبي للمخازن والورش ، ويصعد فى الرمال وراءها
.. كان راغبا أن يخلو لنفسه فمضى يخوض العشب الشوكي
المتشابك فى تلك الهضبة المهجورة خلف الميناء حتى وصل الى الشاطئ
البكر .. وكان يقفز أحيانا بحيوية ومرح للتعبير عن سعادته ، وبعدها
يقعى على الرمال محتضنا صدره بركبتيه النحيلتين ليلتقط أنفاسه .
أنت سعيد الحظ يا أنطون يا ابن مليكه ، لقد ولدتك أمك
سعيدا ، فأعطاك الرب نيكولا ، وأعطاك نيكولا منجما وأعطاك ميناء ..
وجاءك بأيليا .. وهى ايليا تجيئك بالباشوية فى رحلة واحدة ..
رحلة واحدة فقط لن تتكرر فمولانا ملول وسريع السأم .. ! وبعدها
تعود ايليا خالصة لك .. آه .. ما أشهاك يا ايليا !

لقد مضت سنوات خمس وانطون يشتهى ايليا ، وينتظرها .
سنوات خمس ، منذ كانت ايليا جنية ساحرة لم تتخط العاشرة بعد ،

فى بيته العتيق بجاردن سيتى المحروم من الجنيات .. ورغم هذه السنوات الخمس فما يزال عبق جسمها الصغير الشهى يملأ حواسه ، منخرا من تلك الامسيات التى كانت تنحنى فيها عليه لتعطيه قبلتها البنوية قبل نومها ، تحت سمع وبصر زوجته ، التى لايمكنها أبدا ان تقرا خواطره وأفكاره .

أمسية بعد أمسية وسنة بعد سنة فى ليالى الشتاء والربيع المدرسية .. والخواجة أنطون يرى بجساره وجراة نمو تلك الابنة الضيفة ويرقب اكتمال جسدها طفرة بعد طفرة تحت غلالة نومها الملائكية !

خلال تلك الامسيات المختلصة من زوجته التى لايمكنها أن تمسك بخواطره وأفكاره ، اشتهى الخواجة أنطون ايليا الصغيرة ، ضيفته .. وابنة نيكولا ، ذراع .. وحلاله ما يختلصه من زوجته القعيدة العاجزة عن الحركة .. فركب جواد خياله فى تلك الامسيات وداعب جسد ايليا واخذ يكتشفه ومضى به جواد الخيال بعيدا فى كثير من الاحيان وغازلها .. لكن النهار كان يطلع على خيالاته دائما فاذا هى ايليا التى يعرفها .. طفلة نيكولا التى لايجروا أبدا على تلويث طهرها .

وكثيرا ما جفل به الخيال أكثر من مرة حينما حاول أن يقدم فى وضح النهار ، على اشتهاى ايليا .. خارج نطاق تلك القبله البنوية التى تعطيها له قبل نومها .. وعجز دائما عن اقتحام تلك الهوة المكونة من العمر والبراءة ، التى تفصل بينهما !

سنوات خمس وهو يحسب المسألة على هذا الشكل : حين تبلغ ايليا الخامسة عشرة تكون انت قد بلغت الخمسين يا أنطون .. فماذا يتبقى أمامك .. ؟ زوجتك القعيدة ستكون قد احتملتها عشرين سنة ، دون أن تنجب لك .. قد تموت قبل ان تبلغ ايليا الخامسة عشرة ، وقد تبقى فلا عليك .. لقد اخذت منك ما يكفى .. وما بقى فهو لك ، فلتتزوج ايليا .. نيكولا صديقك وشريكك وذراعك أيضا .. فلتتوسل اليه أن يزوجك ايليا حين تبلغ الخامسة عشرة .

خمس سنوات أخرى أو عشر يا أنطون تعيشها مع ايليا . وبعدها تبلغ انت الستين وتبلغ هى الخامسة والعشرين .. وتبدأ هى من حيث تنتهى انت ، لايمهم ، الا تكفيك السنوات العشر !

ومضى يرقص طربا على الرمال المبللة ، فانزلقت قدمه وخاضت
فى مياه الشاطئ ٠٠ ودهمت موجة خنون ساقه المكسوة بحذائه
وينطولونه وجواربه ، فزاده ذلك طربا على طرب ٠٠ انت سعيد الحظ
يا أنطون ، لقد ولدتك امك سعيدا فأعطاك الرب نيكولا ، وأعطاك
نيكولا ايليا ٠

وها انت يا أنطون السعيد تضرب عصفورين بحجر واحد
فتشتريك فى تدبير ذهاب ايليا مع صاحب الجلالة ، فتحصل بذلك على
لقب باشا ٠٠ وفى نفس الوقت يتفضل صاحب الجلالة ويكسر ذلك
الحاجز المكون من العمر والبراءة الذى يفصلك عنها ؟
ولن تكون بحاجة لان تتوسل الى نيكولا ذراعك وصديقك فلربما
ساعتئذ يتوسل هو اليك ٠

وجرى صاحب السعادة ، على الرمال عائدا وهو يجمع فى
طريقه حبات الشمس الملتمة المبللة ، تسكن حركتها كلما دب
بجوارها ، وتعود للحركة كلما سكن ٠٠ كان يقفز بنحوه الملحوظ
قفزات غير مدربة ٠٠ فيهتز كأنما ينفض وقاره وناقته عنه ٠٠ ثم يعود
لنفسه لاهثا ، ليعاود الكرة من جديد ٠٠ وحينما لاحظ خروج العمال
من بلوكات الورش ، يقودهم الرئيس حفاوى لشحن ما بقى من خامه
التلك على الشاطئ للم نفسه نهائيا ٠٠ والتحف بتحفظه الرتيب
البارد ٠ وحياتهم مشجعا وهو يدلف الى سلم الكابينة متجها لغرفته ٠

ونام أنطون بك حتى الظهيرة ، حين أيقظه الدق ٠٠ فنهض
متحاملا ليجد الرئيس حفاوى يطلبه على عجل ٠٠ وقاده حفاوى الى
غرفة نيكولا ودفع الباب فرأى رأس نيكولا مدلاة من حافة سريره ٠٠
تسيل على رقبتة خيوط دافقة من العرق وتنحدر على ذقنه وأذنيه !

كان الخواجة أنطون قد غادره ، فبقى وحيدا على سلم الكابينة
وقد صعدت معدته الى حلقومه ، وركبتيه ترتجفان ٠٠ يجذبه للانهيـار
شيء فى داخله ، على عتبة هذا الفجر الدامى المعلق فى الأفق فوق
سطح البحر مباشرة ٠ فوق هذه الرمال المنداة ، التى ما تزال تحمل
آثار قدمى ايليا الصغيرتين اللتين سارت بهما الى سيارة الملك وقفزت
فيها ٠

ومال برأسه على حاجز السلم ، وبدأ يفرغ جوفه ، وحين انتهى

شعر برأسه يدخل في الدوار ، فتحامل على الجدران • فتخطيا حتى
وصل الى فراشه فارتقى عليه •
لعل ماأخذ يعبه من خمر طيلة الليل وحده ، يسحبه الآن الى
الغيبوبة •• لكن ما باله يرتعد كأنه درويش لبسه الوصول
والاتصال ؟ •

ومضى نيكولا يواصل زحفه على جدران الغرفة الخشبية مصطدما
بالارفف والمقاعد ، حتى وصل الى الدولاب ، وأخرج منه غطاءين
اضافيين •• ضمهما الى غطاءه •• ودخل تماما في الغيبوبة •
رأى نفسه عاريا مع أبيه في حمام تركي •• وبدأ الحوض
الكبير المللي بالماء الساخن وكأنه وعاء كبير جدا من الفضة يغلي على نار
جهنمية لا ترى ، فيتصاعد البخار ويتكاثف ، وتتلاحم مجموعات قتلة
أباه عاريا وتلدّه هو ايضا عاريا ، وتلد كل هؤلاء النساء والرجال
والاطفال الذين يراهم في الحمام التركي معه •• يصنعون اختلاطا
حميما وتلاحما بين الاجساد العارية المكسوة بالبخار الكثيف ، يموه
عريها ويضفي عليه الغموض والسحر •• وشعر بنفسه خفيفا كفقاعة
محمولة على هذا البخار الكثيف الذي يتحول الى سحب •• ثم تختفي
جدران الحمام المكسوة بالرخام النقي ، لتنتقل تلك السحب في سماء
زرقاء لا متناهية ، فيشعر نيكولا بنفسه متطائرا ومتجاوزا الى ابعاد
يعجز الوعي عن حصرها حتى تسقطه السحابة التي تحمله عاريا فوق
جبل ، بينما عرق الحمام التركي وماؤه لايزالان يقطران من جسده
الهلامي !

كان الوقت ربيعا ، وكان الجبل مزهرا مطلا على البحر • يتراعى
عند سفحه واد لا قدرة على وصف اتساعه •• مليء بالجمال •• جمال
عارية بيضاء في لون اللبن ، وصفراء في لون زهرة الحنظل الصخرية
وسمراء تميل الى الحمرة ، عجب الوانها على تلك الرمال الذهبية
المفرطة في النقاء • وأعجب منها عناقها •• تلك الرقاب الطويلة تمتد
وتتمايل وتتبادل الغزل برؤوسها الصغيرة ويلف كل منها عنقه على
عنق الآخر ثم يتلاصقان ويتجاذبان وكأنما كل منها يدلك للآخر رقبتة
•• ويبت رأسه الصغير مشاعره ونجواه •• ورأى أيسا وهو يحكي له
عن البناجير والهجين وبقية سلالات الجمال الاخرى المتفوقة •• وكيف
يطلقونها في هذا الوادي ربيع كل عام •• عارية على الرمل بجوار
البحر •• تتعارف وتتجاذب وتتبادل العناق والحب •• ويقضى كل
جمل وطرا من ناقته •

وقد يأخذ احد الجمال امه . . أو تأخذ ناقة شقيقها !
ثم رأى نيكولا نفسه يغادر هذا الجبل الذى القى به السحابة
فوقه ، مرتديا ثياب ملك أشورى قديم . . يرغل فى أبهة الملك وعظمته
متصدرا كوكبة من عظماء المملكة يحتفلون ببدء موسم سيريس الهة
الزرع والخصب .

ورأى عجوزا تنسلل اليه بين المحتفلين ، تحدثه عن فتاة فى سن
ابنته أخذت تمتدح صباها ونضارة جمالها . . وتزين له الامر قائلة أن
زوجته الملكة ستظل غائبة عن فراشه أيام الموسم العشرة . . فما الذى
يمنعها ان تقود الى هذا الفراش تلك الصغيرة التى شغفت به حبا حتى
أوشك أن يهلكها الحب ؟

ورأى نيكولا الغائب نيكولا الملك يتلمظ شهوة ، فمن اين له وقد
قارب الشيخوخة ، أن تعشقه جارية فى سن ابنته . . ورأى نفسه فى
خيمة الديباج الاحمر الوفيرة الدفء وحورية مختبئة الملامح فى حريرها
الدمشقى . تنضو عنه ثيابه بأصابع بهجتها ولهفتها ، وتحمله على
أجنحة عطائها فيغمض عينيه هياما ونشوة . . مستسلما بأكمله لها ،
مستسلما بأكملها له حتى تتوحد نشوتهم وتتقد فتأخذهما الغيبوبة
السحرية معا .

قال حفناوى انهم انتهوا من نقل الخامة الى السكونر دون أن
يظهر نيكولا ، على غير عادته . . وحين تهيأت السكونر للرحيل ولم
يظهر نيكولا أيضا ذهب اليه فى غرفته وحاول أن يوقظه . . يهزه من
هنا فيميل معه ، ويهزه من هنا فيميل معه ، دون أن يتحرك له جفن ،
أو حتى يصدر عنه نفس . . فأقترب الخواجة انطون من نيكولا حتى
لحظ تنفسه . فأطمأن وطمأن حفناوى ، وتعاون الرجلان على تعديل
نومته ، فلاحظا أن جسده شديد البرودة ، رغم العرق الغزير الذى
يتصبب منه .

وغغم الخواجة انطون لنفسه بمكر انه كان يظن الايطاليين
أكثر تساهلا لكن يبدو أن نيكولا فعلا قوقازى . . ولا بد تورقه الآن
رحلة ابنته مع الملك . . ثم عدل من وضع الاغطية حوله وهو يخبر
حفناوى بأنه أجهد نفسه فى اليومين السابقين ، وظل فى الليلة الماضية
صاحيا الى الفجر . . واقترح أن يتركاه نائما .

وجذبا الباب خلفهما على نيكولا الغائب فى اللحظة المشبوبة التى
كانت ابنته تعريه فيها بأصابع لهفتها وبهجتها من رداثة الملكى
لتلتحم به .

الفصل الثانى عشر

دخلت ايليا عالم المحظورات دون توقع أو شغف ، فلم يتح لروحها الطفلة ان تتربق أو تتوقع ، فحتى دنيا المراهقة التى تصنعها زميلاتها الأكبر عمرا فى المدرسة ، أخذت منها موقفا محايدا ٠٠ فلم يشغفها يوما شئ ، قدر شغفها بانتهاء الدراسة ، للقفز فوق زميلاتها وفوق المدرسة ، وفوق بيت العم انطوان فى جاردن سیتی ٠ للقفز فوق هذا جميعه ، وعبر المدينة العاصمة كلها ٠٠ الى الصحراء ٠٠ الى الدرهيـب ٠٠ حيث يقيم بابا نيكولا ، وحيث يتاح لجسدها الطفولى وروحها البريئة ، أن تتحرر وتنطلق ، كنبته أنثوية شديدة النقاء والنعمومة ، على الرمال ، عند أعتاب مياه البحر الشفافة ، بين تلك الصخور الفائقة الخشونة ٠

وهكذا عبر جسر مما تحبه ايليا وتهواه ٠٠ فى ذلك المناخ الصحراوى الذى كانت تزهو بطفولتها على الضيوف فيه لخبرتها به ٠٠ انزلقت الى عالم المحظورات خطوة بخطوة دون أن تشعر بالخطر حين امتدت كف صاحب الجلالة تربت على خدها وهو يسألها عن اسمها وعمرها ٠

لم تنتبه ايليا للرجل المجاور لها ، هذا المسمى بالملك . وكان انتباهها لكل الجلال والمهابة التي تحيط بالسيارة التي تجلس فيها الى جانبه . . . وراودها الشعور بأن هذا الجلال وهذه المهابة انما هي في الحقيقة لها . . . واحتوتها تلك النشوة المنبعثة من خيالها ، وغذى عطف الملك ورعايته لها طوال الرحلة هذا الخيال فاستغرقها . . . ولم تشعر بمشقة الرحلة . . . كما لم تشعر بما استغرقته من وقت . . . وفي وديان علبة رفع الحرس ذلك الغطاء الجلدي عن سيارتها فوقفت الى جوار الملك وهو يبدأ مطاردة الغزال بسيارته . . . ممثلة بذلك الشعور بالتميز الذي يغذى دائما غرورها البريء الطفلي . . . كأنما هي ملكة حقيقية تطل على شعبها ، كما شاهدت في صور المجلات والكتب المرسومة الملونة .

بل انها حتى في تلك اللحظة الخطيرة والحاسمة بعد الصيد بساعات ، حينما احاط الملك خصرها الدقيق بذراعه السمينة وسار بها الى خيمته المنفردة المضروب حولها نطاق من الحرس كانت مستغرقة في وهما . . . فاستسلمت لذراعه الملكية بأناقة تليق بملكة ، ودخلت شامخة وهي تومئ برأسها لرجال الحاشية الذين وقفوا على مبعدة ، متظاهرين بالانشغال في كنوسهم وطعامهم .

كانت مسحورة بالرحلة . . . مسحورة بالصفوة من حاشية العصر المحيطة بها . . . مسحورة برعاية الملك واهتمامه بها ، مسحورة بالحرص التي كرر الجميع رشفها في نخبها . . . وصنع رجال الحرس ضجة مهيبة ، وهم ينتبهون بأسلحتهم تحية لعبور الملك وعبورها معه ، وأقاموا بأجسادهم المكسوة بثيابهم البيضاء والزرقاء وأشرطتهم الملونة حاجزا بين الخيمة والحاشية . . . وحينما حملها صاحب الجلالة بذراعيه الضخمتين من باب الخيمة الى الى الفراش الوثير المنصوب في صدرها وهو يداعب بشفتيه وجهها الدافئ الملتهب بالانفعال ، أدركت ذلك المحذور الذي انتهت اليه ، وبدأ عقلها يعمل بسرعة ، طازدا الخوف من نفسها . . . لقد ألسسوها منذ البدء ذلك الجو النفسى الخاص بملكة فعاشته ببراءتها . . . وعليها الآن أن تدرك أنهم خدعوها به ، ليساعدها الوهم على تكريس جسدها الصغير لفعل لم ينتهيا له . . . ! ولم يعد أمامها غير أن تصبح وتصرخ ، وتصرف فعلا بما

يلائمها كطفلة .. حيث لن يستجيب أحد خارج تلك الخيمة لصياحها
وصراخها .. أو تستجمع شجاعة أكبر من طاقتها وقدرتها ، لترتدى
دورها الوهمي الى نهايته .. وتقبل ذلك الفعل كما يمكن ان تقبله
تلك الملكة التي أوهموها بها .

وهكذا تشبثت ايليا الصغرى بعنادها الموروث من نيكولا
ومن ايليا الكبرى .. وحركت ذاكرتها الى دنيا المراهقة التي
اتخذت منها موقفا محايدا في المدرسة .. والى تعليقات اقبال
هانم على زفاف عبد ربه كريشاب وسمكته .. بل واستعادت أيضا
صورة ذلك الالتحام الغريب الذي كانت تتأمله بجوار ابشر
لكريشاب وسمكته الميتة التي يعرف انها ميتة ، ومضت تقارن بين
جسدها الصغير الدقيق ، وبين جسد صاحب الجلالة الضخم ..
وحين تعرى من ملابسها الملكية ، أخذت تقارن بين جسده الكثيف
الشعر وبين جسد السمكة .

ومضت في تمثيل دورها بشجاعة نادرة تفضل صاحب
الجلالة واثني عليها بعد ذلك بين خلصائه في مناسبة مشابهة الى أن
هاجمها الألم فجأة فاختلطت في رأسها الصور ، وعضت نواجذها
على طرف ثوبها .. لكن الألم أخذ يستمر ويتزايد حتى أفقدها
الوعي .

لم تدر ايليا كم بقيت غائبة ، وعندما انتبهت وجدت نفسها
مطروحة على الفراش الذي يتصدر الخيمة ، غير مغطاة أمام عيني
صاحب الجلالة الجالس بجوارها يدخن سيجارا فطيع الرائحة ..
وعند اقدامهما وقف الوصيف منهما في حديث بدأه مولاه حينما
استدعاه وهي نائمة .. ففزعت وحاولت أن تلملم ساقها فعاودها
الألم .. فانحنيت على نفسها وتدفقت الدموع من عينيها حارة
وغزيرة واخرج الوصيف من جيبة قلادة من الملاتين يتوسطها
فص من العقيق ، دلاها بين أصابعه بعناية ورقة ودنا بها من ايليا ،
فما كاد يقترب بوجهه منها حتى انتفضت فجأة كقطعة متوحشة
وخمشته وجهه بأظافرها ففزعت عنه ابتسامته الجلدية ..
وأسالت خيوطا من الدم القاني مكانها .. فتراجع مفزوعا وكفاه
على وجهه المجروح ، بينما انطلق صاحب الجلالة مقهقها .
وقفزت واقفة ومضت ترتدى ثيابها بصلاية وهي تتجشم

عناء لامسك دموعها ، وحينما انتهت واجهت صاحب الجلالة بعينين تفيضان بغضا . . وطلبت منه أن يأمر باعادتها الى والدها ، فكف صاحب الجلالة عن ضحكه ، ومضى يؤنب الوصيف لازعاجه ايليا بقلادته السخيفة حتى دفعها لأن تطلب مغادرتهم . . وأمره أن يكلف ضابطا من الحرس بتجهيز سيارة تعود بها على الفور .

ونظرت ايليا من السيارة وهى تدخل الميناء ، تتمنى لو يخلو من الجميع فتتسلل دون أن يراها أحد الى فراشها ، لكن نظرتها الى الميناء كشفت فشل أمنيتها . وهكذا اضطرت أن تهبط بتعبها وهمومها بين هذه العيون المتعددة التى وقفت لها . . تحديق وجهها الشاحب وساقياها المتهالكتين . . فلم تميز بينهم سوى صاحب السعادة الحوجة أنطون بك ، والدها الشتوى خلال فترة الدراسة بالعاصمة ، ودخلها قدر من الطمأنينة فأباحت لدموعها أن تعود وتتفجر من عينيها الساخنتين .

كان الضابط المفرط الحياء والادب ، قد أعلن أن الأنسة اصابتها وعكة مفاجئة اضطرتها للعودة وقطع الرحلة فأومأ له أنطون بك شاكرًا وتناولها منه . . ولم يزد فى سؤالها . . بدا كأنه قد فهم ماحدث وكأنه أيضا يلتمس لها العذر فيه ، فأراحها ذلك أيضا .

كانت متهاكة الساقين فعلا ، تتعثر فى سيرها وكان السير يصيبها بألم . . فاحتواها أنطون بك بذراعيه احتواء كاملا ، ومضى بها الى فراشها المجاور لفراش نيكولا فى غرفته . وكانت ايليا قد تنازلت للمضيوف عن غرفتها طوال بقائهم . . ثم رفعها قليلا الى الفراش ، وساعدها حتى تمددت ، بينما قلبه يلهث انفعالا ورغبة ، وألقى نظرة على نيكولا الغارق فى الغيبوبة على السرير المقابل ، وتوقف لحظة يحدث نفسه ويمنيها بأن فرصته الآن قد أصبحت كاملة . . سيسيتيقظ نيكولا ويفاجأ بما وقع لايليا ، وستربكه المفاجأة ويعجز لقصور ثورته وغضبه عن الوصول الى سلطان صاحب الجلالة وسطوته . . وخلال عجزه سيمتلى عارا وخزيا وعليك يا أنطون أن تتسلل بشهامة خلال هذا الحزى لتنقذ صديقك ، وتحصل على ايليا ما بقى لك من عمر . . !

ومضى ينقل عينيهِ الماكرتين بين السريرين حيث ترقد الأبنة المشتبهة ، والأب الصديق والشريك . . بينما كانت ايليا قد

استسلمت لطمأنينة المكان الاليف بعد الرحلة الاليمية ، فغلبها
النعاس واستغرقت فيه .
وحين انتبه نيكولا من غيبوبته رأى ايليا مطروحة ومغتصبة
ومنهكة ، على أنسرير المجاور له .

لقد استيقظ فوجد رأسه مصابا بصداع شديد . ثم أحس
بجسده كله متصدعا يشوب تصدعه شيء من رخاوة النشوة ولذتها .
وكشف أعطينته فلاحظ انها مبللة بعرقه الغزير الذى بلل ثيابه
جميعها . وفاحت فى أنفه من تحت الأغطية رائحة الشهوة التى
أفرزها جسده خلال غيبوبته فانبتت فى عقله على الفور كضوء
ساطع صورته وهو يضاجع ابنته ، فارتجف وهزت القشعريرة
جسده كله فى نفس اللحظة التى انتبهت فيها عيناه الى تلك الابنة
المهددة على فراشها المجاور له . ولم يكن أمامه من فرصة للتخلص .
كان الحلم ما يزال ساخنا فى نفسه المفعمة ، وبدأت التفاصيل ترد
على ذهنه المتنبه متتابعة فأحس بأصابع ايليا على جسده مارتال حارة
وساخنة ، بينما تعريه من ملابسه وتتجسسه . فروعت نفسه
وعاودته القشعريرة . وهاله ما حدث . فنفض أعطينته ونهض من
فراشه قفزا ووقف منحنيا أمام فراش ايليا ومضى يحقق محاولا
أن يتبين الوهم من الحقيقة . وكان وهمه حليما وعارما ، لانه قد
دخل فيه مخمورا ، ودخل فيه منكسرا تحت وطأة الشعور بالعجز
أمام رغبة السلطان الذى لا سبيل لمقاومة رغبته . وكانت نفسه
مهيأة للهرب من ذلك العجز فعاش مشهدا قديما عاشه من قبل مع
والده فى حمام تركى أملا فى البراءة . وحملته البراءة على سحب
من بخار كثيف الى نصوع الصحراء ووضوحها ، ومداها الفسيح
اللامتناهى ، حيث اختلط فى عقله الزمان والمكان ، وطفت على السطح
دخيلته المحتوية على ايليا . ايليا المرأة الدائمة والابدية . تلك التى
ليست أمه ولا زوجته ولا ابنته . فذاب فى الوهم وعاشه بحرارة
ونشوة ، فأصبح حقيقة ، وسقط الواقع وضاع خلال تلك الساعات
التى استغرقتها غيبوبته . وهكذا وقف مبهورا أمام فراش ايليا
ابنته ، يحقق فى جسدها المطروح والمنتهم ممتلئا بالشعور بأنه
هو الذى انتهكها !

وأخفى وجهه فجأة بكفيه الكبيرتين واستدار شارد اللب
وغادر الغرفة مهرولا وهو يلتفت خلفه بفزع وسقط من سلم الكابين

بينما يتراجع بظهره ثم تحامل ونهض .. وقفز جاريا الى البحر ..
فالتقى بنفسه فيه .

كان المشهد مألوفاً ، ان يخرج نيكولا من غرفته جاريا الى البحر ، فيلقى بنفسه فيه ، لكنه تلك المرة كان مرتديا بنطلونه وقميصه .. رآه ابشر من مجلسه على السقافة الممتدة للرسو داخل الميناء وقد دلى في البحر خيوط سنائره متربصا بها في تلك الساعة قبل الغروب ، لأسماك البياض المتوسطة التي تسعى وراء الاسماك الصغيرة في دفء المياه القريبة من الشاطئ .

دهش فترك سنائره ووقف محققا وقد تصور لها نزوة من نيكولا بعد نومته الطويلة التي استغرقت نهارا بأكمله ، ان يقفز في البحر فيغسل عرقه ويغسل ملابسه .. لكنه رأى نيكولا جادا في سباحته .. متوغلا داخل البحر الى تلك المناطق الخطيرة والمحظورة ، حيث تلهو اسماك القرش على اعتاب مساكنها في الاعماق فمضى يصرخ مناديا ومحدرا .. فجاء على صراخه العم أوشيك ، وجاء رجال الورشة .. وكان الحواجه أنطون مشغولا مع الضيوف الذين بدأوا ينقلون متاعهم الى اللشبات التي عادت من الغردقة لتحملهم اليها ، فانتبه على صراخ أبشر ، وأسرع الى السقالة يبحث بعينه في البحر حيث يشير .. فرأى نيكولا يسبح باصرار وصلابة ، مقاوما ثقل ملابسه الممتلئة بالماء ، متجها باسراع الى تلك المنطقة الخطيرة والمنوعة ، حيث يوجد في بطن الماء جبل عظيم .. تتوالد في كهوفه وتلهو حوله سمكة القرش المتوحشة .. وقد بهت الحواجه انطون لحظة ، وتزاحمت في رأسه الصور .. وأدهشه أن يقدم نيكولا على الانتحار لان الملك قد أخذ براءة ابنته .. فهو يعرف عددا كبيرا من رجال المجتمع قد أخذ صاحب الجلالة بناتهم .. فأضفى عليهم ذلك رضاء وسعادة واكتسبوا به شرفا .

وخطر له أن يترك المقادير تسوق نيكولا الى حتفه لتصبح ايليا وحيدة .. ويصبح هو ملاذها الوحيد .. ثم انتبه خارج ذاته على صوت أبشر الملهوف وهو يقفز جاريا على الشاطئ الى حيث يقف بنصفه المورجج فوق الماء ، قارب عبد ربه كريشباب ، فجرده من حراب الصيد وعاد يحملها مسرعا الى القاربين اللذين بدأ رجال الورشة في ادارتهما ، بينما أخذ الواقفون على الشاطئ يستحثونهم

وهم يرقبون نيكولا المسترسل بعناد وصلابة فى سباحته تجاه
الخطر ، رغم صياحهم عليه ، ومنادائهم له .
وقد لحقت القوارب بنيكولا فى ذلك اليوم التعس ، وأحاطت
به . . كل قارب من جانب ، ومد الرجال أيديهم الى البحر يحاولون
انتشاله ، لكنه أخذ يستعصى عليهم وينفلت كلما أمسكوا به . .
مطبقا عينيه مستغرقا بكل جهده فى ذراعيه اللتين تضربان الماء
وتضربان أذرع الرجال ، كأنما فى داخله قدر يسوقه ، تجاه البحر
الفسيح ليذوب فيه بما يشغل روحه من وزر الاثم .

وظهرت تحت الماء بقعة خضراء مستطيلة ملتوية ، فصاح
الرجال محذرين من القرش وبدأوا يحيطون نيكولا بحراهم ، ليمنعوا
الوحش من الاقتراب منه . . لكن الوحش كان حرا وكان مراوغا ،
وكان قد خرج بعيدا عن الكهوف مستطلعا رائحة الطعام ، أوفى نزهة
فاضطربت حواسه استجابة لذبذبة ذلك الجسم السباح
فى الماء على مقربة . . وتقوس على نفسه ثم اندفع بحمية الصياد
تجاه تجاه نيكولا . فريسته الموعودة ، ولم تثبط من همته الحيوانية
تلك الحراة التى اصابت جلده السميك اللزج وأسالت الدماء منه . .
بل كان يتلقى الإصابة كأنها خدش . . وينفلت مبتعدا وهو يجر فى
الماء خلقه خطأ قانيا من الدماء ، ثم يستدير على نفسه عائدا ، ليهاجم
نيكولا من جديد ، فتمنعه الحراة أن يصل اليه . . وقد هيجت
خيوط الدماء فى البحر شهية القروش الاخرى ، فتحركت تسعى
نشيطة مقبلة خلف رفيقها الجريح . . ولمح الرجال فى القاربين
أجسامها الخضراء وانزقاء تلمع ملتوية مقتربة تحت الماء الشفاف ،
فأدركوا ان نهاية نيكولا تقترب باقترابها ، وأسرعوا الى حبال
القوارب فألقوا بها الى الماء ، ومضوا بتعاون فى الحركة بين القاربين ،
يحكمون لفها حول جسد نيكولا المندفع المستعصى عليهم حتى أمكنهم
أن يوثقوه بها . . وبدأوا يجذبونها حتى الصقوا نيكولا بالقارب ،
وأخذوا يرفعونه من كتفيه وذراعيه الى حافته . . ولمح أبشر ذلك
القرش الجريح يندفع بحركة يائسة الى ظهر نيكولا فينشرب فكه
العريض الوحشى ، فسد حركته ، وأطلقها فى عنق الوحش فغاصت
فيه . . وانفجرت الفك عن بنطلون نيكولا وظهره الذى ينزف دما بينما
غاص القرش مبتعدا بالحرية المغروسة فى مقتلته .
وقد أصاب الرجال الدعر اذ وجدوا جرح نيكولا غائرا . .

وكانت المستشفى الوحيدة بالمنطقة فى الغردقة ، فتقرر أن يسرع الضيوف بالرحيل ليحملوا نيكولا معهم .. وبقي صاحب السعادة أنطون بك فى الميناء ليدبر أمور العمل ويلحق بهم .

وكان الحادث قد القى بظله على العمال والعبادة فتجمعوا على البراميل الفارغة وفى باحات الورش يثرثرون ويحللون باحثين عن ذلك الدافع الخفى الذى دفع بنيكولا الوقور القوى الذى يعرفونه ، الى تلك السباحة المستهترة فى منطقة القرش التى يعرفها جيدا ، ثم أجمعوا على أن نيكولا قد أصابه الحزن واختل توازنه العقلى ، لان الملك قد خرب ايليا ابنته ، فنهزم الخواجه انطون بك وفض تجمعهم ، وأمر من لا عمل له بالميناء بالرحيل فورا الى الدرهيـب لمواصلة العمل بالمنجم .

ثم اتصل بمحطة الاحياء المائية واخبرهم بأن صاحب الجلالة قد صاد اثنتى عروس البحر وعليهم أن يحضروا لآخذها .. فجاء الى الميناء قارب مجهز نزل رجاله الى الشط وتحلقوا حول السمكة الميتة .. يزيحونها من هنا حينا ، ومن هناك حينا آخر ، حتى دفعوا بها الى القارب وانطلقوا بها .. بينما الخواجة انطون يتابعهم وهو يتصورها متصدرة متحف الاحياء وقد ألصقت بذيلها لافتة مذهبة ، يزينها اسم صاحب الجلالة كصائد لها ، بجوار نوعها وتاريخ صيدها .

ذلك عمل اضافى يقدمه الخواجه أنطون بك لآبد وأن جلالتـه سيضعه أيضا فى اعتباره .

ومضى عائدا الى الكابينة ليطل على ايليا !



الفصل الثالث عشر

التأمت جراح نيكولا ، وفكت أربطته ٠٠ وأصبح ممكنا له أن
يمشى ويتحرك من غرفته في المستشفى الى الشرفة المطلة على الرمال
الصفراء ، والاكشاك الخشبية الملونة الملحقة بالكبائن والشاليهات ٠٠
فيجلس محققا في الفراغ داخل مقعد هزاز ، صموتا ، مقتضبا
النبرات مغلقة شديدة الانغلاق ٠٠ فنصحته صاحب السعادة الحواجه
أنطون بك بالراحة ٠٠ واقترح له رحلة ٠٠ في القاهرة ٠٠ أو في
الاسكندرية ٠٠ أو حتى فليذهبوا جميعا الى ايطاليا ٠٠ «نعم حقا ٠٠
الى ايطاليا ما رأيك يا نيكولا ؟ ٠ أنا وانت وايليا واقبال هانم ، ان
أرادت أن تذهب معنا ٠٠ فلنذهب جميعا الى ايطاليا أسبوعين » ٠
وكان يفكر أن ذلك يكون مناسبا أيضا للحصول على موافقة
ايليا الكبرى ٠٠ زوجة نيكولا الغائبة ، يسمع عنها ولا يراها ٠
لكن نيكولا لم يكن شغوفا بأحد في الاسكندرية ، كما لم يكن
شغوفا بأحد في القاهرة ٠٠ وكذلك أيضا لم يكن شغوفا بأحد في
ايطاليا ٠ ولم تستجب نفسه لفكرة الرحيل ، فما فائدة الرحيل
يا نيكولا مادمت تحمل داخلك معك أينما حللت ؟ ٠

وعاد الى الصحراء منطويا على ذاته . . . وظنت أقبال هانم أن في قدرتها اخراجه من تلك الذات خلال الايام القليلة التي ستبقاها معهم في الدرهييب ، فخاب ظنها وخابت غوايتها وما كان أغربه على المكان مشهدها خارجة في مغرب الشمس قادمة من الكباشن الخشبية المحيطة بباحة المنجم ، بالديكولتيه الواسع يكشف عن صدرها الابيض المورّد وكتفيها العاجيتين في تلك البيئة الصخرية السمراء . . . أو شعرها المموج طبقات فوق طبقات تتخلله أمشاطها الصغيرة المطعمة بالملؤلؤ . . . أو فم سيجارتها الذهبى الطويل تقبض طرفه بين أسنانها البيضاء ، بينما عيناها الملونتان تحلقان بنعال فوق كل المرثيات . . . غريب مشهدها وغير مألوف ، بالنسبة لهؤلاء البدو انعبادة الذين يكونون في تلك الساعة ينفضون غبار التلك عن رؤوسهم المشعنة ووجوههم الكثيفة الشعر . . . ويتهاونون لاشعال نارهم بين الصخور جماعات وفرادى لطهى عجينة الحبز أو شعيرهم المخلوط بالبقول .

تكون قد استيقظت من قيلولتها وشربت الشاي في فراشها المطل على الرمال ، وتبادلت مع أيليا حوار العصر وهي تتظاهر بمساعدتها في الاشراف على تجهيز مائدة المساء . . . ثم تنقلت خارجة ياحته عن نيكولا فتعرض له ناعمة متمسجة .
وما كانت تدرك أن سعيها الشيق هذا خلف نيكولا يؤجج شعوره فيزداد احسانه بثقل العقاب ووطأته ؟ .
لقد ظنوا جميعا أنه قد نجا وعاد من جديد ليملأ الصحراء بناء للحياة وبهجة ، كما ظل يفعل هناك طوال تلك السنوات ولم يدرك أحد أن نيكولا الذى يعرفونه قد مات !

غرق نيكولا القديم في ذلك اليوم الذى أمالته فيه الحمى على حافة سلم الكباشن ليفرع جوفه .
غرق نيكولا القديم في ذلك اليوم الذى ركبته فيه الحمى ونام في اليوم يومين .

سقط من عقله الحفل والضيوف ورحلة الصيد والملك وأنطون بك ، وكل ماهو مؤلم ومثير للآلم . وعاش في الحلم عظمة اللامألوف وبهجته الخرافية الساحرة ، التى حطمت كل حواجز الاستحالة الاخلاقية التى صنعتها البشر وهم يبنون على مراحل التاريخ

مجتمعهم . فأنصهر نيكولا في الحلم وخرج منه سسبيكة جديدة ،
متشبها بكل ما عاشه في الحلم ورآه .
وأصبحت أيليا خطيئته وعقابه ، لا جنته وثوابه كما كان يقول
لها .

وحين فتح عينيه في المستشفى على الألم لم يكن عقله قادرا على
التأمل أو التفكير ، كان يصحو على انشغال الغرفة بالطبيب أو
المرضة . . أو بعض الزوار . لكنه خلال صحوه يكون غائبا . .
يحدق فيمن حوله ، فتبدو عيناه فاعرتين كأنما تحتويان المرئيات
جميعها ، بينما هو في الحقيقة لا يرى غير ما يملأ عقله الخاص . .
لا يرى خارج ذاته ونفسيته .
قال له الطبيب : ستعيش يا نيكولا . ستنجو من ذلك الجرح
وتعيش ، لكنه سيخلف لك عجزا يصيب رجولتك .
فلم ينزعج نيكولا . . ولم يندهش . . تلقى الأمر بنوع من
الرضا .

ولعل خيطا غير مرئي كان يربط نيكولا بعيدا في الماضي ، بتربة
منبته الدينية التزمتة ، فاعتبر ذلك عقابا سماويا يحل به .
وهكذا بدا له العقاب طبيعيا . .
أن يخرج على المألوف ويضاجع أبنته ، فتؤخذ رجولته منه !

لقد كانت النوبة القديمة هي أرض كوش . . وكان أمير كوش
يحكم الصحراء الشرقية الجنوبية من مصر الى بلاد السودان ، حتى
جنوب الخرطوم .

وعندما أراد موسى النبي أن يضع حية على باب خيمة
الاجتماع ، استدعى رجلا من أرض كوش ليصنعها من البرونز
والبرونز ليس معدنا ولكنه مركب . . مما يقطع بأن أهل كوش كانت
لهم خبرة بالمعادن ومركباتها . . فكيف جئت لتعلمهم التعدين
يا نيكولا ؟

وحيد أنت وحدة مطلقة ومحاط بظروف قاسية وغريبة . .
وكما أنت قادر على أفضل صور الخير فأنت قادر أيضا على أفظع أنواع
الشر . . « لقد خلق الرب الآله آدم ترابا من الارض ، ونفخ في أنفه
نسمة حياة فصار نفسا حية وغرس جنة في عدن شرقا . . وأثبت
من الارض كل شجرة شهية للنظر جيدة لتأكل . . وشجرة الحياة في

وسط الجنة . وشجرة معرفة الخير والشر . . وكان نهر يخرج من عدن
ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة . . اسم الاول فيمشون
واسم الثاني جيجون وهو المحيط بكل أرض كوش . . الخ . . الخ
يوجد ذلك فى سفر التكوين يا نيكولا . . مازلت تذكره .

وكان نهر الجنة الذى يحيط بأرض كوش يجرى من انشرق الى
الغرب ، وليس ذلك بغريب ، فمازالت مجارى هذا النهر واضحة
آثارها على الصخور ، وفى الوديان الساحلية التى عرفتها جميعا فى
الصحراء . . فى هذا العهد السحيق يا نيكولا كان ممكنا للرجل أن
يتزوج أخته أو أمه . . وقد حدث ذلك ملايين المرات دون أن تهتز له
الجبال المقدسة أو تמיד الأرض . . لكن آلاف السنين قد مرت عليك
من وقتها للآن ولا بد أنك قد تعلمت ما هو أخلاقى ، وما هو غير
أخلاقى . . وقد فقا ذلك الملك الشاب القديم عينه بعدما تزوج
أمه .

فالسؤال المنوع هو عن الحياة والموت . . أما الواجب الاساسى
فهو العمل الذى لا مهرب منه . . وما عدا ذلك فلا توجد أسئلة . . ؟
يكون جالسا فى جانب من الباحة يرقب العمال يصعدون
ويهبطون فى فتحة المنجم ينقلون خامة التلك الى دائرة التخزين
الحلقية ، وأمامه رقعة الشطرنج بلونيهما القديمين الاسود والاحمر
يحاول الهروب اليها من داخل نفسه بينما يحرك الافيال والفرسان
أمامه على مربعاتها الصغيرة . . فتجى أقبال هانم تحوم حوله ، وبين
الحين والحين تنحنى أمامه لتضع نهديها فى عينيه مع كوبة الشاي أو
القهوة ، وبعض البسكويت ، تحاول أن تغويه دون أن تثقل عليه . .
غير مدركة أو متصورة أن هذا الجسد القوى المتكامل الذى خبرته
وعرفته ، قد أصبح أصم الى الابد . . حتى عن الحب والشهوة أصبح
السؤال محرما وممنوعا أيضا . . والواجب الوحيد الباقي يا نيكولا
هو العمل . . هكذا تكون الاجابة على تلك الافكار التى تذهب وتجى ،
مؤرجحة فى عقلك المضنى العاجز عن التركيز .

لقد آن الأوان لنشرع فورا فى شق الجبل عموديا من الداخل الى
قمته الخارجية ، لتوسيع بئر التهوية القديمة وأكمال انشائها فتصبح
قادرة على تغذية المنجم بكمية أكبر من الهواء النقى . . ولتصبحوا
قادرين على التوسع فى حفر الانفاق والممرات طولاً وعرضاً فى الطبقة

الثالثة وراء الحامة الشمعية التكوين ، التي تزداد غزارة وكثافة بين الصخور ٠٠ فما تكاد تنهار في أرض الممرات كتلة هائلة ، ويتم نقلها وأفراغها ، ويبدأ الغبار الشمعي الذي يملأ الممرات بعد سقوطها ٠٠ حتى تظهر في جدار الجبل كتلة أخرى هائلة .

واستطاع نيكولا أن ينسى نفسه في الرسوم والقياسات حتى انتهى من التصميم النهائي للبئر على الورق ، ثم شرع فوراً في تنفيذ التصميم الورقي على صخور الجبل .

ولاحث على ايليا بعض الأعراض التي توحى بحملها فارتبكت .

وكان نيكولا معلقاً على جوانب البئر العمودية ، يشرف على تنفيذ تصميمه الهندسي الذي يحميها من السيول والأمطار فلا يدخل من فتحتها النهائية على قمة الجبل ، سوى الهواء النقي ٠٠ وكأن العمل يخدر روحه القلقة ويمتص عذابها ولم يعد يخرج من بطن الجبل قبل أن تهبط الظلمة ، في الباحة ، وتصبح الوجوه غارقة في الظلال ٠٠ عساه كان يتخفى نيكولا في تلك الظلمة ، فلا تتكشف للآخرين دخيلته التي تتلوى بفداحة الاثم وجلال العقاب ، ومن ثم لم يكن متاحاً لايديا أن تقرب من نفسه وتسرع له بهومها ٠٠ ولم تجد أمامها غير أنطون بك ٠٠ هذا الملتف عليها ، المطوف حولها ، فأسرت له بحملها ولدهشتها وجدته يبتهج ووجدته يهون الامر عليها ويغريها به ! ٠٠

كان واضحاً أن تلك البذرة القيت في ذلك اليوم التعس في خيمة صاحب الجلالة اشهره ، قد أثمرت وأعطت نتائجها ٠ وكأنها تتجسد تلك الحادثة الكثيبة في اللحم والعظم ، وتجري فيها الدماء ، لتتحرك في الحياة على قدمين ، وتذكرها بامتهانها وذاتها .

وكان هو يعلم يقيناً أن تلك فرصته لينجب طفلاً يحمل اسمه فما كان له أبداً أن ينبج وقد فشلت حكمة الطب وأدويته ، في اخصاب شجرته العقيم المجدبة ٠٠ وما كان له أن يفكر في العار أو يفكر في الحزى ٠ وزوجته ايليا الجميلة ٠ ايليا المحببة والمستتهة . ستنجب له ولداً طالما تمناه وانتظره ٠٠ من صلب ملك ٠٠ محتوي على خصائص ملك ومميزاته !

ورأى في ذلك كله مدعاة للمتعجيل بالزواج واتمامه حتى تجيء

الولادة في ميعاد قريب نوعا من ميعادها الطبيعي !

واحسرتاه على تلك الصغيرة ايليا .

وحيدة هي في بحر الحياة الزاخر بالمنافع المتضاربة ، والشهوات الفاجعة ، والحوادث المضمية التي لا تكون في الحسبان .
تأمل الرمال المترامية ، من نافذتها المفتوحة وتفكر في تلك الوقائع المتتالية التي حطت على رأسها الصغير ولم تبلغ السادسية عشرة من عمرها بعد . . . فأين منها الآن ايليا الكبرى ، أمها ايليا الكبرى ، التي تنصدر هناك في ايطاليا ذلك الملهى المظلل بالاشجار الصناعية فوق الصخور المطلة على البحر . . ؟

وأين منها بابا نيكولا نفسه ، يدخل في الغيوبة حين يجهد الانتباه ، وحتى لحظات انتباهه يمضيها محققا فيمن حوله مذهولا كالغائب ، لا يدري أحد . . . ولا يمكن لأحد أن يخمن . . . أى عراق يدور في رأسه الذي بدأ يتسرب اليه المشيب .

أى هول ذلك الذي يحتويه في دخيلته ، فيجعله طاعنا في السن هكذا فجأة ، أبيض الشعر كأنما عمره مائة عام ؟ !
هي تعرف أن بابا نيكولا يكن لها حبا مضاعفا أحسسته ولاحظته وكان دائما يقول أنها جنته . . . أنها ثوابه وجائزته ، وأنها خير ما أعطته أمها ايليا الكبرى . . . تلك التي أحبها واختلفت منها هجما فافتقدا الوفاق وافترقا . . . وكان يقول أنها هي ، ايليا الصغرى ، عوضه وثوابه عن ذلك الوفاق المفقد !

هي تعلم كم يكن لها من الاعزاز والحب بابا نيكولا ، وتعلم مدى زهوه وفخره بها ، فهل أصابه ما حدث لها مع الملك بجرح نافذ أفقده القدرة على التبصر والسيطرة فرغب أن يلقي بنفسه الى التهلكة . . . وكانت تحس بقدر من الذنب بينما هي وحيدة تفكر في وحدتها لأنها قد تسببت بشكل أو بآخر في ايذاء والدها . . . وهامو حملها يزيد الامر سوءا ! .

وتلقت اقبال هانم ذلك الحيط فبدأت تجدل منه حبلا غير مرئية تحيط بها ايليا وتقودها الى ذراعى الخواجه انطون بك النسيم بها .

حدثتها عن فكرة الزواج أولا ، فتقبلتها ايليا كفكرة مفاجئة لم تنتهيا لها ، فبدأت تقنعها أن الزواج ضروري كحل يلقي ستارا من

الصمت والنسيان على ما حدث ويفتح في صدر المجتمع واجهة جديدة .. ينظر إليها الناس من خلالها بدلا من تلك الواجهة التي سيطلون زمنها فلا يرون سوى صورتها ضحية لتلك الحادثة .

وحين اقتنعت بدأت تحدثها عن انطون :

سيكون باشا خلال شهر ، على أكثر تقدير

تقى بما أقول يا ايليا

فوق ذلك فقد صنع له بابا نيكولا من ذلك الحبل في بطن الصحراء ، ثروة كبيرة يعتد بها .. انه يملك الآن في مدينة القاهرة وضواحيها مصنعين كبيرين ، فوق ما يملكه في هذه الصحراء .. اثنتي لآبيك نيكولا ، والثالث للحاج بهاء .. والثالث له .. فاذا تزوجت به ضمنت الثلثين يا ايليا .

أنت صغيرة الآن ، ولا تدركين ما للمال من قيمة .. لكن تأكدي أن المال قادر على كل شيء .. فان ملكته ملكت الحياة بأجمعها .. بل وملكيت أيضا عيون الناس التي تطل عليك وأمكنك التأثير حتى في عقولهم وأفكارهم !

وأغرقها أنطون بك في تلك الايام بالهدايا ، واستأجر لها لنشا فاحرا تذهب به الى جزر المرجان ، لتتسلى بصيد الاسماك الملونة .. واشترى من رجل يعرفه في القاهرة مجموعة كبيرة من الفكاهات ليرويها على مسامعها فتبهجها وتنسيها أحزانها .

قالت لها اقبال هانم فليكن أكبر منك ، أو فليكن عجوزا .. بل فليمت أيضا .. ماذا يهمك من ذلك ، فاعمر ملك يديك والزمن ما يزال ممتدا شديدا الطول أمامك .. وستكون الثروة لك .. وساعتها يمكنك أن تبدئي من جديد على هواك .. تبدئين بالحب ، أو تبدئين بالزواج مرة ثانية .. ستكونين حرة .

تقى من كلامي ، أوكد لك .. لا يوجد حولنا ، من هو أصلح منه .. !

واحيه تاه على تلك الصغيرة ايليا .
وحيدة في بحر انشعوات والمطامع .
صغيرة على كل ما يواجهها .

فكيف لها أن تتخذ قرارا ، وهي تعلم أنها بالقرار ترمى
مصيرها ؟!

لقد علمها بابا نيكولا أن تكون قوية . . وأن تكون حازمة .
فأين لها بابا نيكولا الآن ؟!
قال لها أن عيبه فى ضعفه العاطفى وتردده ، فلتكن هى
تكلمة له .

قال لها : انى اعتمد عليك يا ايليا حين يعط بى الضعف
وتجرنى عيوبى الى الهزيمة ، فكونى قوية .
وهاهى تلك السيدة المجربة تخبرها بأن الثروة هى القوة ؟!
فلا تملك غير أن تخبر اقبال هانم بموافقتها .



الفصل الرابع عشر

اشترى الخواجه أنطون بك حقيبتين مלאهما بالهدايا والملابس ، واشترى الطعام المقلب والمشروبات للمنجم ، وشحنها جميعا من السويس على السكونر الذاهبة الى برانيس بينما أخذ هو القطار الى أدفو ونزل في ضيافة الحاج بهاء وحين جلسا الى العشاء وخلت القاعة الا من ذلك نفر القليل من أتباع الحاج يقفون على مبعدة يناولون الملح أو الماء أو الفاكهة والقهوة . . . مال الخواجه أنطون على الحاج بهاء وسأله أن كان يعرف في الصعيد شيخا ذا حيثية ، يذهبان اليه لاستبدال اسمه من أنطون الى عبد الله . . . وهمس له بتفاصيل المسألة قال أنه يرغب في طلاق زوجته ، والطلاق في ملتهم ممنوع ، فلا بد من تغييرها بملة أخرى تسمح بهذا الطلاق وتقره . . . ليتحرر من تلك الزوجة ويتزوج ايليا .

فانتشى الحاج بهاء برغبة الخواجه انطون أن يدخل في دينه واعتبر ذلك كله وشائج قرابة ومودة ، سوف تغنى شركتهم وتزيد ثمارها .

ولم يمهل بعد العشاء للراحة فغادرا البيت معا يسبقهما

التوابع بالكلوب لانارة السكة فى دروب أدفو وشوارعها الضيقة
المتطرفة ، حيث يقيم الشيخ .

كان قائما يصلى وخلف ظهره مبخرة تملأ الغرفة الساقط
جيرها عن الجدران ، بدخان كثيف الرائحة فأمرهم تابعه أن ينتظروا
ساكنين حتى ينتهى من عبادته ، فانتظروا ٠٠ فأتقوا يجيئون ٠٠
عظماؤهم وصعاليكهم من فجاج الارض قاصدين الشيخ ، فيخبرهم
بمجرد دخولهم بأسباب مجيئهم دون أن ينطقوا بها ٠٠ ويخبرهم برده
قبل أن يطلبوه ٠٠ ويستطيع أن يخبر عن المريض والسارق ،
والغائب له سنين يمكنه أن يطلعهم على مكانه دون أن يعرفه ٠٠ وحين
انتهى من عبادته نظر الى الحاج بهاء معاتباً وقال ان شغلتهم التى
جاءوا لها ليست عنده ، وان لها طقوساً وقواعد يجب أن يتبعوها
تبدأ عادة بطلب يقدمه الخواجه أنطون الى أية محكمة .

فاعتذر الحاج عن ازعاجه للشيخ ، وقبل يده ٠٠ فربت على
رأسه وابتسم للخواجه أنطون مشجعاً .
وفى الصباح ذهب الى المحكمة فقدم أنطون طلباً برغبته فى
الخروج من ملته ، فأخبروه أنهم سيرسلون الى البطرخانة يسألونها
٠٠ قبل أن يوافقوا ٠٠ وان البطرخانة سترسل له واعظاً من القسيس
يتولى اقناعه بالعدول عن رغبته ٠٠ فان لم يكن جاداً فسوف يخبرهم
القسيس بذلك ٠٠ وبعدها يوافقون على طلبه .

اجراءات طويلة ، ومعقدة نوعاً ، واستغرقت من الزمان أسابيع
وشهوراً ، مشى فيها الحاج بهاء باخلاص متحمس مع الخواجه أنطون
٠٠ وذهب القسيس الى أنطون فى برانيس ٠٠ رحلة لطيفة قام بها
من قبل البطرخانة ليتولى اقناع ذلك الراغب فى تغيير ملته واعتقاده
٠٠ وهو يعلم يقيناً أنه لا ملته ، ولا الاعتقاد ، سيكون لها دخل فى
الامر ٠٠ وأغلب الظن كما تعود ٠٠ سيكون خلف الامر امرأة
وربما تهريب ، ميراث أو غيره ٠٠ وأستعذب رياح الصحراء الجافة
تملاً ثيابه السوداء الفضفاضة على ذلك الشاطئ النقى الذى يشبه
شواطئ الجنة التى يبشر بها ، واستلطف روحه ايليا ، وهنا أنطون
الخارج ، فى دخيلة نفسه عليها ٠٠ وحاول باخلاص معتاد أن يجادله
ويحاوره وهو موقن أن جدله وحواره ذاهبان هباء فى مواجهة تلك
الجنة التى تبدو وكأنها قد نبتت من تلك الطبيعة نباتاً ٠٠ ورحل

القسيس ليرسل تقريره الى البطرخانة فتحوله البطرخانة الى المحكمة
٠٠ فترسل المحكمة الى الخواجه أنطون تطلب حضوره لتوافق على
طلبه ٠٠ وذهب معه الحاج بهاء ليشهد نطقه للشهادتين واجراءات
اسلامه ٠٠ ثم عاد به الى الصمغراء راكبا جملا ، يسبقهما رجال
المنجم وبعض البدو يحملون أعلاما وبيارق ويدقون دفوعا وينشدون .
وأقيمت الزينات فوق البيوت الخشبية وحول المغارة ٠٠ ونصب
الرجال الاعلام والاضواء على الاعمدة الخشبية في سطح الجبل ٠٠
وذبحت العجول لفقراء الجبل ومتشرديه ٠٠ بينما جاء شباب البشارية
بسيوفهم الصليبية القديمة ودرقاتهم ، ومضوا يملأون المكان
برقصاتهم وأهازيجهم ٠٠ بينما كان الشيخ على والحاج بهاء واقفين
على باب المغارة ، يطلقان الرصاص في الهواء تيمنا وبركة .
ولم يلاحظ أحد في ذلك الليل الخلوي ، تلك الصقور الجارحة
التي جذبتها رائحة الذبائح وفضلاتها ، فأخرجتها من مكانها البعيدة
في قمم الجبال المجاورة .
جاءت تحسوم من بعد ٠٠ تنتظر من القوم غفلة أو هدأة ٠٠
لتنقض من عل انقضاضة واحدة مفاجئة وموفقة ٠ ترتفع بعدها وهي
تحمل في مخالبها رءوس الذبائح أو أقدامها !

وهكذا تزوجت ايليا عبد الله الذي كان اسمه أنطون ، أو
الخواجه عبد الله ، كما صار اسمه عند بدو الجبل .
وبعد أن كانت فتاة الجبل وجنيته الساحرة ، وزهرته الفطرية
المستوحشة أصبحت سيدته وملكته ؟

لقد أفقدها صاحب الجلالة براءتها وطفولتها ٠٠ فأصبحت تحمل
نفسية ملكة عن اقتناع ٠٠ تطور طبيعي لاحساسها الملكي خلال
الطفولة ٠٠ عريها الحر المتعالي ، كنبته اثوية باهرة بين تلك الصخور
العارمة الخشونة .
وهكذا ببساطة أمكنها أن تسلب الخواجه عبد الله صوابه فتقوده
كطفل لها ٠٠ !

وكان نيكولا غائبا طوال النهار في قلب الجبل مشغولا بالحفر
المتصاعد في بئر التهوية ، فتولت هي شئون المنجم الخارجية ، وأدارتها
بجدارة مكتسبة من خبرتها معه .
وفي الامسيات ، وحين يلتقون على مائدة العشاء التي تعدها

ايليا فى الشرفه الزجاجية المطله على باحه المنجم ، بعد أن يغتسل نيكولا من تراب الحفر وغبار التلك ويرتدى سترته الليلية ، يلاحظ نيكولا أن جسد ايليا يسرح فى الامتلاء بطريقه غير عاديه ، فيتأمل تلك الملاحظه أياما وأسابيع ، حتى يتأكد له أن ايليا حامل . . فيحسب المسأله بأيامها وشهورها الى أن يدرك نهائيا انه لا دخل لزوجها فى ذلك الحمل ، فاعتكف فى غرفته . !

وقع الامر على عقله وقوع اللطمه فلم يكن ذلك فى حسبانہ قط . . لقد أثم وتلقى عقابه عن ذلك الاثم بروح شجاعه ولم يتذكر أن للاثم بذره قد غاصت فى اللحم العميق المظلم ، لتسقى بالدم وتثمر كائنا حيا يطارده باللعنة ابد الدهر !

وامتنع عن النزول الى المنجم . . وامتنع عن الخروج من غرفته التى يعتكف بها فدخل عليه أنطون باشا ، ودخلت عليه ايليا ، لكنه كان يقابلهم بالصمت ، كان يحملق ، وترتجف شفاته ، وتهتز الجمران الخارجيه لحنجرته كأنما يرغب فى انكلام لكنه يعجز عن النطق . ولاحظوا ضيقه الشديد باقتحام عزلته ، فلم يعد يدخل عليه أحد سوى ايليا .

تدخل بافطاره فى الصباح ، ثم تدخل بالغداء فى الظهر . . فتجد طعام الافطار كما هو لم يمس ! وفكرت فى احضار طبيب من القاهره . . وحين أراد الطبيب فحصه انفجرت ثوره نيكولا وطرده من غرفته ، ورأى العبادة الذين كانوا يفرزون التلك ويكومونه فى جانب الباحه المخصص للتخزين ، ذلك الطبيب الضيف يخرج مهرولا ويتعثر على سلم الكباين ، ويسقط فى الرمال أمامهم ، بينما تلاحقه من غرفه نيكولا ، حقيبتة بأدواتها الطبيه ، وفازة للزهور ، وبعض الاحذيه !

ودخلت اليه ايليا فاحاطته بذراعيها حانيه مهدئه ، لكن نيكولا نفضها عنه ومضى فى الغرفه يروح وييجى كأنما يعصف به الم لا يحتمل ، وفجأة توقف وأمسك بمعصميه فأوقفها قبالته . . ومضى يحرق فى عينيهأ بجزع . . ولانت نبراته حتى وصلت الى حد التوسل وهو يطلب منها أن تتخلص من حملها . . فدهشت ايليا ، واخبرته برغبه زوجها فى الاحتفاظ به ، فانفجر صارخا ومضى يسبب شريكه ويلعنه !

وصحا نيكولا قبيل الفجر بساعتين ، على أصوات يحملها من بعيد ليل الصحراء الرقراق .. لعل روحه القلقة المنتبهة فلا تهجع ولا تسكن ، هي التي انقطعتها أولا قبل أذنيه .. فمضى يتسمع مغمض العينين ، فتبين أهازيج غنائية ممطوطة الايقاع وحزينة .. ففتح عينيه مستجمعا انتباهه الكامل حين أدرك أن أتباع أبي الحسن الشاذلي قد بدأت طلائعهم تهل على الصحراء في موسمهم السنوي لزيارته .

وانقلب على ظهره في الفراش متوترا ، وقد استتارت تلك النغمات الممطوطة الايقاع شغفه الداخلي الى طمأنينة الروح ، وسكينة القلب .. ثم مد يده فأضاء النور ونظر في ساعته ودخل في بنطلونه وقميصه متعجلا ، ودس قدميه في خفه الجلدي .. ثم غادر بيته الحشبي ومضى عبر الباحة تجاه فتحة المنجم حتى دنا منها وتجنبها ، وصعد متسلقا وقد ازدادت تلك الاهازيج الغنائية عبر الليل وضوحا واقتربا .

ها هم أتباع أبي الحسن ومريدوه والمتعلقون به ، يحجون اليه حجتهم الصغرى .. يقدمون اليه في ذلك الموعد من كل عام .. من فجاج الارض ومسالكها المتباينة ، يعجب نيكولا لتباينهم الشديد كتباين تلك الطرق التي يسلكونها .. فمن عمال ورعاة وبدو وأثرياء ريفيين ، الى أفندية واطباء وقضاة وأساتذة ووزراء .. من كل أرض فيها مسلمون ، يجيئون قاصدين تلك البقعة في صحراء الشرق الى ذلك الوادي المسمى عيذاب .. في مواجهة مكة على البحر حيث توجد كعبة المسلمين .. فيتخلقون حول ذلك البناء الصغير المتواضع في صحن الجبل الذي يحيط بالوادي ، ويلقون بأهازيجهم وغنائياتهم على قبة ضريحه المستديرة التي تعشش انصافير ، ويالللغربة في ثوبها .. فمن للصحراء يا ترى بالانصافير ؟

أهي معجزة من معجزات هذا الرجل أبي الحسن ، الذي تغل قبل موته في جرعة ماء من تلك البئر المرة ، المجاورة لقبته ، وأمر أتباعه بإعادتها الى البئر ، فصار ماء البئر عذبا مستساغ المذاق .. ؟
يصعد نيكولا في الصخور ويصعد ، كأنما روحه القلقة تدفعه ، وتحمله مع خبرته بمسارب الصخور ونتوءاتها ، متسلقا الى قمة الدرهيبة العظيم ، حيث يمكنه من ذلك الارتفاع الشاهق أن يطل على

الناحية الأخرى من الجبل ، على الطريق الملتوية القادمة من عتبات جبل الحفافيت ، تحمل على صخورها الحادة والمدببة ، عربات هؤلاء القوم تجرها الجياد والجمال محملة بأنديق والحلوى ، وماشية التضحية . . ومحملة بشوقهم وحماسهم ، ولهفتهم الظائمة الى لقاء الرجل الندى منذ سبعمائة سنة !

وقف نيكولا هناك وحيدا فوق قمة الدرهيبي ، يحيط به الليل الرقراق المضاء بملايين النجوم الشديدة اقرب والمتناهية في البعد في نفس الوقت وأخذ يفكر . . هاكم رجل غادر وطنه وجاب الارض زاهدا ، فلما خلال الترحال ، وأمكنه أن يخلص جسمه البشري من أثقال بشريته ، فسيما به وشرف حتى أمكنه التحليق في الطريق الى الله . . ويؤكد اتباعه ومريدوه انه وصل اليه .

أبو الحسن الشاذلي . . ذلك اسمه المدون بخط عربي ركيك على حائط مقامه الاخير تحت تلك القبة الصغيرة المتواضعة التي تحوى في ثوبها مئات من أعشاش العصافير . حيث لا توجد في الصحراء عصافير ! . .

كان يقول « أتريد أن تجاهد نفسك وانت تغربها بالشبهوات حتى تغلبك . . الا فقد جهلت ، فالقلب شجرة تسقى بماء الطاعة . . فلا تكن كالعليل يقول لا أتداوى حتى أجد الشفاء ، فيقال له لا تجد الشفاء حتى تتداوى ، بالجهد ، ليس معه حلاوة ، ما معه الا رؤوس الاسنة . . فجاهد نفسك . . هذا هو الجهاد الاكبر . . » .

فكيف لك الآن أن تجاهد نفسك يانيكولا وما كان قد كان ، وبدوره قد أثمرت وبدأت تفرخ . . وسينتصب لك على وجه الارض كيان من لحم ودم يمشى ويجسرى ويصيح ويصرخ مؤكدا اثمك وخطيئتك . . ؟ .

قالت له ايليا : جئتك بولد يانيكولا ليكون ظريفا ويسليك ، ويجعلك جدا . . !

كانت قد ولدت طفلها فرفض رؤيته . . قال في نفسه : يا شؤم ماجئت به يا ايليا . . ولدا يجعلني جدا وأبا في نفس الوقت !

فكر فيكولا في وقفته المشتاقة الظائمة تلك ، لو يلقي بنفسه من قمة الدرهيبي الى عربة من عربات هؤلاء المريدين والاتباع التي تحمل زادهم وهداياهم الى شيخهم الصوفي في عمق الصحراء . .

فيحملونه معهم اليه ، ليقدم الذبائح على جدران ضريحه في الفجر ،
ويقفز في الهواء متطوحا في حلقات الذكر التي تقام حوله ، فينفض
عن قلبه همومه ويلقي عن روحه أثقالها .. ويتخفف .. فيصبح
حرا من الائم والخطيئة .. حرا من جسده البشري .. لكنه شعر
بأن ذكر الدنيا كله ، لو شارك فيه متطوحا فلن ينفض عن روحه
المذنبه أثقالها ، ولن تجديه الذبائح ولن تغسل دماؤها خطيئته .
وكان الفجر ما يزال جنينا في بطن الافق حين استقر نيكولا
على قراره واعتنقه متشبثا به .. ثم أخذ يقتات عليه وهو يهبط
الجبل مسرعا غير عابئ بالصخور التي تغرس أسنانها في مداسه
الجلدى .. وحين هبط الى الباحة أخذ يعدو فتجاوز كايينته الى
كايينة الزوجين انطون وايليا .. صديقه وابنته .. فمضى يتسمع
الى الجدران الخشبية وهو يدور حولها .. حتى استقر تحت نافذة
ايليا .

واطمان الى الصمت فلا صوت ولا حركة .. فمشى الى النافذة
المجاورة وارهدف اذنيه .. حتى الطفل أيضا كان ساكنا .

وأمسك نيكولا انفاسة اللاهثة وهو يستدير الى سلم الكايينة
وصعد .. وقد خلع خفه الجلدى ثم اجتاز غرفة الزوجين الى غرفة
الطفل الملحقة بها وامسك بمقبض الباب وقد خشى أن يكون مغلقا ،
لكن المقبض قد دار في يده فسارعت دقات قلبه . وتسارع لهائنه .
ومضى متسللا فى الغرفة المظلمة يتحسس طريقه الى فراش
الطفل حتى اهتدى اليه فمد يديه وحمله محاذرا أن يوقظه .. ومضى
متسللا الى الخارج كما جاء .. وهبط سلم الكايينة محاذرا حتى
لمست قدماء العاريتان الرمل والحصى ، فانطلق يجرى مغادرا الباحة
وعبر ساحات التخزين الى منفذ الجبل الخارجى المؤدى الى انصحراء ،
وكلما اجتاز مكانا زادت سرعته كأنما يخشى ان يلحقوا به .

حمل نيكولا ثمرة خطيئته النابضة بالدم فى اللحم الصغير
للزج وأخذ يجرى مهرولا على حصى الباحة الاحمر الذى ذاب
احمراره فى رمادية الفجر الطامع على الكائنات .. حتى خلص من
المنحدر الطويل المفضى الى المدق العام ، الذى مهدته العربات والجمال
وأقدام العابرين فى الصحراء قادمين الى الدرهييب أو عابرين به .
وكان المدق خاليا ، فمضى نيكولا يتلفت يمينا ، ويتلفت

يسارا ، ثم نظر الى اللفافة التى تشدها قبضته الى صدره بقوة ..
فعمير المدق أمامه تنتصب ذؤابة جبلية مدببة الصخور تماثل من
الدرهيب نصف الارتفاع أو أقل قليلا من النصف ، وراءها لـ
عبرها ، بحر الرمال الواسع اللا متناهى حيث تموت جـوعا فى
امتدادها الوحشى عشرات الذئاب يوما بعد يوم ، فتتغذى على جيفها
عشرات الضباع التى لم تمت من الجوع بعد .

وعبر نيكولا المدق متحمسا ، وتوقف أمام الذؤابة الجبلية
يلتمس لأقدامه مصعدا على صخورها ، وقد أخذ يشدد قبضته التى
تضم لفافة الطفل الى صدره بينما يتسلق الصخور بقبضته الأخرى
ولا يدري نيكولا كم من الوقت مر به حتى وجد نفسه أخيرا فوق
الهيضة الصخرية لهذا الجبل انصغير ، على مكان ممهد أشبه بالشرفة
يطل على بحر الرمال الساكن فينقبض قلبه لسكونه الرمادى الموحش
وتناهى الى اذنيه عواء الضباع يحلل ذلك السكون فاهتز من داخله
وارتعب وكان يشعر بساقيه تؤلمانه وترتجفان .. وكانت الريح
باردة فوضع اللفافة على صخرة واقعد صخرة أخرى ، ومضى
يتحسس ساقيه ويدلكهما فاكشف انهما تؤلمانه أكثر ، وقد مزقت
الصخور التى تسلقها ملابسه ، وجرحت ساقيه وقدميه حتى
أدمتها .. فأراح ظهره على الصخرة التى اقتعدها ومضى يلتقط
انفاسه .. وعيناه على اللفافة حيث وضعها .. ولده وحفيده
وخطيئته .. وقد بدأ يدهشه ويريبه ان الطفل لم يبك بعد ، فأسرع
الى اللفافة يفضها بيدين ترتجفان وقلب واجف ، فطالعه لأول مرة
وجه الثمرة النابتة من الذنب فمضى يتأملها .

كانت العينان مغمضتين والكتلة اللحمية الصغيرة ساكنة فزاد
عجبه ، فصراخ تلك الكتلة اللحمية ظل يخترق اذنيه عبر الجدران
الخشبية الفاصلة بين كابينته وكابينة ايليا ، طوال الليالى الماضية
منذ وضعت حملها .. صراخا طفوليا رفيعا ومدببا كان ينفذ فى عقله
ويوخز .. فما بالها الآن ساكنة ؟ .

وأخذ يهرز اللفافة ، فراعة ان العينين ظلتا مغمضتين ، والكتلة
اللحمية بقيت على سكونها .. وكانت حركتها تدغدغه وتحرق
أعصابه ومشاعره بينما هو يفر بها من الكابينة عبر منحدر المنجم
الى المدق . اتراه قد شدد قبضته على اللفافة بينما يهرب بها ، حتى

قتل الحركة واماتها وهو يتسلق تلك الهضبة الصخرية وينفذ من
صخورها . ؟

وابتعد نيكولا وهو يحرق بعينين متحجرتين في اللقافة
المفتوحة على الصخرة . يتوسطها الطفل الساكن وقد انحدرت
ذراعه ارفيعة حتى لامست برودة الحجر ، وبرزت ساقيه الضئيلتان
في العراء .

وسمع بأذن خياله عواء الضباع المتزايد ، في بحر الرمال
الساكن . يتجسد فيصبح وحشا زاحفا على الصخور ، ليخطف
بانيابه هذا الطعام المباح .

ورأى بعين خياله ، صقرا جارحا من تلك الصقور البنية
الريش الصفراء المناقير ، يحوم في السماء دائرا في دائرة متسعة ،
مرة ، ومرتين ، وثلاثا . دورانا يتزايد انخفاضه في كل مرة تمهيدا
للاقتضاض فيحمل في مخالبه تلك الفريسة المطروحة حالالا له ،
فيرفعها في السماء ، قرباز شفاعة من نيكولا وتوبة !

فألقي بنفسه بين آلة خور منه ، را هابطا الهضبة بأرابع وهو
يخفي وجهه بين كفيه .





الفصل الخامس عشر

صحت ايليا فى الموعد الذى اعتاد طفلها ان يوقظها فيه طالبا طعامه يبكائه .
وتفقدت البكاء وهى ماتزال فى فراشها فلم تسمع ، فنهضت متكاسلة ، وغادرت الفراش وهى تتأهب . . وأخذت تعد للطفل رضاعته المعتادة . ن تلك العلب الفاخرة التى أهدتها اياها ايليا الكبرى امها . . وبينما كان الطعام ينضج على النار غسلت وجهها ونظرت الى أنطون الذى يغط فى فراشة المجاور لفراشها ولوت شفتيها مشمئزة نافرة ثم عبأت الطعام للطفل فى زجاجة رضاعته بعناية غير مدربة ، وحملته الى غرفته فما كاد بصرها يقع على الفراش حتى فوجئت بخواته من طفلها . . بهتت لحظة ومضت تتلفت فى الحجرة هنا وهناك كأنما كان ممكنا لذلك الرضيع ان ينتقل من رقدته . . حتى ادركت اختفاءه فأثقت ما بيدها واسرعت الى فراش زوجها ومهت تهزه حتى أيقظته فنهض مفزوعا وجرى الى الفراش الحاوى ليتأكد بنفسه من صدق ما أخبرته . . وقد فوجئ ايضا باختفاء طفله الملكى فجرى مسرعا الى كابينة نيكولا ، فوجد فراشه

خاويا ، فاستدار الى ايليا التى لحقت به واكد لها ان نيكولا هو الذى فعلها . !

وكان الشروق قد جلل الجبل بضوئه الذهبى ، وبدأ شغيلة المنجم ينهضون من رقادهم المضمنى ويشعلون نارهم تحت الشىء الاسود وحبات الفول المتصلبة حينما شاهدوا الحاجة عبدالله يهبط سلم الكابن مهرولا تجاه خيامهم فى بيجامته الحمراء المخططة بالأزرق اللامع ، والابيض اللامع ، فأدهشهم مشهده المضطرب ، كما ادهشهم نزوله المبكر هذا ، وخمنوا ان شيئا غير عادى قد حدث .

واقترح فطورهم الصباحى وهو يلقي اليهم بأوامره المهتاجة ليبحث بعضهم عن نيكولا داخل المغارة بينما يذهب البعض الآخر انجيز السيارة الجيب واحضارها .

وقد عاد الذين ذهبوا الى المغارة وحول السفوح القريبة من فتحة المنجم ليخبروا بفشلهم . وجاءت السيارة فركبها انطون وحشد فيها مااستطاعت أن تحمله من العباددة ، وانطلق بها عبر المنحدر الهابط من باحة المنجم الى الصحراء وراء نيكولا وطفله الملكى بينما بقيت ايليا ، تتطلع الى الشروق يوشى أطراف السماء بأوشيته المذهبة . وتفكر فى شعورها . كانت منزعة . لكن انزعاجها مشوب بالهدوء ، كأنما هو نوع من الاستسلام والتسليم بما حدث يتوافق تماما مع شعورها الاول الذى رفض هذا الطفل المزروع عنوة فى احشائها .

ولم يكن شعورها الطفولى قد انضجته الامومة بعد . فما زاد الامر بالنسبة لها عن قدر هائل من الالم تحملته وهى منطرحة على ظهرها بينما يدا طبيب امها الايطالى المدرب يجذب من احشائها تلك الكتلة المحمية المزجة . التى قيدتها بمجموعة من الواجبات لا طعامها وتنظيفها . وما كان اسرعها الى النفور والضيق حينما يصحو الحاجة عبدالله فيبدأ برنامجه اليومى فى مراقبة الطفل ، وملاحقتها للاهتمام به .

هذا الحاجة عبدالله نفسه ، الذى لا تشعر تجاهه بغير شعور اواجب وشعور الندم . فقد أدركت بوضوح فى تلك الليالى التى بللها خلالها بلعابة وعرقه ، انها استجابت لأنعوبة غير شريفة قامت بها السيدة اقبال هانم ، فألقت بها برضاها وموافقتها . فى زيجة غير متكافئة . !

وعندما جاءها فى الظهيرة والقى تحت عينيه بلفافة الطفل ممزقة غارقة فى الدماء ، صرخت مفزوعة واخفت عينيه بكفيها الموردين . . كانت نفسها مهيأة لضياح الطفل ضياعا معنويا لم يرسم له خيالها شكلا من الاشكال المادية . . فلم تكن مهيأة لرؤية الدم . . فصدم لونه روحها الشفافة ، فدخلتها البشاعة . . وانهارت فوق فراشها تبكى .

فندم على تهوره . . اذ القى باللفافة الغارقة فى الدم تحت عينيه بشعور المحقق المغيظ الذى فقد فى لحظة خاطفة ، أهم ما يملكه ، دون أن يتمكن من الدفاع عنه !

لقد أنطلق بالسيارة المعبأة بالعمال والعبادة ، حتى خرج من منزلق الباحة الى المدق العام ونزل خيرالله ، أحسن من يقتفى الاثر من عبادة المنجم ، الى المدق ، ومضى يتشمم ترابه وحصاه ويدقق فيه النظر . . ثم أشار لهم أن يتبعوه ، ومضى يقودهم حتى توقفوا أمام الدوابة الجبلية . . ولم يعد ممكنا للسيارة ان تواصل المسير فغادروها وقفز من تمكن منهم من خلف خيرالله يتسلقون الدوابة حتى اعتلوا قممتها ووقفوا على الشرفة المساوية التى قدم نيكولا قربانه الدموى فيها . . وشاهدوا فئات لحم على الصخور . . وشاهدوا آثار أقدام حيوانية مطبوعة أطرافها ومخالها بالدم . . وشاهدوا اللفافة الممزقة التى غرق بياضها فى اللون الاحمر القانى . . نكسوا رؤوسهم وهم يجمعونها ويطوونها .

واخذ بعضهم يلتمس بعينه نيكولا فى ذلك الفراغ الصحراوى المترامى البعد ، من هذا الارتفاع المناسب . . وهز بعضهم رأسه ، وهو يلوح تجاه بحر الرمال الخطير والخيف ، مؤكدا ان نيكولا هناك الآن .

ألم يسبح بنفسه منتحرا من قبل ، بين انياب سمك القرش فأنقذوه ؟ فما الذى يمنعه اليوم من فعلها ؟

وواصلوا الهبوط حاملين اللفافة ، لينقلوا المخواجة عبدالله المنتظر تحت الدوابة فى السيارة نتيجة بحثهم . . فلطمته تلك النتيجة . . وتمنى لو أن نيكولا قد أغرق نفسه الشريرة والشيطنانية فى بحر الرمال فعلا .

وكان أبشر قد خالجه الشك فى أن يكون نيكولا قد كرر فعلته . .

فأقنع خيرا لله بالبقاء للتأكد بتقصي الاثر .. وهكذا بقي الانسان يتشممان حواف الشرفة الصخرية ، ويدققان النظر في صخورها فراعهن ان رائحة الوحش الكريهة ، قد أمتزجت برائحة الدماء وملأت المكان ونفذت في مسام صخوره ، وأصبح مستحيلا أن يشموا في التراب . رائحة نيكولا ، حتى الحصى ، الذي بقي لهم كامل ، يتبينان من حركته وسكونه خطوات نيكولا ووقع أقدامه ، أكتشفوا أنه قد فقد استقراره . وانه كان عرضة لعدد من الاقدام الحيوانية ، لابد قد تصارعت فوقه صراعا همجيا ودمويا قلب نظامه وسكونه ..
واخفى الى الابد ، خطوات نيكولا !

لكن أبشر لم يفقد الامل .
دائما أبشر .

في البحر . حيثما القى نيكولا بنفسه ومضى سابحا الى كهوف القرش العميقة ، كان أبشر هو الذي صرخ ، هو الذي جمع الرجال لانقاذهم .

تقدم من ايليا وقال انه لم يبق أمامهم سوى الصراخ في البئر ، تلك عاداتهم القديمة ، لمعرفة مصير الغائب .. فليبحثوا الآن عن بئر قديمه ولتعلن ايليا وتصرخ فيها باسم نيكولا ، فان جاءها صدى الصوت ، كان نيكولا حيا .. وكان موجودا .. وان صمت البئر وابتلع الصراخ دون رد ، يكون نيكولا قد انتهى فعلا في بحر الرمال الخادع .

فنظرت ايليا بلهفة داخل عيني أبشر ، كأنما تقرأ في هاتين العينين السوداوتين ، دخيلة أبشر المؤمنة بوجود نيكولا وحتمية بقائه .

ومالت بنظراتها متأملة في كيان أبشر البدوي كأنما تكتشفه لأول مرة .. وكانت تشعر بحرارة القرب منه في مقعد السيارة وهو واقف على مسافة يمكنها من خلالها ان تستمع الى قلبه وهو يدق . هذا هو أبشر رفيق طفولتها ، وصاحب لهوها وعيبتها على صخور الصحراء ورمائها .. ورفيق جديتها ومسئوليتها حينما بدأ نيكولا ينشئ على الجبل مدينته .

أصبح مرآه مألوفا وعاديا بالنسبة لها .. فما بالها الآن تتلمس بعيونها دخيلته وتبحث فيها ؟

كأنما تلك الروح القديمة لثائر الصحراء الرومانسي أيسا ،
تطل عليها الآن كما أطلت على أبيها من قبل من خلال هاتين العينين
المركبتين في جسد الابن ! ..

وطلبت من الجميع أن يصعدوا الى السيارة ليبحثوا عن بشر ..
وقفز أبشر الى عجلة القيادة بجوارها ، وأدار السيارة مسددا عينيه
الى الطريق الوعرة ، مجنبا عجلاتها أسنان الصخور وحوافها المديبة
منحدرا على المدقات وصاعدا معها ، ودار حول الدرهب صاعدا الى
جانبه الغربى .. حيث لاحت لهم على البعد تلك البئر المهجورة
المشئومة التى كان قد خيل لهم أنها قد ذهبت فى النسيان بفجيعتها
وشؤمها ، وجث الرجال الثلاثة ، ايسا ورفيقه ، الذين اختفوا فيها
بينما يحاولون تطهيرها حينما كان تشغيل الدرهب فى أوله .

وأوقف أبشر السيارة حين لم يعد ممكنا لعجلاتها أن تجتازالصخور
التي ضاقت حولها فغادروها ومضوا يصعدون خلفه ، وقد عادت الى
ذاكرة الرجال عشرات الثعابين تسعى حول الحافة ، صاعدة هابطة ،
تفح وهي تدور وتلتف .. ولكن الحافة الآن كانت خالية ، ولا أثر
للثعابين فيها ، وكانت قطعة الصاج القديمة التى غطى بها الشيخ
على فوهة البئر على الجث الضائعة ، مايزال جزء منها باقيا ، بينما
تأكل الجزء الآخر وتهرأ والتوى ، فتقدم أبشر وهم ينقلون أقدامهم
خلفه على الحصى بحذر ، وكأنما يخشون أن تخرج عشرات الثعابين
من ذاكرتهم وتسعى بين أقدامهم ! ..

ومد أبشر ذراعيه المفتولتين فأزاح قطعة الصاج جانبا واستدار
الى ايليا وسألها ان تتقدم وتلقى فى الفوهة بصراخها ، فلتصرخ على
نيكولا وتناديه بما اعتادت من قبل ، ان تناديه به .. فأقتربت ايليا
تجاه الحافة ومالت بجسدها ليصبح قمها موازيا للفوهة . بينما
أمسك بها أبشر من وسطها لتطمئن فى ميلها ، وأمسك باقى الرجال
به من وسطه ، وتأهبوا للبدء فصاح بها أبشر أصرخى الآن يا ايليا ،
من قلبك المتلهف على نيكولا ، القلق عليه ، أصرخى باسمه فى البئر
فاستجمعت ايليا قواها ووطدت قدميها على الحصى ، وصرخت باسم
نيكولا فى الفوهة .. لكن لم يخرج من قمها صوت .. فأوقفها أبشر
لثلتقط أنفاسها ، ثم عاودت الانحناء وأمسكها من وسطها وأمسك
الرجال به .. وصرخت ايليا باسم ابنيها ، فاندفع الاسم الى الفوهة ،

لحظة قصيرة جدا توازى عمرا بأكمله استغرقها اندفاع الصوت عبر الفوهة الى قاع البئر أمسك الجميع خلائها بأنفاسهم . منتظرين ان يتردد الصوت ويعود اليهم ، أو يموت في الصمت . . لكن الاسم ما كاد يحتاز الفوهة حتى بدأ يتردد صدها في المدى العميق الموصل الى القاع ثم يتصاعد اليهم سريعا متلاحقا وكأنه ألف أسم القيت في البئر فرقست الفرحة في قلوب الجميع ، بينما ايليا لم تتمالك نفسها وعادت الصباح بالأسم ، فكأنما الصدى هو نيكولا نفسه الذى تنادى عليه ، وقد أجاب نداءها .

وعاد صوتها يتردد متصاعدا اليهم بآلاف الاسماء من قاع البئر وأبشر يجذبها من وسطها ليهدى من انفعالها . . فلم تتمالك نفسها واحتضنته . . واخذت تسأل ملهوفة عما يمكن عمله من بعد . . فأحنى أبشر وجهه وهو يسحب جسده الاسمر من بين ذراعيها اللؤلؤيتين وقال ان نيكولا موجود الآن في مكان ما من هذه الصحراء الشاسعة . . وليس أمامهم من سبيل سوى البحث عنه .

وفتحت الصحراء قلبها لهذين المونين . . الاسمر والاشقر معا ، أبشر وايليا . . كما فتحت من قبل لايسا ونيكولا ، كأنما لا يتطرق اليأس الى قلب المكان ابدًا ، فيعاود بين الحين والحين نفس التجربة مع البشر ، ويكررها ! .

وانفتح الطريق أمام العربة الجيب التى تحملهما سهلا وميسرا الى الشيخ شاذلى . . لعل نيكولا قد لجأ بعد فعلته المشؤمة الى ضريح ذلك المؤمن الميت من سبعمائة سنة يغسل فى بئر المعجزة هذه ، همومه الغامضة الدافينة التى لم تستطع حتى ايليا ، أن تسبر غوره اليها . . لكن الضريح كانت خالية الا من مئات الصقور تحوم على الهضبات كأنها تحتفل بموسمها السنوى ، ثم تنقض فتختطف بمخالبها من الارض بقايا الاحتفال الذى كان قائما وانفض برحيل الاتباع والمريدين والزوار ، من أقدام ماشية التضحية وأحشائها .

وكان العم جامع ذلك العجوز القديم الذى تجاوز بعمره عشرة أعوام بعد المائة . . ما يزال قابعا بطريقته المعتادة على فخذ ونصف كأنه مشرب ، ليرى بأذنيه ، بعد ان فقدت عيناه قدرتهما على الرؤية مواصلا ما يتشدد به على الناس ويفاخرهم بحراسته لمقام الشيخ العظيم الراحل فى تلك المتاهة اللامتناهية . . بينما هو فى الحقيقة يحتمى به . . !

ولم يكن لنيكولا فى المكان أثر .
ومرقت بهما السيارة فى دروب الصحراء عبر تلافيف الجبال ،
يطوفان بالمناجم المتناثرة على مسافات هائلة يسألان سائقى عرباتها
وقادة جمالها عن نيكولا ، فلا يحصلان اجابة شافية ، حتى الرعاة
فرسان الصحراء ، الذين يجوسون حفاة بين صخورها ورمالها شبرا
بشبر ، لم يسمعو بنيكولا ، أو يشاهدوه ، منذ آخر مرة استضافهم
فى الدرهبى وحملهم بالماء والخبز ؟

وفى الطريق كانت ايليا ، تستمد من الاجابات المؤسفة صلابة
وقوة ، فيمضى بها الخيال الثقيل بالحوادث وهى جالسة مستكينة
لتلك الطمأنينة الحارة الغامضة المنبعثة من أبشر ، فتشعر بروحها
تضطرب فى داخلها ويسيطر على قلبها يقين أشبه بالوحي ، انها
لو غاب نيكولا فسوف تواصل فى الصحراء ما بداه ، الا يكون ذلك
السحر النفاذ المبهم الذى سيطر على روح نيكولا فى الزمن القديم
وهو يتطلع فى عينى ايسا ، صنو هذا السحر النفاذ المبهم الذى
يسيطر على روحها الآن وهى تتطلع فى عينى أبشر . . ؟

ومدت ايليا فجأة اصابعها البيضاء الرخوة ، ومست بأطرافها
وجه أبشر الاسمر ، ومضت تتحسس بشرته الملساء فالتفت اليها .
وأعاد أبشر وجهه الى ما كان عليه مادا عينيه الى الطريق بعد
ان ربت بهما على وجه ايليا . . وجذبت بصره على البعد بقعة تتحرك
فمد عينيه تجاهها واطلقها فتبين أن البقعة رجل . . وكان قد أوقف
السيارة على حافة وادى الخريط الممتد لمسافات هائلة متراسة فيها
كثبان وراء كثبان من الرمال الناعمة . . فأدهشه أن يجوس فى هذه
الكثبان رجل . . وانتفض قلبه ومضى يدق بسرعة وأمسك بكتفى
ايليا وأشار لها بأصبعه تجاه البقعة المتحركة . . فمضت ايليا تدقق
البصر وتساءلت أيكون نيكولا هو الضائع فى تلك الكثبان الهائلة ،
فقفز أبشر من السيارة وصاح بها أن تتبعه ليتحققا . .

ومضى يسبقها قافزا حافة الوادى وهى تهول خلفه منتزعة أقدامها
الدقيقة التى تغوص فى الرمال حتى اقتربا اقترابا كافيا من الرجل
يسمح لهما بتبين ملامحه ، فتوقفا مبهورين عاجزين عن التقدم خطوة
وعلى مرمى حجر أمامهما كان عبد ربه كريشاب ذاهلا عما حوله . .
يجذب جبال شبابه المطروحة على الرمال غائصة فيها فتتجمع
الشباك وتدنو منه حتى تصبح ملء يديه جميعها فيدقق فيها النظر

ويجدها خالية تماما من السمك فيلوى وجهه متضايقا ويقذف بها بعيدا عنه ثم يقعى على الرمل باكيا لحظة ٠٠ ينهض بعدها فيجمع الشباك من جديد ويفردها وينفضها كأنه يخلصها من القواقع والفضلات وأعشاب البحر الشائكة ، ثم يطرح بها على الرمال من جديد املا أن تعوضه بالسمك تلك المرة عن المرة السابقة ، وانتفض قلب ايليا بينما ادار أبشر وجهه الملون بالفجيرة ومضى يهزه اسفا ، فذلك ما انتهى اليه اذن صديقهما القديم .



فصل ختامى

استيقظ نيكولا وفتح عينيه فلم ير غير الظلام مطبقا حوله . .
واكتشف أن عظامه قد تيبست حينما حاول تحريك قدميه للنهوض
وقد سرت فيهما برودة نفاذة ، فمضى يدهلكنهما بيديه المتيبستين
أيضا ، حتى أصبح الأمر بالنسبة له عذابا لا يحتمل . . فترك ساقيه
على حالهما واعتدل بنصفه الأعلى فأسنده قائما وأرخى ذراعيه
بجواره وهمد .

تلك هى لحظتك التى طالما حلمت بها يا نيكولا قادمة . .
وما عليك سوى انتظارها صابرا وهادئا فلا تزعج قدميها بأية حركة
لقد بدأ الأمر بقدميك وساقيك وكفيك وسوف يسرى التيبس فى
ذراعيك ويتسلل منهما عبر جسدك كله فيصبح متيبسا . . وتذوب
كما حلمت فى تلك الطبيعة التى سحرتك بروحها الجذابة والوحشية
عن الحضرة الذى قدمت منه .

تتبيس وتصبح صخرة من الصخور فى قلب الدرهيىب العظيم
الذى أعطيته قلبك وعقلك وروحك .
تلك معجزة قديمة لابد وأنها الآن تتكرر معك ، ألم يحدث

ذلك للجد القديم الأول لقبائل البجاة ، كوكا لوانكا ، حين أعطى عقله وقلبه وروحه جميعها لتلك المغارة المرتفعة فوق الجبل المقدس المرحوم علبة ، حتى أصبح صخرة ، تنبت حولها أشجار مقدسة تطاول السحب تمرح خلالها تلك الكباش البيضاء الشبيهة بالأرواح وسط المياه العذبة التي تتفجر من الصخور مناسبة حول تلك الروح الصخرية المقدسة ؟

تلك هي معجزة الانتماء الحقيقي يا نيكولا ، وسوف تتكرر معك .

كان قد عاد قلق الضمير ، معذب الروح بعد أن تخلص من ثمرة خطيئته فما وجد في نفسه القدرة على مواجهة أحد فمضى الى الدرهيبي ملاذه وملجأه ، وهبط المغارة حتى وصل الى فتحة الممرات فعبورها . . وكان يعرف جيدا ملاذه وملجأه .

هنا في سراديب الطبقة القديمة العليا ، حيث توقف البشر القدامى عن البحث بعد أن انتزعوا من الصخر خامته ، توجد الممرات المهجورة الملتوية داخل الجبل كشرابين يملؤها الهباء .

هنا يمكنك أن تختبئ يا نيكولا بكل ما تحمل روحك من عذاب وتقع يا نيكولا في كهف صغير مغلق ، كطفل في رحم . . أو دودة في شرنقة . . ولن تكون بحاجة الى الطعام ولديك في داخلك من الألم ما يكفي لتمضغه !

وتوقف العمل في الدرهيبي أياما ثلاثة ، أمضاها نيكولا دون طعام ، مختبئا في شرنقته الصخرية داخل كهف الممرات العليا القديم في بطن الجبل . . وفي الليل حينما يضمن اضمحلال الحركة وسكونها في الباحة حيث الكباين ومخيمات العمال ، يتسرب نيكولا من مخبئه وينحدر زاحفا عبر الممرات الحارة والممرات الباردة متلصقا أسفل الصخور وهو يجبو على كوعيه وركبتيه باحثا عن زمزمة ماء خلفها وراءه أحد العمال في الكهوف البيضاء المظلمة بالأخضر الشديد القتامة . . في ذلك المناخ الثلجي حيث وقفت يا نيكولا مئات المرات ورسمت للرجال ممرات أقدامهم في جوف الدرهيبي العظيم ، وجعلتهم يلمسون قلبه الداخلي بأيديهم الخشنة ، يزحف نيكولا على يديه وركبتيه متلصقا نقطة ماء . . ويتجول قليلا في مملكته على عمق ألف متر من ذلك المدخل المسحور . . وعلى امتداد عشرات الكيلومترات في تلك السرايب التي تتوسدها قضبان حديدية

تسير عليها عربات نقل الحجر والحام ، رسمها نيكولا كلها وخطتها بعقله الخبير .

ويلحق حلقة الجاف بلسانه الجاف ويبرطم ولكنه ركيكه سبايا عربيا وهو يصعد متسلقا كقرود عجوز على سلال الممرات العمودية عائدا الى كهفه المختار .. رحمه وشرنقته !

وفى اليوم الرابع سمع نيكولا دبيب الأقدام تهبط السلال الحديدية وتملأ السراذيب والممرات فاستولى عليه شعور بالفزع .
ها هم يعاودون العمل بدونه ، ويملاؤن الدرهب من جديد بالضجة .. يواصلون ما بدأته يانيكولا كأن لم تكن ، وسيضى زمن تصبح بعده نسيا منسيا .. انهم يعوقون الآن حلمك الأخير ، وإن يمكنك أبدا وسط تلك الضجة أن تتجدد أو تتحول ، أو تصبح صخرة مقدسة داخل الدرهب كما فعل كوكا لوانكا من قبل .

وصرخ نيكولا باسم ايليا ، مرة ومرتين ، كأنما يستغيث بها أن توقفهم .. فلم توقفهم ايليا .. استمر الدق ، واستمر الحفر ، بينما كانت ايليا تجوس فى الممرات تتابع صوت نيكولا ، باحثه عنه ، حتى وصلت الى السراذيب القديمة العليا .. ووجدت نفسها تدور حول السنادات الخشبية التى ترفع صخرة ضخمة وتمنعها من السقوط .. ورأت نيكولا كطيف خرافى فاندفعت ناحيته ، لكن نيكولا كان يحملق فيها بفزع .. وحين دنت أصابعها المرتجفة من وجهه تراجع مرتعبا وقفز محاولا الافلات ، فضربت قدمه السنادة الخشبية الرئيسية فانزلقت .. وانهارت الصخرة .

لقد صرخت ايليا وهى ترى الصخرة تنطبق على باب الكهف وتحبسها بداخله .. وأخذت تهيش الصخر فى محبسها المظلم بأظافرها الجذابة الملونة .. بينما صرختها تتسرب عبر السراذيب وتتردد فيها .

حتى بعد أن امتلأ حلقتها بتراب الانهيار ، وكفت عن هبش الصخور وبدأت تهيش فى عنقها الجميل بأظافرها الجميلة ، قبل أن تسكن حركتها . كانت الصخرة ماتزال تتردد فيسمعها نيكولا خلال هروائته المذعورة فى السراذيب ، كأنها تطارده لتمسك به وتعيده الى ايليا .. وكأنما الالم المنعم واليأس والدهشة فى تلك الصخرة المفجوعة تعاتبه وتدعوه للبقاء معها .. كأنها تلوح له بعالم مسحور هما كفيلان بخلقه فى تلك الصخور الصماء ، ليعيشاه معا جنباً الى

جنب كما كان دائما .. رجل وابنته .. أو رجل وأمه أو رجل وامرأته المعشوقة والمفضلة .

لقد ظلت ايليا تنتظره داخل صخورها المظلمة فى سراديب الجبل الخفية أياما وأسابيع طويلة ، لعل حينه يدفعه ويعود به اليها .. لكنه كان محمومًا مقرورا يتفصد عرقا تلجيا على سريره الحديدى ويهذى بكلام غريب غير مفهوم .. فدثروه بأغطية كثيرة تعوق حركته ، ومنعوه من الهبوط الى السراديب .. فألهب ذلك غضب ايليا .. وكان غضبها ناريا وعاصفا ، فأطلقت روحها تبحث عنه ، تلك الروح العاتية التى أخذت تتخبط فى سقوف الاندهاليز والممرات حتى استطاعت أن تثقب جدران الدرهييب وتخرق طبقاته طبقة بعد طبقة ، وانفلتت من سطحه الخارجى الشاهق الارتفاع .. ثم ذابت فى الفضاء اللامتناهى ، حيث لم يعد بإمكان أحد أن يعثر عليها .

وبعد ذلك بدأ غضبها يتجلى ويثمر ، فبدأ السيل ينهمر مهولا من الثقوب التى صنعتها ، فيض من الماء يكتسح ويفرق فيملا السراديب والممرات .. ويجعل مستحيلا على الرجال أن يدخلوا قلب الدرهييب ، أو يواصلوا التعدين فيه .
فأين لهؤلاء الهاربين جميعا رباط دموى كهذا يمنعهم من الفرار ؟

ويبصق نيكولا من فمه ترابا صحراويا حملته الريح وهو يتأمل الفناء المخرب والمهجور أمام البيوت الخشبية حيث كانوا يروحون ويجيئون ، يعملون ويأكلون ويلعبون الورق ويشربون صاحبين أو شاكين همومهم .

لقد أخرجوا جميعا محاسنهم ومبازلهم وقدموها على تراب هذا الجبل قرايين فطنة وخلاعة .. فما أغباهم حين يتركونه ويفرون .. مخلفين وراءهم نيكولا وحده ، لينشئ على ذلك الجبل المتفرد فى متاهة الصحراء صلبان عذابه وتكفيره ١٩٠٠!

هكذا يتوجع نيكولا وهو يلوى رقبتة ويزيح العرق المترب الذى ينهال غزيرا من جسده العارى المترب بكفه الكبيرة المتربة فيصبح التراب ملء مسامه جميعا .. بينما الشمس تصبغ الفناء الحالى أمام البيوت الخشبية الخالية ، فيبدو التراب والرمل رماد احتراق صخور تلك الباحة ، بهذا الضوء النارى ، فيصرخ نيكولا ،

آه يا ايليا الحبيبة .. ليتنى أعطتك وتركك نفسى لصرختك الواعدة
تعود بى اليك .. فنبقى دائما معا !

وحين تختفى الشمس فى الغرب ، ويزحف اللون الرمادى
كثيفا على أصفر الصحراء وأحمرها وأخضرها فيكسوها جميعا ..
ويتحول الحر اللافتح الى نسيم لافح ، ثم الى برد لافح .. وتصبح
الجبال أشباحا خرافية متضائلة ووهمية فى ذلك المدى اللانهائى ..
تنعذر الرؤية على نيكولا ، فيدلف الى بيته الخشبي ويجرع من
زجاجة السبرتو الأحمر جرعة تشعل الضوء فى داخله ، ويعود
ببطانية يلتف بها .

ثم يقبع مستندا بظهره الى صخور الدرهيب التى بدأت فى
التلجج ، حتى يظهر فى شرق السماء كوكب المريخ باحمراره القرنفل
الخفيف مطلا فوق جزيرة العرب .. ويبدأ المشتري يتأرجح بعيدا
فوق الصحراء الكبرى .. فيصبح عقل نيكولا فى الملكوت .





قالوا عن فساد الأمكنة

- رجاء النقاش
- يوسف الشاروني
- أبو المعاطي أبو النجا
- أقبال بركة
- علاء الديب
- نبيل فرج
- محمد جبريل
- علي شلمش
- غالب هلسا
- د . مجاهد عبد المنعم مجاهد

رجاء النقاش

الوجه الذى أود أن يخرج من دائرة الظل والصمت فى الحياة الادبية العربية كلها هو « صبرى موسى » فروايته الجديدة « فساد الامكنة » تكشف عن موهبة فنية لامعة ، وتؤكد أنه يستطيع ولاشك أن يقدم شيئا هاما فى ميدان الرواية العربية لو أعطى لهذا الفن وقتنا كافيا وجهدا أكبر .

لقد ظل « صبرى موسى » قلما حائرا بين الوان من الكتابات الصحفية السريعة لمدة سنوات طويلة ، كما كان من أكثر من عرفتهم من الادباء الشبان حيرة وقلقا بين تجارب الحياة الواسعة المختلفة ، وكثيرا ما كنت اتصور أن حبه للحياة ومغامراته فى ميادينها المتعددة سوف تقضى عليه وتهلك موهبته ، ولكن يبدو أنه استقر أخيرا ووجد نفسه فى فن الرواية ، ولو أنه واصل طريقه الفنى بجدية واهتمام فلسوف يحقق ولاشك شيئا بارزا له قيمة محسوسة فى هذا الميدان .

اول ما يلتفت النظر فى هذه الرواية هو أنها تدور فى جو جديد بكر لم يلتفت اليه فنان من قبل • ان موضوع الرواية غير تقليدى ، وهذه نقطة اساسية يجب أن ننتبه اليها حياتنا الادبية ، فالرواية المصرية والعربية عموما تدور حول الحياة فى المدينة أو الحياة فى القرية ثم لا تلتفت الى أبعد من ذلك ، وهذا خطأ وقصور فى

الرؤية ، فمصر ليست مجموعة من المدن أو مجموعة من القرى ، ان هناك بيئات انسانية واجتماعية أخرى ، لو انتبه اليها الفنان لاكتشف فيها الكثير من المادة الانسانية الجديدة الخصبة ، واذا نظرنا الى الادب الغربى الذى يعتبر نموذجا ادبيا متقدما بالنسبة لنا فاننا سوف نجد أماننا فنانين كبارا قد تجاوزوا الحدود التقليدية للفن ، وبذلك استطاعوا أن يجددوا أدبهم وأن يضيفوا اليه الكثير من التجارب الفريدة غير المألوفة ، وهذا سر من اسرار بقائهم وخلودهم وتأثيرهم على الناس . . هناك مثلا « جوزيف كونراد ١٨٥٧ - ١٩٢٤ » الروائى الانجليزى الكبير . . لقد ترك هذا الروائى حياة المدن والقرى ليصور حياة « البحارة » . . وحياة الجزر البعيدة النائية ، واستطاع من خلال هذا الميدان الجيد أن يقدم ألوانا رائعة من التجارب الانسانية ، ونفس التجربة قام بها « هرمان ملفيل ١٨١٩ - ١٨٩١ » الاديب الامريكى الكبير ، مؤلف الرواية ، بل السيفونية المشهورة « موبى ديك » أو « الحوت » ، لقد اعتمد هو الآخر على حياة « البحارة » وتصوير المناطق النائية ، بعد أن خاض بنفسه تجارب عديدة فى هذا الميدان ، وهناك عشرات النماذج الاخرى من الادباء العالميين الذين كسروا الحواجز التقليدية ، وبحثوا عن عوالم جديدة بكر ليستمدوا منها تجاربهم الانسانية والفنية .

بهذه الفكرة خرج « صبرى موسى » من المدينة يسعى ، قضى عاما كاملا فى جبل « الدرهب » فى الصحراء الشرقية قرب حدود السودان ، من خلال حياته فى هذا الجبل ومعاشرته لمن يعيشون حوله من الجماعات البشرية استطاع أن يكتب روايته الجديدة الجميلة . . لقد كسر هذا الفنان هو الآخر الحواجز التقليدية لبحث عن شئ جديد وجو جديد وطعم جديد واستطاع منذ الصفحات الاولى لروايته أن ينقلنا الى هذا الجو ويفتح شهيتنا لمعرفة أسرار وخفاياه ، وقد نجح الفنان تماما فى هذا عبر جوانب روايته ، فالدخشة والاحساس بالعالم الجديد يسيطران علينا خلال الرواية وبالإضافة للهيكال الرئيسى لهذه الرواية الجديدة الممتعة ، الذى يحتوى ماظمه من أحداث جذابة تتميز بالعنف والوحشية والتدفق . . فنحن نجد فى هذه الرواية أكثر من قيمة فنية وفكرية :

ففيها قدرة على التركيز والبعد عن الغضفظة والثرثرة ، وهذا التركيز هو سر أساسى من اسرار الفن الحديث ، فعصرنا لايقبل التطويل والافاضة والجرى وراء التفاصيل ، أنه عصر التركيز والتكثيف .
ان الكاتب يصور لنا بصدق ووعى ومعرفة حياة الصحراء القاسية العنيفة ، بما فيها من تقاليد وعذاب واحلام وواقع اجتماعى غريب .

وفى الرواية تصوير نادر وجديد لانحلال الاوستقراطية القديمة التى قضت عليها ثورة ٢٣ يوليو ، وفيها تصوير لانعدام الاحساس لدى هذه الارستقراطية بأى نوع من القيم الانسانية او الاعتبارات الاخلاقية ، لقد كانت هذه الارستقراطية، وعلى راسها الملك ، تستبيح أى شئ فى أى وقت ومع أى انسان ، لاتخشى ولا تحسب حسابا لمصائر البشر .

وترسم الرواية صورة أخرى للاستغلال الاقتصادي الاجنبى الذى كان يترصص بأى، جهد يبذله الانسان فى بلادنا ، فقد كان الانسان يمرق ويتعب ويشق الصخور مقابل لقيمات قليلة ، بينما كان الاجانب والمتصرون وكبار التجار يجمعون ثرواتهم الضخمة من هذا الجهد وهذا العرق الغزير .

ان حركة الرواية تقوم على « الاغتصاب » . . اغتصاب الطبيعة . . اغتصاب الصحراء والبحر والجبل . . ثم اغتصاب الانسان قبل أى شئ آخر . وتكشف الرواية أيضا وبصورة رائعة عما يملكه الانسان البسيط الذى يعيش فى تلك الصحراء القاسية ، من رصيد الصلابة والقوة النفسية . هذه بعض ملامح اللوحة الجميلة التى رسمها « صبرى موسى » فى روايته « فساد الامكنة » . . تلك الرواية الجديدة الجريئة التى تتفجر بالمتعة والجمال والحياة ، بل وتتفجر بالصور الوحشية الفريدة .

على أن هذه الرواية تثير مع ذلك عدة ملاحظات سلبية . . منها أن الاسلوب الصحفى يتغلب على « صبرى موسى » أحيانا لكثرة ماستخدم الكاتب هذا الاسلوب الصحفى واعتمد عليه . . فلقد كان باستطاعة الكاتب أن يتأمل ونتأمل معه نفسية « أيسا » الاعرابى الذى سرق الذهب من الجبل ليعرضه على اجداده الذين تقول عنهم الاسطورة أنهم يسكنون الصحراء ، هذا المشهد الرائع الجميل لم يستغرق من الكاتب الا صفحات قليلة مألها بالوصف الخارجى السريع ، بينما كان هذا المشهد جديرا بأن يتوقف أمامه ليقدم ما يحتويه من صور وأوهام وأسرار . . وهناك مشهد رائع اخر كان كفيلا بأن يكون لوحة من أجمل لوحات الأدب العربى على الاطلاق، هو مشهد الزواج بين الاعرابى وعروس البحر ، هذا المشهد القاسى المفجع الرهيب الذى فرضه الملك فى نزوة من نزواته الوحشية على الاعرابى ليستمتع ويتسلل . . هذا المشهد أيضا تم تصويره بسرعة ، كان الكاتب يستطيع أن يقدم لنا من خلال هذا المشهد صورة نادرة المثال فى الادب العربى وعلى كل فان رواية « فساد الامكنة » تقدم لنا موهبة لا شك فيها ، وهى رواية ممتازة وفريدة رغم كل الملاحظات .

يوسف الشارونى

« فساد الامكنة » هي العمل الروائى الاول لصبرى موسى ، وكان من قبل قد نشر خمس مجموعات قصصية وكتابين مما يمدان من أدب الرحلات ، احدهما « فى البحيرات » والآخر « فى الصحراء » (١٩٦٤) ، وهذا الكتاب الاخير وثيق الصلة بروايتنا لانه الوجه التسجيلي لها ، كما أن روايتنا هي المحاولة الدرامية لهذه الرحلة .

واعتقد أن صبرى موسى قد بذل مجهودا فنيا واضحا لكى يتحول من كتابة القصة القصيرة الى كتابة الرواية ، ذلك لانه من الملاحظ أن أسلوب القصة القصيرة عند صبرى موسى يتسم بتتابع الجمل القصيرة وتزاحم ما تتضمنه من أحداث ، حتى أنه يكتب فى بضعة أسطر ما يكتبه قصاص آخر فى عشرات بل ربما مئات الصفحات (انظر : يوسف الشارونى ، دارسا فى الرواية والقصة القصيرة ، القاهرة ، مكتبة الانجلو ، ص ١٩٥) وهذا عكس المطلوب تماما عند كتابة الرواية .

كذلك فإن معظم شخصياته كانت موصوفة من الخارج دون تحليل داخلى ، فقد كان يتجنب التعرض لانفعالات شخصياته من الداخل ، وهذا مختلف تماما عما نجده فى روايتنا حيث الاهتمام بالعالم الداخلى للشخصيات لا يقل أبدا عن الاهتمام بالعالم الخارجى .

ومعنى هذا ان تحولاً فنياً قد طرأ على كاتبنا بحيث أخرجه عن قالب القصة القصيرة جداً - والتي تقارب النادرة - الى العمل الروائي الفسيفسائي الذى يحرص على تقديم الشخصيات بأكثر من بعد وأكثر من زاوية . هذه هي المقارنة الأولى بين رواية « فساد الأمكنة » - آخر كتابات صبرى موسى وأول رواياته - وبين أعماله القصصية السابقة . أما المقارنة الثانية فهي بين هذا العمل الروائي وما سبق أن كتبه من أدب رحلات .

فلاشك أن كتاب « فى الصحراء » هو الجانب التسجيلي - كما قلنا - لهذه الرواية ، ولذلك الكتاب علاقة وثيقة بهذه الرواية من ناحيتين رئيسيتين : أولهما أننا يمكن أن نتتبع بعض الأحداث والوصاف فى كلا الكتابين . لعل أبرزها حادث البشر ، ويكاد يكون مكتوباً بطريقة واحدة فى الكتابين ، كل ما هنالك أن الرواية قد حذفنا بعض الاستطرادات التى قد تسمى أكثر مما تفيد العمل الفنى ، لأن من شأنها تشتيت ذهن المتلقى . ومن الطبيعى أيضاً أن نجد تكراراً لاسماء الأماكن - حيث أن مسرح الرحلة والرواية واحد - مثل مرسى علم وبرائيس وجبل الدرهيب الذى تدور حوله أحداث روايتنا . كذلك نجد تكراراً لذكر الجمال التى تموت فى الصحراء وهى سائرة أو جالسة . وتجربة التيه فى الصحراء التى عاناها راوى الرحلة وهو ذاهب لعضود أحد أفراح الصحراء قد عاناها نيكولا بطل روايتنا وهو يقتفى أثر صديقه البدوى إيسا عندما اختفى بسبببكة الذهب التى استخلصوها بعد عامين من العمل الشاق .

أما الناحية الثانية فهي أنه فى مثل هذه الأعمال القصصية التى يكون مسرحها بيئات غير معروفة أو مطروقة لدى معظم المتلقين ، يكون للجانب التسجيلي اغراء شديد على الكاتب حرصاً منه على أن يدهش القارئ كل لحظة بما يعرفه هو ولا يعرفه قارئه وتكون عملية التضحية بهذه المعلومات عملية قاسية وأحياناً مؤلمة .

ويصبح الكاتب ضحية صراع الجانبين التسجيلي والحركي أو بين الوصف والدراما .

ولاشك أن نشر كتاب « فى الصحراء » قبل رواية « فساد الأمكنة » قد هون على صبرى موسى هذه المهمة الشاقة الى حد بعيد ، فهو مطمئن الى ان كثيراً مما لم يذكره فى « فساد الأمكنة » لأسباب فنية قد سبق أن أطلع قراءه عليه فى رحلته فى الصحراء .

ورغم ذلك فإن الصراع بين الجانبين ، التسجيلي والحركي ، كانت له بعض الجيوب - كما يقولون بلغة الحرب - فى عملنا . وقد بدأ هذا واضحاً عند

استخدام الزمنين المضارع حيناً والماضى حيناً • فعند استخدام المضارع نحس على الفور اننا أمام وصف عام أكثر مما نحن بسبيل تتبع أحداث معينة ، فإذا استخدم الماضى دبب الحركة من جديد وعدنا نتابع أحداث العمل القصصى •

ومعنى هذا ان رحلة صبرى موسى من أدب الرحلات الى الادب الروائى تمت بانتقاله من استخدامه ضمير المتكلم والزمن الحاضر الى استخدامه ضميرى الغائب والمخاطب والزمن الماضى •• كما أن أدب الرحلات بدوره كان جسر العبور من كتابة القصة القصيرة الى كتابته للقصة الروائية ، فهو الذى شجعه على أن يكون ذا نفس أطول وهو الذى دربه على استخدام الجمل الأكثر طولاً والأقل تراخياً بالأحداث •

تبدأ روايتنا من حيث تنتهى وتنتهى من حيث تبدأ • فنظرة الكاتب الى الكون - ببعديه الزمانى والمكانى - نظرة كلية •• أنه يرى الاحداث كلها فى لحظة واحدة سواء وقعت فى الماضى أو الحاضر أو تقع فى المستقبل ومن هنا اتخذ فى نظـرته زاوية الطائر المخلق عالياً الذى يرى الاشياء فى مجملها وتفاصيلها معا ، كما يتضح ذلك فى أول سطور الرواية • ومن هنا كان استخدام الزمنين الماضى والحاضر مع تسرب صوت النبوءة التى تلمح ولا تفصح فتؤدى وظيفتها الفنية فى تشويق القارئ لمعرفة تفاصيل المأساة المرتقبة • كذلك يقدم لنا التفاصيل شخصية بطلة فى طفولتها ونضجها وشيخوختها فى وقت واحد « فقد كان كل شيء يحدث أمام عينيه جديداً يتلقاه بدهشة طفل ، لدرجة أنه لم يتعلم أبداً من النجارب » •• وتوحى لنا المقدمة بجو اسطورى أشبه بجو اسطورة اوديب حين تنبأت له كاهنة دلف بأنه سيقـتل أباه ويتزوج أمه ، لكن نيكولا - بدلا من ذلك وبسبب احساسه الضخم بالذنب والمسئولية معا - خيل اليه أنه ضائع ابنته فى باحة الجبل على وسادة من صخره وأولدها طفلا ثم سرقه منها وهى نائمة ليطعم الذئب والضبع •

فإذا كان الفصل الثالث بدأت معالم نيكولا تتضح ، فإذا هو أشبه بيوليسيس فى رحلة عودته من طروادة حين تحاول الساحرة كيركيه ان تستبقـيه وأن تغريه بالعدول عن مواصلة رحلته الى حيث زوجته بنيلوب تنتظره فى وطنه ايثالا ، ذلك أن عشيقته ايليا - ثم زوجته فيما بعد - تحاول أن تستبقـيه فى وطنها ايطاليا ليدير مقهى والدها ، بل انها تعرضه على ان يقتل والدها ليخلو لهما الجو والمقهى ، بل وصـلـت محاولات ارغامه على الرضوخ لرغباتها ان انجبـت منه طفلة هى ايليا الصغرى لتستبقـيه أو - على حد قولها - لتسمره فى الارض وتثقل أجنته عن الطيران • لكن نيكولا - مثله مثل يوليسيس - انتصر على هذه العقبة وترك وراءه زوجته وابنته ملبيا ذلك النداء الغامض نحو المجهول الذى ينجذب اليه أمثاله السابقون واللاحقون - مثل كولومبوس والسندباد - فى سبيل المغامرة وارتياك آفاق جديدة ، والحصول

على لذة الإكتشاف والدهشة المستمرة ، لأنها نفوس لا تعرف استقرارا ولا هدوءا .

وحين وصل نيكولا إلى الصحراء الشرقية بدأ عمله بالنجم . لكن موقفه يختلف وهدفه يختلف عن موقف الآخرين وهدفهم « كانوا جميعا يحملون بالذهب ، بينما كان نيكولا مبهورا يحلم بالنعرة في بحر التجوال » .

وتنقسم الرواية قسمين رئيسيين : الأول وهو أقصرهما ويرى قصة منجم الذهب وما انتهى اليه من فشل بعد أن اختفى إيسا بسبيكة الذهب ليطلع عليها جده المعبود - كوكا لوانكا - الذي تحول جسمه بفعل الزمن وكثرة العبادة إلى صخرة .
فإذا كان الفصل الخامس فأننا نبدأ المرحلة الثانية . وهي المرحلة الأطول والتي تتطور منها الأحداث نحو الفاجعة أو المأساة . وأحداث هذه المرحلة تتبلور حول منجم جديد هو منجم التلك بجبل الدرهب .

وهكذا نجد أن صراع الإنسان مع الطبيعة يشكل جانباً هاماً من جوانب هذه الرواية . فنيكولا ورجاله يصارعون الجبل لكي يخرج لهم ما يخفيه في أحشائه . . . وما هو ذا الإنسان يحاول أن يستخرج الماء من جوف هذه البيئة الصحراوية فتقف له الثعابين بالرصاص . وهكذا ينتصر الإنسان مرة وينهزم مرة أخرى في هذا الصراع المستمر . ويتجلى هذا الصراع مرة أخرى في روايتنا ممثلاً في صراع صيادي البحر الأحمر مع أسماكها . وكيف أن غرائس البحر أو جنياته كانت تترعب بأقارب عبد ربه كريشام حتى بات هنالك قار بينه وبين هذه المخدوقات البحرية . ولهذا شد ما فرح عندما قادت إليه الأقدار إحدى غرائس البحر طافية فوق المياه بلا حراك ، لكنه أبى إلا أن يحملها معه إلى البر معلناً أنه هو الذي اصطادها .

هنا يتكشف لنا جانب آخر من الجوانب الأساسية لهذه الرواية هو - كما نبه إليه الدكتور عادل سلامة في مقابلة إذاعية - تلاقى الإضداد . فعندما وصل عبد ربه كريشام مع عروسه البحرية إلى البر كان الملك وحاشيته - الذين اتوا إلى هذا المكان للصيد والبهو - قد انتشروا على الشاطئ ، وتهاووا لرؤية شيء يثير غرائزهم . لهذا ما لبثوا أن رحبوا بالاحتفال بزواج عبد ربه كريشام على عروسه البحرية الميتة . وهكذا التقت الحياة في قدسها - ممثلة في شقيق الجنس - بالفتاة ممثلة في المات . . . ومن قبل كان الجنس واثوت قد التفتيا عندما أشار الكاتب إلى وادي العجمال حيث تشاهد بقايا الإبل التي ماتت من علف الجماع . فالجنس يلتقي بالموت بل أنه يلبده كما يلد الحياة . ♦

ومن قبل تلاقى الإضداد في شخصية نيكولا ذلك السكير الذي لا يكاد يفيق ، حتى إذا لم يجد ما يبعه لجأ إلى زجاجة السبريتو الأحمر ، وفي الوقت نفسه فإن نيكولا

هو ذلك المغامر الذى أقبل الى الصحراء فانقلب راهبا متعبدا لها ، طاقته فوق الاحتمال فوق طاقة الآخرين ، لذلك ذهب كل الآخرين وظل هو وحده مصرا على البقاء . ففي الوقت الذى نستمتع فيه الى كاتبنا يحدثنا عن نزوات بطله النسائية ، اذا به ينهنا الى ان اسمه اسم قديس قديم هو نيكولا . والمنجم بالنسبة لنيكولا كان مصدر الحياة ومصدر الموت معا . أنه مصدر الحياة ليس فقط لأنه يستخرج منه الخامة التى تبرر عمله وعمل الآخرين فى هذه المنطقة ، بل انه مصدر الحياة بالمعنى الجنسى هنا ايضا . فعملية اختراقه كانت أشبه بالعملية الجنسية كما تشير الى ذلك صراحة أكثر من جملة فى الرواية . كما كان المنجم مصدر الموت حين انهارت سراديبه على أبنته إيليا الصغرى وانطبق باب الكهف عليها واخذت تهيش الصخور فى محبسها المظلم الى ان امتلأ حلقها بتراب الانهيار .

وثمة صراع من لون ثالث غير صراع الانسان والطبيعة وصراع الحياة والموت ، هو صراع الخير والشر . فهل من الخير ان نترك الجبل كما اوجدته الطبيعة وكما يريد البدو أن يبقى ، أم أن نحفره لنستخرج من باطنه كنوزه كما كان رأى نيكولا والرجال المقبلين معه من الوادى . ولعل أهم صراع بين الخير والشر يتمثل فى فكرة الشرف عند كل من ايسا وعبد ربه كرىشاب ونيكولا . لقد اخذ ايسا الذهب ليطلع عليه معبودة ، فهل هذا عمل غير اخلاقي كما اعتقد ذلك الباشا ورجال الشركة بحيث يستحق عليه ايسا الحبس والمقاب ، أم هو عمل اخلاقي كما رأى ايسا ؟

هكذا تتلاقى الاضداد فى روايتنا : الجنس بالموت ، والانسان بالطبيعة ، والخير بالشر . أنه صراع يختلف عما تعودناه فى معظم ما نقرأه من روايات مصرية وعربية . حيث يدور الصراع بين الانسان والانسان فى المدينة والقرية ، ولعل الذى اتاح لهذا اللون الجديد من الصراع ان يبرز هو أن صبرى موسى خرج باحدائه وشخصياته من نطاق هذين المسرحين التقليديين ، الى حيث الرمال تمتد على مدى البحر ، وحيث تقف أمام الانسان قوى تتحدها ، ويتحداها كالجبال والشعابين وندرة الماء ، فهتوارى صراع الانسان مع أخيه الانسان وان كان يطل علينا من حين لآخر .

ترى ما الذى افسد الامكنة ؟ لعلها البقية الباقية من صراع الانسان مع الانسان والنسب تطارده حتى وهو فى هذا الخلاء المتسع الرحب ، ما أن تطأ قدمه حتى تفسد الامكنة ، مع ان ريح الصحراء العارمة حين تلمحه فانه لا يستطيع ان يدخر منها ملء قبضته .

أبو المعاطى أبو النجا

انتهز هذه الفرصة لأقول كلمة صغيرة عن عمل روائى أعتقد أنه يستحق الكثير من اهتمام النقاد - ولا أقول القراء - لانى على ثقة من أنه قد نال بالفعل اهتمامهم !

هذا العمل هو رواية « فساد الامكنة » • التى صدرت طبعتها الأولى فى شهر يوليو من عام ١٩٧٣ فى سلسلة الكتاب الذهبى •

كيف تكتب فى كلمات قليلة عن عمل اثار فى نفسك أعشق المشاعر •• ولا تزال صوره القوية لا تبحر مكانها فى خيالك وكأنك عشت بالفعل جزءا من حياتك فى ذلك الجزء من أرض الوطن !؟

ماذا تعرف عن جبل « الدرهب » الجاثم هناك فى صحراء مصر الشرقية قرب حدود السودان ؟ الشعور الذى أثاره الكاتب فى نفسى بقوة هو أن هذا الجزء من بلادى كان جزءا سليبا ، كان فى المنفى أو المجهول !

وأن الكاتب بهذه الرواية قد حرر هذا الجزء من أرض الوطن ، اعاد اليه الحياة والحرية ونعمة الوجود فى نفوس القراء !

أجل فالوطن تحيا من جديد بما يكتبه عنها أبناءها ، وهذه الرواية أعادت الـ

مصر جزءا كان ضائعا من أرضها . ان طموح الكاتب الانسانى فى هذه الرواية أقوى بكثير من طموحه الوطنى . فهو لا يكتب فقط عن مكان من نوع فريد وخاص بطبيعته وناسه من اماكن وطنه . ولكنه يكتب قصة لقاء غريب بين رجل اسمه « نيكولا » عجزت اوطان كثيرة . عجزت الزوجة والابناء - عن أن تمسك به ، رجل هارب من كل انتماء كأنه يبحث عن المجهول . ولكنه فى النهاية يلتقى بمكان تهرب منه الحياة ويهرب الناس . مكان صخرى ونارى معا كأنه المكان قبل أن توجد الحياة .. مكان يطفى على كل شىء ويحول الناس الى صخور .. الى مكان !

ان هذه الرواية تروى قصة هذا اللقاء الغريب بين الرجل والمكان !!

بين الرجل الذى ينتمى الى اوطان كثيرة فكانه ابن الانسانية كلها ، كأنه ادم ، يلتقى بالارض البكر قبل ان يترك عليها الانسان بصمات قدميه أو يديه !

ان شرارة هذا اللقاء تشتعل فتضىء فى صفحات عديدة الكثير من اسرار النفس وأسرار الحياة كيف أتكلم عما رأيته فى ضوء هذه الشرارة فى هذه السطور القليلة ؟!

أرجو أن أفعل ذلك فى مكان اخر ووقت اخر . وتكفينى الان هذه الكلمة .. كلمة حب متواضعة عن عمل كبير !

اقبال بركة

فى تلك الرواية «فساد الامكنة» يشعر القارىء ان هناك الكثير مما يود الكاتب ان يبوح به لقارئه .. وبالاسلوب المجدول بالفكر . المنقوع فى الاحساس المكتسب بالتساؤل ، والموشى بالدهشة .. استطاع صبرى موسى بجدارة ان يحتكر انتباهنا . وأن يتسلط على أنفاسنا طوال فترة القراءة .. ولعل السبب يكمن فى ذلك الاحساس بالدهشة . بالروعة، بالضالة الانسانية، بشساعة المكان ورهيبته وغموضه الذى نشارك فيه كلا من المؤلف وقديسه أو بطل روايته نيكولا العجوز .. ذلك الذى يقف هناك ولاوطن له .. عازيا ومصلوبا على الفراغ المتأجج الحرارة وحدة .. تلفحه ريع الصحراء العارمة بين حين وحين .. فلا يمكنه ان يدخر منها ملء قبضته .. »

فى ذلك الجبل القابع عند حدود السودان بالصحراء الشرقية أمضى الكاتب ليلة ربيعها منذ سنوات .. ثم عاد يراه مرة أخرى ذات ليلة صوفية بعد عامين .. واخيرا يتفرغ عاما كاملا للاقامة فى الصحراء حول ذلك الجبل ليفكر فى مادة روايته .. ثم يكتب الرواية بعد ذلك بعامين .. ومعنى ذلك ان الرواية ظلت تلج عليه أكثر من سبعة أعوام حتى استطاع أخيرا ان يخلص نفسه من أسارها وان يفرغها على الورق .. كما هى .. أو كما يود أن تكون .. فالمكان فى هذه الرواية أو الرؤية له طابع خاص وكيان مستقل .. انه شخصية أساسية . تلعب دورا هاما .. بل هى الشخصية الأساسية

التي تحرك مشيئته وعلى حسب واداه .. أو هواه .. ان كل الشخصيات الرئيسية والثانوية قد اصابها مس الدهريب .. نيكولا ، ماريو ، ايليا ، ايسا ، أبشر ، والباقون .. كلهم تلبستهم الصحراء ولفتهم في دنارها الاصفر الرمل ..
لقد هجر نيكولا بلده وزوجته ووهب حياته للصحراء او الجبل ليستخرج مادة التلك لكن ما استهوى نيكولا لم يكن التلك .. بل المكان ذاته ..

هذا هو نيكولا .. الانسان الذي يطارده كابوس .. ويؤرقه حلم ويعذبه .. انه الكاتب او الفنان وهو يتعرق من دنياواته ، ويتمرغ في احضان الالم ، ويشفق جلده ويجف وتتكرس ضلوعه .. انه يستحم في الأمسى .. ويقترن بالوحدة وبالعذاب ، لكنه أبدا لا يفكر في هجرة المكان الخالد الذي سعى اليه من أقصى أطراف الأرض .. الحقيقة .. ذلك هو هدفه الأبدى الذي لن يتنازل عنه الا حينما تتخلى عنه الحياة .

وهكذا يذوب نيكولا تماما في حلمه .. فتختلط الرؤى لديه .. ويصبح غير قادر على التفريق ما بين الوهم والواقع .. ما بين الحلم والحقيقة .. تصبح حياته كابوسا متصلا لا فكاك منه الا بلعب الشطرنج مع نفسه ، واحتساء الخمر الرخيص حيث يحدث اخيرا ذلك المزج الصوفي بينه وبين الدهريب .

وهكذا تنتهي قصة نيكولا .. أو قصة الحلم او الكابوس الذي عاش فيه ذلك المأساوي نيكولا .. « ذلك الذي كانت فاجئته في كثرة اندهاشه ، وكان كل شيء يحدث أمام عينيه جديدا يلقاه بفرحة الطفل ، لدرجة انه لم يتعلم أبدا من التجارب ! »
التجارب !

انها فعلا رؤيا من نوع خاص .. تتعرق فيها الأجساد برمال الصحراء ، وتزكم الانوف برائحة الوديان العميقة خلف جبال السكري وحماطة وابو غصون وسميوكى وزرقه النعام والابرق وجبل مصرار وغيرها .. ديكور جديد تماما للقصة المصرية .. حيث يمضى الكاتب ، كالمكتشف .. ينحسس المكان بأصابعه .. ويتشغم رائحته بأنفه ، ويتسلل بين وديانه وسراييه وكهوفه ، ويغوص بين اوراق تاريخه وحكايات قبائله واساطيرهم ، لتتعرف على تلك الاماكن المهجورة المنسية من مصر .. مصرنا التي لا نعرف منها الا المدن الكبرى وبعض القرى ... ونجهل أن من بين كنوزها العديدة كنوزا أخرى لم تكتشف بعد .

علاء الديب

هذه الرواية هي دون شك واحدة من المحاولات النادرة التي يقوم بها كاتب المرحلة الراهنة للخروج من أزمة الرواية ودوامه الموضوع المتكرر .
والزميل صبرى موسى ليس كاتباً شاباً ولكنه مارس الكتابة القصصية والكتابة الصحفية سنوات طويلة وخرج بتجربة عريضة فى ممارسة المهنة وفى مشاكل الحياة الصغيرة والكبيرة .

أنه واحد من جماعة كبيرة قدمت سنوات شبابها ورجولتها لخدمة صاحبة الجلالة ، فخسرت كثيراً .. وكسبت كثيراً ، واحد من تلك الجماعة التي تطرح حيلاتهم وأعمالهم قضية علاقة الفن بالصحافة وتأثير العمل الصحفى على الفنان المبدع .
تدور أحداث الرواية فى عالم بعيد .. عالم الصحراء ومناجم الذهب القديمة عند شاطئ البحر الأحمر . مكان الرواية واقعى جدا واسطورى جدا فى نفس الوقت .. تماماً مثل شخصيات الرواية ، التي تجمع فى براعة بين عناصر الواقع وملامح الاسطورة لكي تقدم تنابعا حديثاً مثيراً يجعل منها نسيجاً خاصاً وغنياً يواجه رتبة الحياة .. وموضوعات الفن القصصى والروائى التي أصبحت متكررة واسيره لجو المدينة أو لسطح القرية أو للرمز السياسى غير الناضج .
فى عالم المنتج يطرح المؤلف قضايا مختلفة الانواع والدلالات ، فهناك قضايا المجتمع والاستغلال .. كذلك هناك قضايا الخير والشر ، وصراع الانسان مع نفسه ومع

الطبيعة . هناك كذلك الغرائز الأسطورية . واساطير السحر والبحر . وخرافات الصحراء .

يجمع هذا كله الفكرة الأساسية التي تستمد منها الرواية عنوانها . الفساد ، ذلك العنصر الذي يكاد في هذا العمل أن يبرز فعلا كشيء له وجود وثقل يطرأ على المكان ويطرأ على النفس فيغير من شكلها وأحوالها . ويوجد لها وضعا ثالثا بين الموت والحياة . تلمس فكرة الفساد هذه بارزة في الرواية في المنجم وفي نيكولا بطل الرواية . كما تلمسها في الجو العام قرب نهاية العمل حيث تتحلل العلاقات وتصل الى حالة الفساد .

في الرواية التي أمامنا طموح شديد لكتابة رواية نسجيدة . كما انها تحاول أيضا الخروج الى جو الملاحم الأسطورية . وتجنح في بعض الأحيان الى الشكل التقليدي تستريح عنده وتزود منه . الا ان جميع هذه المحاولات تتجمع في النهاية لكي تقدم لنا نموذجا طيبا لرواية جريئة .

ولكن تبقى عملية الدمج هذه . واستعمال هذه الطرق المختلفة فرصة لمناقشة جدية حول هذه المحاولة .

أهم ما في الرواية هو الخروج على الموضوع التقليدي . وطرق موضوع جديد يشهد القارئ من البداية ويخرج به عن دائرة المؤلف ، ويتقدم الكاتب في هذا المجال كما كبيرا من المعلومات والطرائف عن حياة المناجم وحياة الصحراء يقدمها ، في براعة الكاتب الصحفي المتمكن من العرض والإثارة والتسجيل .

ثم يأتي التكوين المتشابه الذي تقدمه شخصيات الرواية . وفي المقدمة يأتي نيكولا بطل الرواية اليوناني المغامر الذي يبدع المؤلف في تقديمه وتحريكه وفي تعريضه للصراعات المختلفة مع « الباشا المصري » ومع الملك ، ومع ابنته . وقبل كل شيء مع المكان ومع نفسه .

ان شخصية نيكولا تكاد ان تكون هي محور العمل . وتأتي بعد ذلك مجموعة الشخصيات البدوية التي نشأت وارتبطت بالمكان . والتي أصبحت جزءا من الصحراء وجزءا بالنال من المأساة المعاصرة التي تجرى فوقها . قدم المؤلف هذه الشخصيات (ايسا ، وأبشر ، وأوشيك ، وعمل المنجم) وكأنهم الكورس الذي يدفع بوجوده المأساة في سبيلها القدر المحتوم .

وأخيرا تأتي المجموعة التالية أو الدخيلة وهي مجموعة الباشا والملك والأصدقاء التي تحرك بتصرفاتها وجودها المأساة . فهم العنصر الشرير الدخيل الذي يزرع الفساد في الأمكنة فينمو ويعم البر والبحر .

فى هذا الجو المشابك وفى تلك الصحراء القاتلة ومن كل تلك العناصر ، نحصل على رواية دسمة وغريبة ولكنها طموحة طموحا يفوق قدرتها على التنفيذ والتنظيم .

ان موضوع الرواية يوحى من البداية بأننا لنجا الى الطبيعة لكى تبلور صراعات الحياة . فقد يكون السبب الاساسى فى شعور الانسان المعاصر بالاضالة والثقافة هو انقطاع تلك الصلة التى تربطه بالطبيعة . انه يتحرك وسط العمارات والجوارى بين العربات والعجلات . . يهينه الزحام . ويفقده استقلاله تنابع الأنوار والاصوات والأصوات .

يخرج بنا المؤلف الى هذا العالم الخاص . عالم منجم الذهب والصحراء ، حتى تبدو قامة الانسان طويلة ممتدة تلقى بظلمة على الافق الرحب . . وحتى يستطيع أن يناقش أعماق هذا الكائن الخالد بعيدا عن تفاصيل حيات اليومية التى تتضافر فيها كل العوامل لكى تحولوه الى نرس صغير فى آله وحشية غريبة .

ان نفس هذا القصد هو الذى خلق فى الادب الحديث شخصية « زوربا » التى استطاعت ان تلقى نجاحا فريدا ، يدل على مدى حاجة الانسان للعودة الى الطبيعة وللتعامل معها لكى يكتسب من جديد احترامه لنفسه ومعرفة لجدوى حياته . . هذا الخيط هو الذى يربطنا « نيكولا » ، ذلك الحلم بأن تكون قادرين على العودة الى الطبيعة الام قادرين على الدخول منها فى صراع شريف . نكتسب منها ونضئف اليها . . نجب نيكولا من أجل هذا . ونبحث عن فرصة لكى نتوحد معه ونتحالف معه الا ان تشابك الأحداث فى الرواية وغزارة المشاكل وتنوعها ، تحرمنا من هذا الا فى لحظات قليلة . . ان هناك نوعا من التنافر الذى يحدث بين واقع التسجيل واسطورية الأحداث يربك ولا يثير . . فان التسجيل يعنى الاهتمام بالتفاصيل والبحث عن الكل والمعنى من خلال تجاوز الاجزاء الصغيرة . فى حين أن الاسطورة تفتقر فوق التفاصيل فاصدة الى لب الحقيقة عن طريق العلاقات الغامضة القائمة بين الایحاء والمقلل والشمسور .

وتجاور هذين العالمين فى رواية فساد الامكنة يحرمها من الانطلاق الى آفاق عالية لقد مارس صبرى موسى فى كتاباته السابقة خلق عالم روائى من تفاصيل الواقع الصغيرة والمتناهية فى الدقة . أما عالم الاسطورة الرحب فهو جديد عليه مازال يحاول امتلاكه وان كان قادرا على التجوال فيه بحب واشتهاء .

ولقد كانت علاقة نيكولا بالمنجم . وعلاقته بابنته ، وحدهما كافيان لكى يخلق لنا

عملا كبيرا .. ولكن ذلك يحتاج الى توضيحية بكثير من اغراءات العناصر الاخرى .
وبرغم ذلك .. يصل صبرى موسى بأسلوبه الرشيق الى خلق وحدة فنية ناجحة
من كل هذه العناصر .. لكى يقدم لنا رواية هو، دون شك رائدة وجديرة بالاهتمام .



● مجلة صباح الخير - يوليو ١٩٧٣ .

نييل فرج

تعد رواية « فساد الأمكنة » ٠٠ الجزء الثانى الفنى لكتاب « فى الصحراء » ٠٠ الذى صدر فى عام ١٩٦٤ ، ودرس فيه المؤلف منطقة الصحراء الشرقية قرب حدود السودان ، حيث يوجد جبل « الدرهب » .

والرواية تعتمد فى موضوعها ومضمونها على شخصية البطل نيكولا ، وعبر سلوكها أولا ، وأفكارها وهواجسها ثانيا ، تتكشف لنا جوانب ذلك العالم المادى الغريب من حولها ، خلال عدد من التسلسلات — سواء أفصح عنها أو لم يفصح — عن موقع الانسان ؟

وشخصية نيكولا شخصية مهزوزة متناقضة ، رغم حرصها على بلوغ سلامها النفسى ٠٠ هجر زوجته وابنته على فجأة بينما يذوب وجدا على صديقه وصفيه ايسا ، ويناجيه مناجاة شجية فى العديد من صفحات الرواية ٠٠ الا ان هذه المناجاة تتجاوز دلالتها الحرفية بحيث تصبح ادراكا للطبيعة الصحراوية من حوله ، القائمة منذ الازل ، بمثابة قوة مهلكة بقانونها الصارم لكل من يحاول اقتحامها وفك لغزها الابدى ٠٠ على غرار ما حدث لايسا .

شخصية البطل فى هذه الرواية هى المحور الذى يستقطب كل الاحداث التى تمر ، سواء كان مؤثرا فيها ومنصلا بها أو كان على هامشها .

وبيعون وقلب هذه الشخصية نتعرف على الحياة القاسية فى جبل الدرهميم والقيم ،
والثقافة ، التى تسود هذا المجتمع القفر .

على ان الكاتب كان يقف فى موضع دقيق للغاية ، بحيث لا يطغى جانب التسجيل .
على جانب الفن الروائى ، لقد تخلص فى عمله السابق ، من مزلق التسجيل . ولم
يبقى له الا القدر الذى يخدم العمل الفنى ، ويزيده ثراء . ذلك ان مثل تلك البيئة
الفريدة تغرى أى كاتب ، خاصة من سكان المدن ، برصدها والتعريف بها .
ان المشاهد والوقائع والنماذج البشرية الغريبة التى تستلهمها نظر الراوى ، ليست
شيئا خارجا عن خط الرواية ، او مفروضا على معمارها المثقن . بل اجزاء عضوية فى
نسيجها المنفرد ، الذى يبرى أحيانا أو يهدر ، من خلال صياغة رفيعة ، ترتفع ، فى
كثير من المقاطع ، الى سميت الشعر .

ومما يذكر للكاتب انه تخطى البيئة الاجتماعية من ريف ومدن مصر التى لا يكاد
يتجاوزها أحد من الكتاب المعاصرين . وتوغل بشجاعة فى هذه المنطقة المجهولة بالنسبة
للعالمية العظمى من القراء والمواطنين يعايشها ويعيشها ، ويمزج الصور الطبيعية
الآخاذة ، بشعاع الافراد ، والمطامع الصغيرة ، بالمقدسات والفضائل التى غرستها
الصحراء ، تحت تأثير مناخها الخاص .

والحق انى اعتقد ان رواية « فساد الامكنة » الى جانب قيمتها الفنية البحتة تنطوى
على قيمة أخرى ، لا تقل أهمية عن قيمتها الفنية ، وهى البحث عن الجذور الاصلية
البدائية للنفس المصرية العربية ، ممثلة فى هذه الاصمقاع البعيدة .
فمن الصحراء نبعث كثير من القيم الحادة العنيفة ازاء الحياة والموت التى لايزال
لبعضها قوة الصيرورة الى الآن ، بما تمتلك من سلامة ، والا لما عاشت على مر الزمن .
ورواية صبرى موسى ان لم تضع هذا البعد نصيب عينها ، فانها تمسه برفق
ووعى ، وتومئ اليه دون ان تقف عنده ، أو تركز عليه .

كما ان القارئ يشعر فى الرواية بمزاوجة غير مفتعلة بين حياة البطل المشتتة وبين
رحلة البشرية منذ بدء الخليقة ، أو فى عصورها الاولى على الاقل .
رحلة البشرية الجائرة ، فى اغترابها المحتوم ، وفى آلامها وأحزانها الباهظة ، فى
أساليب الاخذ والضعف ، والعطاء والمغامرة والقسوة والخوف ، وفى الحياة والموت
وخطيئة الارحام ؟

ومثل هذه الرواية ، بموضوعها المميز ، ومعالجتها الفنية الهادئة ذات النفس
الطويل ، وافكارها الانسانية ، النابعة من هذه المنطقة المحلية ، يمكن أن تقرأ فى
كل مكان من انحاء العالم ، فيما اعتقد ، بنفس الشغف الذى شعر به القراء فى
بلادنا .

محمد جبريل

إذا كانت عيننا الفنان والرحالة تتقاسمان الرؤية في أعمال صبرى موسى ، الى حد تقديم أكثر من كتاب في أدب الرحلات ، مثل «فى البحيرات» و «فى الصحراء» ، فضلا عن توضيح تقاسم النظرة في اعماله القصصية منذ « القميص » - مجموعته الاولى - الى « فساد الامكنة » - روايته الاولى - فان الارضية التي تقف عليها كل اعمال صبرى موسى هي محاولة « دراسة » التغيرات ، الثابتة والطارئة ، فى المجتمع المصرى ، من خلال العلاقات الاسرية ، والعائلية ، وانتشار التعليم ، والاتساع الرأسى للصناعة ، وذواء بعض البيئات ، وتخلق بيئات جديدة ، ونشوء مشكلات كانت غائبة عن مجتمع القرن الماضى . واولئ هذا القرن .

وعلى سبيل المثال ، فان خروج المرأة الى العمل ، وما نشأ عنه من تطورات فى علاقات الجنسين ، وفى العلاقات الاسرية عموما ، نبض العديد من محاولات صبرى موسى القصصية ٠٠ فبعد أن قضت أمينة بطلة ثلاثية نجيب محفوظ ، ربع قرن من حياتها حبسة جدران البيت ، تبين المرأة فى قصص صبرى موسى عن ملامحها المتميزة وقسماتها . وتمارس وجودها الانسانى ، فتحب وتكره وتناقش وتقبل وترفض وتحرس على استقلالها الاقتصادى حتى تصبح فى غير حاجة لظل الرجل ، ومثلما كان أحمد عبد الجواد نموذجا متشددا للرجل فى مطلع القرن ، فان

المرأة فى قصص صبرى موسى نموذج لذروة تحقيق المرأة استقلالها فى الاجيال المتأخرة . المرأة محور الاحداث فى قصص نجيب محفوظ والبدوى والسباعى وغراب وعبد الحليم عبد الله والسحار وزكى مخلوف وغيرهم من أدباء جيل الوسط ، ولكنها - فى الاغلب - لا تركز الى دعائم اقتصادية أو استقلالية من أى نوع . ولعلها - فى المحصلة النهائية - أسيرة سيطرة الرجل الاقتصادية ، أما صبرى موسى - شأن غالبية روائىي جيله - فقد دفع بالمرأة الى مجالات العمل المختلفة ، فى علاقات متشابكة ، تبين - بالضرورة - عن جوانب من نفسية المرأة ، لم يكن المجتمع المغلق قد اتاح لها الظهور من قبل . فثمة الرجل الذى يواجه خيانة زوجته بالشكوى لغانية بار (قصة : القناع) والزوج الذى يرضى بالزواج من حبيبته ، بعد أن وهبته نفسها ، أو يزعم أنها وهبته نفسها (قصة : الفرح) - ونذكر بطل رواية ثروت أباطة « قصر على النيل » الذى صرف فكرة الزواج من ابنة عمه ثانيا ، لانها سمحت له بان يحادثها فى غيبة من رقابة الاهل - وحفل الزفاف الذى ينتظر فيه اهل العروسين حدثا لن يتم ، فقد سال عرق كل منهما على جسد الآخر قبل حفل الزفاف بفترة طويلة ولم يعد بعد الحفل بالنسبة لهما سوى مسايرة لاصرار الاهل على أن يكون « اللقاء » فى اطار التقاليد الموروثة (قصة الفرح) وبعد أن رفض أحمد عبد الجواد فى « بين القصرين » طلب ضابط قسم الجمالية يد ابنته ، لشكه فى أنه رآها ، ولأنه لم يطلبها منه ، وانما خاطب فى ذلك اوسط ابناؤه . ثم مارس تزويج - وتطليق - ابناؤه بالكيفية التى حلت له ، فان نادية وسامى فى قصة صبرى موسى « حادث زواج فى شارع مؤنس افندى » يتحدثان ارادة اهليهما ، ويتزوجان ، ولا يملك الاهل الا الرضوخ . ولعلنا نجد فى قصة « حادث نصف المتر » - التى يشير الفنان فى قائمة مؤلفاته الى انها رواية - تجسيد لمدى التطور الذى لاحق علاقة الرجل والمرأة . فلقد التقى الحبيبان - للمرة الاولى . فى اتوبيس مزدحم . وتكرورت اللقاءات فى احد الكازينوهات ، ثم انتقلت الى شقة الاستاذ زينهم ذى الزوجة والأولاد ، فضلا عن استضافة أصدقاء كثيرين لهما فى شققهم المروشة الى ان دق باب مكبه ، ودخل رجل طلب له القهوة ، فرفضها بأدب ثم طلب منه أن يبتعد عن حبيبته لأنه سيتزوجها !

وفى السطور الاولى من قصة « تدفئة صناعية » يطرح الراوى ما يريد التعبير عنه : « كثرت مظاهر الحضارة الاستهلاكية ، ووقع الناس فى براثن الأنا ، وأصبحت كل أنا جيشا متربصا ، او حذرا من الأنا الأخرى واستهلك هذا التهيؤ الحربى كسل فرص التأمل والانفتاح . فأغلق الناس أبوابهم على انفسهم لاختفاء الممتلكات ، وضاعت لذة الاستعمال أمام شهوة الاستحواذ » . الراوى يلتقى - مصادفة - بأحد أصدقائه القدامى ، ويتفقان على تكرار اللقاء ، فلا يتذكر ذلك الا بعد فوات الموعده ،

يتصل بالمكان الذى كان قد تواعد وصديقه على اللقاء فيه ليفاجأ بأن صديقه هو الآخر لم يجرى ! •

والواقع أن ملامح التغير لا تبدى فى العلاقات الانسانية فحسب ، ولكنها تمتد الى كل مظاهر الحياة من خلال المستحدثات الحضارية ، والتطور النامى لحركة المجتمع وتغير ظروفه الاجتماعية والثقافية والنفسية •

وعلى سبيل المثال ، فان مصيفى رأس البر الذين كان مبعث اختيارهم للشاطئ ، تلك الحياة البسيطة ، والعشش الصغيرة ، والبحر الهادئ - الذى يحبو عند الاقدام ، قد تغيرت أمزجتهم - لاسباب حيرت الحاج عبد الفتاح - وأصبحوا يطالبون ببيوت مثل بيوتهم التى تركوها فى المدن • وعندما يجدون شيئا ينقص هذه البيوت يصيحون ويستكون وينتقدون • فلماذا غادروا بيوتهم اذن ؟ • حتى الطسرق الحديثة فى التأديب لم تكن تستهوى الحاج عبد الفتاح ، وكان موقنا ان علفة واحدة بالفلقما تقوم من سلوك الطفل بما يفنى عن الاف النصائح والارشادات (قصة : لأحد يعلم) •

والقاهرة هى البيئة الاساسية التى يتحرك فى اطارها غالبية شخصيات صبرى موسى ، ولكن « الفنان » استفاد - فى احيان كثيرة - من « الرحالة » • فغادر العاصمة الى بيئات اخرى ، فى الريف ، والساحل ، واخيرا : فى الصحراء ، نبض أحدث رواياته - والادق : روايته الاولى ، فساد الأمكنه •

وأهمية تناول الصحراء فى عمل روائي تكمن - بالدرجة الاولى - فى أن بلادنا جملة المساحة المنزرعة فيها ٦ ملايين فدان ، بنسبة ٣١ ٪ يعيش عليها الغالبية من سكان مصر بينما باقى مساحة الجمهورية وقدرها ٩٧ ٪ صحراء ، يعيش فيها حوالى ٤ر مليون نسمة • ولغلبة المساحة الصحراوية على الارض المصرية ، فان المناطق المأهولة تعد واحات تكتنف الصحارى ، اهمها الواحة الكبرى ، وهى حوض وادى النيل ، ثم مجموعة الواحات المتناثرة فى الصحراء الغربية ، فضلا عن تلك المناطق التى تعانق الساحل فى الصحراء الشرقية • ومن المؤكد ان شخصية المواطن البدوى المستقل بدأت تغيب شيئا فشيئا ، لتحل محلها شخصية المواطن القومى الذى يدين بالتبعية للدولة لا للقبيلة ، ويخضع لقوانين عامة تسرى على كل مناطق الدولة ، ولا تنفرد بها منطقته وحدها • وفى المقابل فان تأثير البدوة على قيم مجتمعنا المعاصر لا يزال واضحا وسائدا ، حتى فى المدن والعواصم ، برغم انها - كما يقول الدكتور محيى الدين صابر بحق - « اقدم نمط اجتماعى للحياة عرفه الانسان (البدو

والبداوة ص ٦) « ومن هنا نكتسب فساد الامكنة بعد اجتماعها هاما . يضاف الى ابعادها المتفرقة الشكلية والمضمونية الاخرى .

تمثل الشخصيات الاسطورية - وان كان به ضعف انساني واضح ومثير - يطالعنا نيكولا فوق قصة جبل الدرهي . يعانق الشمس مصلوبا كانه المسيح . لقد قدم الى المنطقة غريبا ومغامرا . يشهد المستقبل الافضل . ولكن اصوله القوقازية كانت تشدد الى المكان بوشاج قديمة . بل لعل السكان هم اهله واقرباه واصهاره القدامى . « انهم - كما يرجح الرواة - من سلالة كوش بن حام . الذين هاموا على وجوههم بعد الطوفان . كانوا وثنيين الى ان جاء الاسلام فاعتنقوه . لكنهم ظلوا على على بدائيتهم ولغتهم ليكونوا جديرين بذلك العناد التقليدى المشهور عنهم . فعلى الرغم من قسوة الحياة فى الصحراء . وجذب الوديان معظم الجول . وجفاف الآبار . . . الا انهم ظلوا لاصحاب بصخور هذه الجبال فى اصرار . يتكاثرون فيها وينقسمون الى فروع وقبائل . منها البشارية . والعبادة . والابوجوس . وبشو عامر . . . ينتساثرون حول الآبار والعيون الباقية على حالها من زمن الفراعنة . واسماجنهم سيف طويل ودرع . ورمح أو خنجر . . . وسيفهم مصنوع مثل سيف اسير من الحروب الصليبية يوسدون رؤوسهم حينما يفتشون الارض للنوم وسادة من خشب الشجر . مصنوعة على غرار وسادة توت عنخ آمون الذهبية . ويقيمون بين الجبال وراء الابل والغنم والعنز . ويشدون خيامهم التى تصنعها نساؤهم من سعف نخيل الدوم فى مناطق الرعى على السهل البساحى من بشر الشمالين فى ارض مصر الى حدود مملكة السودان . . . ويقعون امامها يسبون الحيز على الصخور . ويرشفون القهوة السوداء المغلية . بينما ترعى الابل نصيبها من ثبات الصحراء العزيز الشحيح . »

ولقد كانت الصفات التى اكتسبها نيكولا - تلك التى تواصلت بجذوره الاولى - هى الرابطة الحقيقى للناساة التى تقلب فى أتونها منذ سابع الملك شرف ابنته حتى اوقعه أحسانية الشرقى بالذرق . فربسة للجن . فتصور انه هو الذى ضاعها . وان الذى بدأ التحرك فى احشائها هو الثمرة . فحمل الطفل طعاما لطيفور الصحراء وحيواناتها . واغلق على ابنته كهفا غير مطروق ! .

وانتهت الناساة بنيكولا الى التفرد . عن كل هؤلاء الذين وفدوا على الجبل بحثا عن الثراء والمغامرة . وتلاشى المأساوى نيكولا . ذاب فى الطبيعة السادرة من حوله . أصبح مثل الجد الاكبر . « كوكا لوانكا » صخرة فى جبل الدرهي .

لعل كاتب هذه السطور كان أول من نبه الى الاضافة الجيدة . التى تمثلها . «فساد الامكنة» فى الرواية المصرية . (جريدة المساء ٥ اغسطس ١٩٧٣) . ولعل

أضيف - بعد قراءة ثانية ، ثنائية ، لكل أعمال صبرى موسى - ان «فساد الامكنة» تكاد تمثل نسيجا مغايرا لما قدمه الفنان ان المكتبة العربية قبله . وانه قد استفاد فيها من العديد من الاخطاء الشكلية والمضمونية - والاسلوبية أيضا - التي شابت بعض أعماله السابقة .

لقد كان « الرحالة » يهب « الفنان » مشاهداته وخبراته وقراءاته . فيحاول تضمينها قصصا القصيرة ، أو يفرد لها فصولا في ادب الرحلات . مثلما فعل في في كتابيه « في البحيرات » و « في الصحراء » . ولكن الفنان - فى « فساد الامكنة » - يجيد استخدام المعلومات التاريخية والبنية التي اتاحها له اقامة الفئورغ الادبي في جبل الدرهب ، يتمرس بحياة السكان ويخالطهم ويصادقهم ويتعرف الى عاداتهم وتقاليدهم ويناقشهم فيما مضى وما يتصورون انه المستقبل . القراءة في الماضي ، ودراسة الحاضر ، ومحاولة التوقع ، جهد بذله الفنان - لا شك - في روايته ولكنه حرص على أن يذيب ذلك الجهد ، فى تلاحم عضوي ، بأحداث الرواية ، فلا يبدو عفويا أو نشازا ، أو يبدو - وعما الخطر - كانه محاولة من الفنان لاستعراض ثقافته . ولقد كان الفنان - فى رحلاته ، وربما فى العديد من قصصه القصيرة - بعيد علينا ما قرأ من كتب القدامى والمحدثين ، ويحاول فلسفة المواقف ، وابسداء وجهات النظر الشخصية ، أشبه بلعبة الترائس الذى لم يبرح بعد فى اخفاء يديه وهو يحرك عرائسه . وغالبية تلك القصص لم تتخلص مما كان يجب القصة الاوربية فى القرن الثامن عشر ، وهو الحرص الفائق من بعض الأدباء على تأكيد مواهبهم ، بصرف النظر عن مدى احتمال ما يقدمون لصوت الفنان المرتفع . ولأن أضيف أنه حتى التمسك بغنية القصة على الوجه نفسه الذى كانت عليه فى أعمال الواقعيين الطبيعيين - على سبيل المثال - رغم الإضافات الباهرة لتلك المدرسة - لم يعد ينطوى - على حد تعبير الآن روبر جريبه - على شيء يثير الإعجاب ، بل انه يبدو مستحيلا فى ضوء المتغيرات الاجتماعية والنفسية والثقافية التي يجاها كاتب الربع الأخير من القرن العشرين . ان التكرار المنظم للاشكال الفنية التي تنسب الى الماضى ، لا يبدو غير مألوف فقط ، وانما قد يصبح ضارا لانه يدفعنا الى اخلاق اغيننا عسبن الموقف الذى نعيشه فى عالمنا الحاضر . ومن ثم يحول دون السعى لبناء عالم المستقبل وانسان المستقبل (نحو رواية جديدة) .

ومع ذلك ، فإن التفوق الذى تتميز به « فساد الامكنة » - تلك التي غراب عنها ، الى حد بعيد ، الصوت المباشر للفنان - ينحس على الجديده من المحاولات السابقة ، التي افلح الفنان فى استخلاصها من حرص الرحالة على توصيل المعلومة بصرف النظر عن مقومات العمل الفني . وخفة الصحنى التي تجعل من «التبسيط»

قضية أولى ، وأن لم يحتمله العمل أحيانا • ولعل المثل يحضرني الآن ، قصته النشيكوفيه اللحظة والمذاق ، بطلها الاسطى حسنين سائق أوتوبيس الاقاليم الذى ينشد دفة الصداقة ، حتى مع هؤلاء الذى تعبرهم حياته • وتكامل اللحظة وتواصلها ، يجعل من الصعب تلخيص القصة ، وإن اعتبرتها من أهم المعالم الإيجابية فى فن صبرى موسى (قصة : مصر - القازيق) •

فى « فساد الامكنة » يغيب الفنان عن الصورة الظاهرة ، فليس ثمة أماننا ، يتحرك ويحلم ويتأمل ويقاسى ويتعذب ، الأهواء الرجال الذين عاشوا تلك السنوات فى جبل الدهيب : نيكولا وايسا وعبدربه كريشباب • • فضلا عن ابلية الرائعة التى دفعت طفلها نمنا لهواجس أبيها اللعينة • نحن نغادر الرواية وقد عرفنا الكثير عن الظروف التى قدمت بنيكولا الى ذلك المكان القصى فى الصحراء الشرقية ، وعن المعتقدات الاسطورية التى لا يزال بدو المنطقة ينجون اسارى لها ، وعن الظلم المجمع الذى لم يجدوا لمقاومته حيلة • • ولكن التفهم الوائى لطبيعة العمل الروائى يسم الاحداث - فى تصاعدها ، وفى تفصيلاتها الصغيرة وجزئياتها - بما يجعل من الاحداث المتناثرة ، الموغلة فى القدم ، والانية ، والتى تصنع غدها ، قطعة نسيجية متكاملة •

لقد تفرد الفنان بساحة العمل الفنى ، يهبنا رواءه ومذاق عطائه الخاص وتميزه ، وغزل خيوطه من قراءاته ومشاهداته وخبراته فى نسيج الرواية ، واثرى روايته باسهامات الفنون الاخرى ، فثمة التبقيع اللونى كما فى اللوحات التشكيلية ، والهارمونى الموسيقى ، والفلاش باك ، والتقطيع السينمائى ، والديالوجات التى تضيف الى الحدث تصاعدا دراميا الخ • • مما تتسم به الفنون المعاصرة بعامه ، من حيث استفادة كل فن بما تملكه الفنون الاخرى من خصائص جمالية وتكنيكية • • • فيتحقق للفن القصصى ابعاد جديدة ، وتحقق ابعاد جديدة للفنون الاخرى ، مما يجعل رأى ادوين موير أن بعض الفنون - مثل النحت والرسم والموسيقى - تتحقق فى بعد واحد فقط ، اقرب الى تسمية الشمس بانها تقوم كل يوم بدورة من الشرق الى الغرب ، وانغال « ابعادها » الهامة الاخرى • ولعل بذلك أناقض دعوى بعض الروائيين الجدد - ناتالى ساروت مثلا - بأن المقولة فى الفن خطأ يجب تجنبه ، وإن الالتزام الوحيد فى الفن هو الفن نفسه ، برغم ان ابداعات هؤلاء الروائيين - وايدولوجياتهم أيضا - ترفض تلك الدعوى ، فهمة الروائى - فى تقديرهم - هى « إعادة بناء العلاقة بين الانسان والعالم » •

واخيرا ، فلقد أراد برسى لبوك ان يسجل رواية « الحرب والسلام » لتولستوى فبدأ حديثه متسانلا : ولكن ماذا عن الرواية او مضمونها الذى احب ان اسميه

مضمونا اخلاقيا ؟

لقد قدم لنا تولستوى فترة ما من مسار الزمن ، ولكن ما الهدف من تقديمها ؟

واعتقد ان العديد من القصص التي تضمها المجموعات القصصية السابقة لصبرى موسى ، تواجه - بالحاح - ذلك السؤال . فالاكتفاء بتسجيل ظواهر الاشياء ، والعناية بالرشاقة الاسلوبية واللفظية ، والبعد عن تعمق المشاعر والبواعث الدفينة للتصرفات . وتلاشى وجهة النظر من خلفية الصورة . ذلك كله فرضته طبيعة التحقيق الصحفى التي قاومها صبرى موسى فى كل اعماله ، فتغلبت عليه أحيانا ، وتغلب عليها فى احيان اخرى ، حتى تخلص منها فى روايته الفريدة ، وتبلى الفنان مسيطرا على فنه ، متمكنا من أدواته ، مستفيدا من كل محاولاته وخبراته السابقة فى تقديم عمل روائى ، هو - فى تقديرى - من أنضج ما قدمته الرواية العربية المعاصرة .

« فساد الامكنة » تعبير عن النضوج المؤكد الذى حققه صبرى موسى فى رحلته الفنية . بل لعل أضيف ان الرواية ستظل معلما واضحا فى مسار الرواية المصرية بعامة ، يضاف الى المعالم الاخرى الاقرب اكتمالا - فى حينها - بدءا بعلم الدين ، ومرورا بعشراء دنشواى ، وزينب ، وابراهيم الكاتب ، وعودة الروح ، ودعاء الكروان ، وقنديل أم هاشم ، وروايات نجيب محفوظ ، والسقما مات ، والخيوط الابيض ، والشارع الجديد ، والحرام ، وشجرة اللبلاب ، والرجل الذى فقد ظله ، وايام الانسان السبعة ، وغيرها . . . وانتهاء بفساد الامكنة .

على ثلاثين

« اسمعوا منى بتأمل يا أحبائى ، فانى مضيفكم اليوم فى وليحه ملوكية ساطعكم فيها غذاء جبليا لم يعهده سكان المدن ، بينما احرك أرغمن لسانى الضعيف ، واحكى لكم سيرة ذلك المأساوى نيكولا ٠٠٠ »

بهذه الكلمات التى تميدنا الى مقدمات الرواة فى السير الشعبية يستهل صسبى موسى روايته « فساد الامكنة » التى فازت بجائزة الدولة التمشجية . وبهذه الكلمات أيضا يحدد المؤلف موضوعه ومنهجه معا ، فالموضوع هو « ذلك المأساوى نيكولا » والمنهج هو السيرة التى يرويها راو من النوع التديم الموروث ، ولكنها ليست من السير الشعبية المألوفة الا فى بعض مظاهرها الشكلية المحدودة ، فالراوى هنا اله يعلم خاتمة الاعين وما تخفى الصدور ، ولكنه اله « تحرر اذا صبح التعبير فهو يأذن لشخصياته بالتعمير عن نفسها بالمونولوج الداخلى فى ظل رقابته وتوجيهاته ، أو بمعنى آخر هو يعبر عن مونولوجاتها الداخلية بطريقته الخاصة ، ويصوغ سيرة نيكولا بحيث يحرص تأملاته فى ثنايا تصورات نيكولا وردود فعله ، وهو فى تحرره ، لا ينسى التحرر من وحدة اللغة والزمن فيراوح بين الفعل الماضى والفعل المضارع فى السرد والحكى والتصوير .

اما نيكولا نفسه فقد شاء الراوى أيضا ، ومنذ البداية ، ان يقدمه لنا شخصا

ماساويا • ووصفه بالماساوى جزء لا يتجزأ من تالة الراوى ودكتاتوريته ، فيكولا يظهر فى البداية رجلا ماساويا بحق • شاخ بدنه وهرم عقله ولعب بلسانه أخط أنواع الخمر ، بعد أن أخنى عليه الدهر •

ونحن ندخل الرواية - السيرة هذه من عنوان أشبه بعناوين مقدمات كتب الانثروبولوجيا أو الجغرافيا السياسية يقول : « الدرهب •• ملمح شبه نهائى • » فالدرهب هذا جبل رهيب من جبال الصحراء الشرقية يصوره الراوى من عل ، بلقطة بانورامية طويلة كأنها يلتقطها عن طائرة هليكوبتر تنزل عمودية • ونبط • ، حتى تصل الى « نيكولا العجوز » ذلك المسمى باسم قديس • عاريا هناك تحت شمس أغسطس الجهنمية ••

ثم نتقدم مع الراوى ، أو يتقدم الراوى بنا ، حتى يقول لنا فيما يقول فى نيكولا هذا أن « جسده الأوربى الاصل قد اكتسب سمرة غامقة أصيلة وشعر رأسه الغزير قصه أبيض تماما وصار فى لون القطن » وأنه يعيش فى وحدة قاسية فى ذلك الفضاء الرهيب ولا يملك الا ذكرياته ومأساته التى كتبت فصلها الأخير ابنته وعشيقته فى وقت واحد • حين انهار عليها حجر بداخل منجم ببطن الجبل الرهيب فغيبها عن نيكولا الى الأبد مثلما غيب عقله أو كاد أن يغيبه !

عند هذا الحد نصل الى الفصل الثانى ، هكذا بلامقدمات ، وكان المقدمة السابقة هى بذاتها الفصل الاول •

ثم تتوالى الفصول بعد ذلك فنتابع نيكولا مع الراوى ، تارة من الخارج وتارة من الداخل ، تارة مع غيره وتارة مع نفسه • تارة فى القمة وتارة فى الحضيض وفى وحدته الغريبة الحافلة هذه يعود نيكولا الى الماضى قبل أربعين أو خمسين سنة - فليس ثمة شئ محدد تحديدا صارما وكل شئ واقع بين الحقيقة والخيال ، أو الحقيقة والافتازيا - يعود الى يوم مجيئه مهورا بالبحث عن المعرفة فى بحر التجوال • ولكن أية معرفة هذه ؟ هل هى معرفة الصحراء وجبالها وخوافيها وقاطنيها ؟ لقد تلاشى هو نفسه فى الصحراء وحل فيها حلولا صوفيا ، فهل المعرفة فى التلاشى والحلول ؟ لقد صادق البشرارية واحبهم فهل المعرفة هى المصادقة والحب ؟ لقد تعمى من كل شئ ، يربطه بالاطر والتقاليد ؟ فهل المعرفة هى التعمى من الاطر والتقاليد ؟ لقد صعد نيكولا فى سلم الحياة الناجحة وبلغ درجات عليا ثم هبط هبوطا مفاجئا متلاحقا فهل المعرفة بين الصعود والهبوط ؟ لقد أثم وضاع ابنته وانجب منها طفلا وقدها مرغما الى ملك ضليع فهل المعرفة هى الاثم أو حرية الاثم ؟ لقد حاول الانتحار فى نوبة من نوبات السقوط المدمر المكبل بالاثم وتشجيعه فهل المعرفة هى الانتحار والهروب ؟ لقد ألتذوه من محاولة انتحاره فهرب الى الصحراء وهام على وجهه ثم غاب اياما فى احد سراديب

المنجم الجبل . ولما عثروا عليه وعثرت عليه ابنته ظهر ولكن ابنته لم تظهر وأبتلعها الجبل فى نوبة غضب عبثى ، فضاعت منه ايليا الصغرى كما ضاعت ايليا الكبرى التى هجرته ثم ضاع المنجم نفسه وضاع معه كل شيء ، فهل المعرفة هى الضياع بمعنىا المادى ومعناه الفلسفى ؟ .

ليس ثمة تحديد صارم مرة أخرى ، فكل شيء قابل للرؤية من عدة وجوه ، وكل شيء مطلق ونسبى فى وقت واحد وكل شيء متداخل منفرد يجمع فى وقت واحد ، وربما كانت المعرفة النيكلواوية هى هذا كله ، وربما أضانت اليه مساحة من المعرفة الزورباوية اذا صح التعبير ، فنيكولا القوقازى وزوربا اليونانى كلاهما متقارب ومتباعد فى وقت واحد .

وعندما نصل الى النهاية ، نهاية الرواية ، تطالعنا خاتمه . أو هو « فصل ختامى » كما سماه المؤلف . هذا الفصل يعادل الايبولوج (المشهد الختامى) فى التراجيـديا الاغريقية مثلما يعادل الفصل الاول - المقدمة - البرولوج (المشهد الاستهلالي) فى تلك التراجيـديا القديمة وفيه ، فى هذا الفصل ، عود الى فصل الاستهلال ومراجعة للفصول البنينة مراجعة تأمل نهائى ومحاولة لاستخلاص عبرة أو عظة أو كلمة نهائية سمها ماشئت ، ففيه هيكل الايبولوج القديم وسلمه . . انه العود على البدء ولكن فى اطار روائى يعلن للقارئ الفرد لا للمتفرجين المأ كما فى التراجيـديا اليونانية ، أن معجزة الانتماء الحقيقى قد تحققت لجذ البجاة القديم كوكالوانكا حين أعطى عقله وقلبه وروحه جميعها لتلك المغارة المرتفعة فوق الجبل . . حتى أصبح صخرة تنبت حولها اشجار مقدسة . . الخ وان هذه المعجزة نفسها وشبكة التحقيق بالنسبة لنيكولا الذى سينتدح بالطبيعة مثل الجد القوقازى القديم .

وهكذا تنتهى هذه الرواية السيرة . والحق انها رواية غنية وجيدة تساهم مساهمة أصلية وواضحة فى توسيع دائرة اهتمامات الرواية عندنا . . فقد كانت هذه الاهتمامات - ولا زالت - محصورة فى نطاق المدينة والقرية ، فيما عدا بعض المحاولات . كمحاولة « سلمى الاسوانية » لعبد الوهاب الاسوانى ومحاولة « الشمندورة » لخليل قاسم ثم جاءت هذه المحاولة فدعمت التحرر من نطاق المدينة والقرية .

ان الرواية هنا تمضى هادئة بوجه عام . تبدأ هادئة كانها تحقيق صحفى هادى بلا دراما ثم لاتلبث أن تحتشد وتفتنى حتى تتسلسل بمادتها الى القسارى فتمتعه وتستثير قدرته على التفكير والتأمل ، ولاشك ان اسلوبها وطريقة التصوير فيها قد ساهما فى ذلك برغم الفصل الاول أو المقدمة التى كان من الممكن ادماجها فى

الفصل الثانى ، وبرغم احتشاد رقعة الرواية بالمعلومات الانثربولوجية • وبرغم العبارات الطويلة المرهقة فى بعض المواطن • ومع ذلك كله فقد خلق صبرى موسى عدة مشاهد فى هذه الرواية تعد من أجمل المشاهد التى خلقتها الرواية المصرية • وبخاصة فى : صيد الاستاكوزا ، تفجير الجبل ، صيد جنبة البحر ، زفاف عبد ربه كرىشاب على الجنبة ، محاولة نيكولا الانتحار فى البحر . وفى كل هذه المشاهد حس فنى تصويرى سينمائى جدير بالاعجاب والتقدير • وفوق هذا كله تقسف شخصية نيكولا كواحدة من الشخصيات القليلة الملفتة للنظر فى الرواية المصرية المعاصرة •



غالب هلسا

هذه رواية فذة ، افتتحت عالما عربيا ، صعب المسالك ، عابجت من خلاله فكرة شديدة التعقيد ، واستطاعت هذه الرواية أن تجمع بين شرف المحازفة وبين النجاح . وهي تحكي قصة إنسان التيه ، يسوقه قدر غامض الى تجوال لا نهائي ، قلق ، مؤلم . ثم يضعه في مكان في الصحراء الشرقية ، فيرسى جذوره هناك ويندمج فيسه وقد أخذت تسيطر عليه منذ البداية فكرة - حلم بأن يصبح صخرة من صخوره ، وأن يذوب قلقه ومعاناته في الطبيعة البكر . ولكن هنالك تعارضا جذريا لن يستطيع نيكولا تجاوزه . فالمكان يرفضه لأن نيكولا خارج عن سبيله . كما ان التكوين العصري لنيكولا عاجز عن التجذر في المكان . وذلك لأن جذله - أي نيكولا - مع الطبيعة جدل عنيف يهدف الى اغتصابها والسيطرة عليها وهو بهذا يقف على نقىض التجربة الصوفية التي يحلم بأن يحققها .

فماذا يكون مصير نيكولا ؟

انه لن يكون الا مصير آخاب بطل رواية (موبى دك) ومصير هاملت اللذين مزج بينهما نيكولا في شخصه . لقد دمر الحوت الابيض سفينة آخاب وجذبه الى الاعماق ، ولكنه اغرق معها طائرا بريئا اشتبك بعلمها ، وبهذا أصبح

علم أخاب كالشيطان الذى أبى أن يهبط الى الجحيم الا بعد ان يجتذب معه قطعة حية من السماء (على حد تعبير رواية موبى دك) . وضاعت صرخة احتجاج وتحد إخاب المجنونة : « لو أن الشمس صفعتنى فسوف أرد الصفعة » .

« يقف نيكولا متارجحا على قمم خادعة ، متزلجة ، مؤرجحا على حصى دقيق من الاسيستوس وبلورات الرخام ذات الاسنة القاطعة ، والقواقع المهشمة من مليون ألف عام . . يقف هناك نيكولا الذى لا وطن له ، عاريا ومصلوبا على الفراغ المتأرجح الحار وحده ، تلفحه ريح الصحراء ، . . » . ونيكولا ، فى واقع الامر يتأرجح بين مكائين ، وبالتالى بين عالمين : بين ضريح المجاهد الصوفى ابى الحسن الشاذلى القائم فى وسط الصحراء الشرقية عند « عيناب » وبين الادوات العصرية التى تمزق قلب جبل « الدرهيپ » وتستخلص منه كنوزه لتحوّله فى النهاية الى مجرد اطوار ضخيم فارغ المحتوى . وهو بهذا ايضا يقدم احتجاجه الصاسخ على عاله من معطيات هذا العالم بالذات : الآله والثروة . فاية فرصة لكجاة تبقى امام نيكولا المسكين ؟

لقد صيغت الرواية بلغة شاعرية توراتية (١) ترفع الاحداث الصغيرة الى مستوى الدلالات الكونية . وتبعث من قلب التيه حيوية شديدة الخصوصية ، أليفة ومنسية . وهى أيضا استجابة لتلك النداء الانسانى العريق ، الضارب فى القدم ، الداعى الى استعادة الجذور . يتم ذلك عبر تجربة صوفية عميقة ، حيث تتكشف امتدادات الانسان فى قلب الوجود وتوحده فيه .

والرواية نتاج مجهود مخلص يصح أن يكون مثالا للروائى الجاد الذى يجعل من الفن حياة . يقول الكاتب أنه أمضى ليلة فى جبل الدرهيپ فى ربيع عام ١٩٦٣ وفى تلك الليلة ولدت بذرة هذه الرواية . ثم زار الدرهيپ بعد ذلك بعامين خلال زيارة ضريح ابى الحسن الشاذلى فشمع انه بحاجة الى معايشة هذا الجبل حتى يتمكن من كتابة هذه الرواية . ولهذا أمضى سنة هنالك يعايش الجبل وقبائل المنطقة يجمع خلالها مادة روايته . ثم أمضى بعد ذلك سنتين فى كتابتها .

وهكذا فإن الكاتب قد أمضى حوالى ست سنوات يتأمل ويجمع مواد هذه الرواية ويكتبها . هذا فى الوقت الذى لا يزيد فيه حجم هذه الرواية عن مائة وستين صفحة من القطع المتوسط .

(١) اعتقد أنه كان بالإمكان انراء هذه اللغة لو أن الكاتب اضاف الى التجربة الصوفية تعبيرات التراث الصوفى .

ان مثل هذا المجهود الشاق وسط اكوام الكتابة المريحة يستحق كل تقدير .
تتأكي الرواية عن نيكولا الذى لا وطن له . فقد هاجرت عائلته وهو طفل فى
العاشرة من احدى المدن الروسية الصغيرة واستقر أبوه . وأبوه طليبا للاسنان فى
استنبول بشركيا . وهذا حدث مركزى فى تكوين نيكولا . رغم ان الرواية لا تشير
الى ذلك بوضوح . فان انتقال الطفل من بيئة شكلته وتعودها الى عالم غريب اللغة
والعادات قد جعل العالم بالنسبة له موضع تساؤل بدلا من ان يكون موضع قبول
وقناعة . وقد حدد هذا الانفجار الأول مسيرة نيكولا بعد ذلك . فأخذ يقطع كل الحيوط
التي تشده بواقع محدد : الوطن ، أمه ، أبوه ، أخوته وأصبح الا منتجى المطلق .
اصبح غريبا ، ومندهشا فى كل مكان لأنه منذ سن العاشرة حرمته الظروف من اعتياد
اى شئ . فى سن الثلاثين استقر فى احدى المدن الايطالية الساحلية حيث عمل أجيرا
فى مطعم وبعد ست ساعات كان يضاجع ابنة صاحب المطعم القوقازية « المسلحة بجمال
حاد » . ثم تزوجها فأحاطت به من كل ناحية تدعوه الى الاستقرار دائم : حدثته عن
مشروع كازينو وعن اتساع لا حد له للمشروع الرأسمالى ، وعن الاطفال ، وعن الثراء .
ولكن نيكولا أدرك بحدس صادق - عجز عن وضعه فى كلمات - ان ذلك لن يكون
الا استقرارا زائفا ، استقرارا يبدأ بقتل صاحب المطعم « قالت له ان ضربة على مؤخرة
الرأس لن تضر أحدا وستريح العجز من كل تعب الذى يتعبه تحت الشمس .. »
ولا ينتهى أبدا . فيواصل نيكولا تجواله ويتجه نيكولا الى صحراء مصر الشرقية مع
صديقه مهندس التعدين الايطالى .

ويستقر نيكولا فى جبل الدرهبب الذى يحتوى فى داخله على مادة التلك .
ويعيش نيكولا أيامه الأولى فى حالة اندهاش بالغة ، فهو مازال يتفرج ، والمكان يتسلسل
داخله وهو يجاهد ان يمد نحوه جسورا .

وهذا الجزء من الرواية هو أغنى اجزاها وأكثرها فنية . وسوف نحاول بعد قليل
ان نشرح دلالة هذا .

يجد نيكولا صلة بينه وبين البدو الذين يقطنون هذه المنطقة لأن أصلهم يعود الى
القوقاز ايضا . ولكن هنالك صلة أعمق تتكون مع المكان عندما يجسد الموت صريحا ،
عاديا : « وبين الحين والحين تبرز فجأة .. كومة من العظام البيضاء .. او غصن جاف
تذرف فى أعلاه قطعة صغيرة من القماش .. هى علامات الموت فى الصحراء . يرقبها
نيكولا ويرتجف مهابة .. » . كما ان نيكولا يعانى منذ اللحظات الأولى غمرات الوجد
الصوفى عندما يصحو مع الفجر ليكون أول شاهد على انبثاق الصحراء من الليل .
« ارتجف نيكولا ، واصطخب بداخله نوع من الشغف الرقراق ، الشغف الظامى
للمستحيل ، فظن ان باستطاعته أن يحد بعيره فيخب به مسرعا تجاه الافق المنقسم بين

الذهب والفضة ليمسك بقرص الشمس قبل ان يقفز مرتفعاً فى السماء .
ولكن اللحظة الحاسمة فى حياة نيكولا تأتى عندما يفقد طريقه فى الصحراء .
ويظل خمسة أيام يبحث عن الماء فلا يجده ، يقوده سراب يرسم له فى الافق قباباً
ومآذن وأسواراً وبوابات وأشجار كثيفة الاوراق وارفة ، مثقلة بالثمار . ويكتشف
البدوى ايسا مكانه فينقذه ويحمّله على جملة بينما نيكولا فى نصف غيبوبة ، ويسير به
خلال الطرق القديمة التى عبرتها جيوش الفراغة والرومان ، وحيثاً ساروا نحو على
الصخور آثار الكتابات القديمة .
وخلال ذلك كان نيكولا يتغير بشكل جذرى :

« وكان نيكولا يرتجف مهابة وخشوعاً ، وقد استولى المكان على حواسه المضطربة
بالرغبة فى التحليق .. وشعر بأنه يوشك أن يجد مكاناً يرغب فى الانتماء اليه .
« يوشك ان يجد وطناً » .

ان نيكولا بهذا قد دخل فى سياق الصحراء ، مارس فيها الموت والولادة .
ويتعمق هذا التغير فى داخله من خلال موقفين . الأول تعرفه بالبدوى ايسا ، الذى
انقذ حياته بعد أن قاربت على نهايتها . « وكان متأكداً أنه قد اكتسب ايسا أخاً
وصديقاً . » هذا ما تقوله الرواية . ولكننا نلمس عمقا أبعد غوراً لهذه العلاقة .
فعندما حبسا سوياً شعر نيكولا « أنه قد ولد ولادة جديدة . »

وعندما يمشى ايسا على النار ليثبت براءته فان نيكولا يحرق « مأخوذاً .. الى
جوار ايسا فأمسك بقدميه واحتضنهما . كأننا شديدتى السخونة ، كأنهما قد اختزننا
لهب الحمرات وهما هما الان تخرجانه فى صدره ، الى جوار قلبه .

« أى احساس شمولى قد احتواه فى تلك اللحظات الملهمة ، فمزجه بالمكان واذا به
فيه ، فأخذ يهمس فى أذن ايسا المغمض العينين بنجواه وجيشانه » ..
لقد كان صديقه مهندس التعدين ماريو قد اصبح بديلاً لزوجته ايليا . وعندما
جاء ايسا اصبح « بديلاً لماريو ولايليا فى نفس الوقت .. وعاش نيكولا تلك السنوات
فى الصحراء لم يرتجف جسده خلالها بشهوة الجنس .. » .
وعندما مات ايسا عاد نيكولا منكسراً « وكان ايسا يشاركه فراشه الصغير طول
الوقت قبل ان يغلق عينيه » وأخذ يتصوره فى كل المواقف التى رآه فيها . « وحين
اغلق عينيه ودخل فى النوم اختفى ايسا وظهرت ايليا الكبرى زوجته .. ظهرت عارية
كما اعتادت ان تظهر فى لياليهما القديمة » .

اعتقد اننا بهذا قد اوضحنا طبيعة تلك العلاقة العميقة والمعقدة بين نيكولا وايسا .

ان تسميتها بجنسية مثلية كاملة هو تبسيط شديد لموقف يمتزج فيه الابدال بالتكوير
بالبحث عن معنى وعن طوق للنجاة .
ولقد كان موت ايسا اعمق اثرا من حياته في نفس نيكولا . لقد انحل ايسا في
المكان فتم التمازج نيكولا اليه .

والموقف الآخر الذي حسم علاقة نيكولا بالمكان هو التجسد على شكل صخرة للمجد
الاول لقبيلة البجاة » ومن بين هذه الصخور .. كان الماء العذب يسيل زلالا على المساقط
الجنوبية والغربية للجبل . ثم ينساب في وادي عذاب لبروى تلك الغابة الكثيفة التي
لم يقدر على اختراقها انسان الاخر .. حيث تعتقد قبائل البجاة انها مغلقة على روح
جددهم الاكبر القديم كوكا لوانكا . ذلك الذي امضى عمره في كهف عميق داخل هذا
الجبل الابيض يصلي للمكان ويتعبد .. حتى تحول جسمه بفعل الزمن وكثرة العبادة ..
بينما انطلقت روحه تحفر القمم وتجر منها ينابيع الماء .. » .

أن هذا الحلول يرسخ في وعى نيكولا (ولا وعيه ايضا) الى حد انه يمارس
طقسا - فيما بعد - اعتقد انه سوف يحيله الى صخرة ، فهو يدخل في كهف صخري
من كهوف جبل الدرهب منتظرا أن يتجمد ويتحول الى صخرة كما حدث مع كوكا لوانكا
.. يحدث نيكولا نفسه :

« وتذوب كما حلمت في تلك الطبيعة التي سحرتك بروحها الجذابة والوحشية
عن الحضر الذي قدمت منه » ..

« تتييس وتصبح صخرة من الصخور في قلب الدرهب العظيم الذي اعطيته قلبك
وروحك .. »

ولكننا سوف نتبين فيما بعد ان هذا موقف اوربى معاصر اتخذ أطواره من فكرة
الخلاص المسيحية أكثر من كونه نزوعا صوفيا .

ثم تأتي الحادثة النهائية والرئيسية التي تكرر نيكولا للمكان وتقطع صلته
بالاحياء قاصرة تلك الصلة على أرواح الذين ماتوا والتي تخللت المكان . روح ايسا
التي تنبعث من عمق الارض ، من البئر الذي مات في داخله . وروح ايليا . ابتسه ،
التي ماتت في قلب جبل الدرهب . وبين هاتين الشخصيتين يقف نيكولا مصلوبا على
الجبل ، يعاني آلام ورعب خطيئتين : الجنسية المثلية . والزنا بالمحارم .
وقد يشور اعتراض هنا . فان نيكولا لم يرتكب أيا من الخطيئتين ، فيما الذي
يدعونا الى القول انه ارتكبهما . وانه يعاني بسبب ذلك ؟

اعتقد أن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في ان جنون نيكولا وعذابه هما رد فعل

لرغبته العنيفة المؤلمة في كسر هذين المحرمين ، وإن طقوس عذابه ان هي الا محاولة عن التفكير عن رغباته التي تحققت من خلال الابدال - رمز الافعى التي قتلت ايسا - ورمز رأس الجماعة الذي اغتصب ايليا الابنة - .

وفي الرواية حكاية اخرى موازية لحكاية نيكولا : ولكنها اقل توفيقا . لقد كان بإمكانها ان تكون اكثر خصوبة لو أن المؤلف عالجها بأناة اكثر . ونعني بها حكاية عمده كريسشاب مع عروس البحر التي اغوت ابن عمه وابن خاله وأخاه . وفي كل مرة تكرر العروس لعبتها وفي كل مرة تنتصر . انها تختار نزعها الغرامية في وسط ديكور اسطوري الجمال . « يكون البحر منبسطا كمرآة صماء شديدة السكون في هذا المحيط الشامل المضاء بالنجوم » وبينما الرجال مستغرقون في الصيد « وفجأة تبهر عيونهم على صفحة الماء اضاءات قوية مفاجئة » . واذا بشعر عروس البحر طافيا يلتمع ، يتسوج في السكون كنغمة فطرية رائعة ! » .

يجد احد الصيادين نفسه منجذبا اليها ، يقاوم ويقاوم فلا يستطيع ، ثم فجأة يلقى بنفسه عليها فيلتمع شعر العروس المصنوع من اسلاك الذهب حوله وتغوص به العروس الى عالمها ، فيعود الرجال ولا يعود هو أبدا .

وفي المرة الاخيرة ، عندما فقد عبد ربه شقيقه أقسم بين الرجال أن يأخذ نازره من عروس البحر . وواقع الامر ان رغبة عبد ربه في الانتقام لم تكن الا قشرة خارجية . لقد اغوته العروس هو الآخر وما طلبته لها الا استجابة لذلك الانواء الذي لم يكن يعيه ولكنه غلبه .

وتتحقق كل رغبات عبد ربه كريسشاب ، ولكن ذلك يحدث كما في الكوابيس . فلمقد تسببت الانفجارات التي تجريها بعض الشركات للبحث عن البترول تحت ماء البحر الاحمر في مقتل احدي عرائس البحر . ويسحبها المد حتى تقف أمام عبد ربه . اما ذلك الغرام الاسطوري ، البدائي ، الذي اشعلته فيه العروس فيجد نهايته السعيدة عندما تطلب مجموعة من افراد الطبقات العليا وعلى رأسهم الملك من عبد ربه ان (يدخل) على العروس ويضاجعها أمام عيونهم ، فيفعل ذلك ، وينتهي الى الجنون . حتى ادعاؤه بأنه هو الذي اصطاد العروس تنفيذا لعزمه على الانتقام يسرقه الملك منه . فتوضع العروس في منحف الاحياء المائية ويكتب عليها ان صاحب الجلالة هو الذي قد اصطادها .

وفي رأيي ان انحلال الموقف على هذا المستوى الكاريكاتيري قد اهدر إمكانات رائعة يتضمنها الموقف . كما ان توازي هذه الحادثة مع مأساة نيكولا بنانيا وانفصاليا قد خفت وكاد ان يتلاشى . مما جعل هذه الحكاية تبدو وكأنها مقحمة على سياق الرواية .

ان رواية « فساد الأمكنة » هي محاولة متفردة فى أدبنا العربى الحديث كما اعتقد لبعث تجربة صوفية لها تاريخ عريق فى تراثنا الفنى والفلسفى . وتقتصر هذه التجربة على جانب واحد من جوانب النظر الصوفى ونعنى به وحدة الوجود . وهى تتجسد هنا بحلول الانسان فى العالم . وهى بهذا المعنى تقترب كثيرا من الفكرة البديائية التى ترى ان جميع الموجودات مسكونة بأرواح تسيطر عليها - وتسيدها .

يقول ابن خلدون عن هذا الجانب من التجربة الصوفية فى مقدمته :
« ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك فذهب الكثير الى الحلول والوحدة كما اشرنا اليه ، وملاؤا الصحف منه » .

ولكن هذه التجربة تطرح فى رواية « فساد الأمكنة » بمعطيات معاصرة تأخذ اطارها من فكرة الخلاص المسيحى ، كما اشرنا منذ قليل . ان المعطى الأول هنا ، هو قلق الانسان المعاصر الذى انتزع من جذوره واطمئنانه ومنع حرية لم يعد يعرف ماذا يفعل بها . ان أحد الاستجابات الانسانية لهذا القلق هو رغبة الانسان ان يتحول الى شئ ، كما احس ماتيو فى رواية سارتر « دروب الحرية » عندما وقف فوق الجسر يطالع اندفاع المياه تحته . وبكلمة أخرى ، ان هذا الدوار الذى يصيب انسان العصر يجعله يحلم بالتوصل الى سكنوية وثبات يصبح فيهما - فى التحليل الاخير - جزءا من الطبيعة . ولكن انسان العصر عاجز عن تحقيق هذا المسعى الا عن طريقين لا ثالث لهما ، وهما : الموت أو الجنون . ان كلا منهما تلاؤم مطلق مع الطبيعة وانهاء لشرد تلك المادة الغريبة - الانسان - التى وعت موتها وحاولت جاهدة ان تتخلص من قانون الطبيعة . ولهذا السبب ذهبت جهود نيكولا فى الحلول عبثا ووقف متأرجحا بين العزم على انهاء حياته وبين الجنون . لم يكن اعداده العصرى من ناحية ، والتغرب الذى فرض عليه منذ الطفولة أن يجد مكانا يرسى فيه جذوره على هذا النحو الشعائرى المتخلف . وتختلف تجربة نيكولا اختلافا جذريا مع التجربة المسيحية وهى تجربة التضحية بالذات والحلول فى اجساد الآخرين لتطهرهم من ذنوبهم :

« وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا . هذا هو جسدى . وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم . لأن هذا هو دمي للعهد الجديد الذى يسفك من أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا .. » .

وهذا الطقس ، الذى تحول فيما بعد الى طقس القربان المقدس يحمل المعنيين : معنى الحلول حيث يمتزج جسد متدقق القربان بجسد المسيح ، ومعنى غفران الذنوب . ولكن نيكولا الذى يجسد فردية العصر كان يبحث عن خلاصه الذاتى لا خلاص

الآخرين ، فلذا كان يهدف الى الحلول الطبيعية . وخطيئة الاصلية هي أنه أكل من شجرة معرفة الخير والشر فطرد من جنة التلاؤم مع الطبيعة الى عذاب معرفة الخير والشر وبالتالي الانفصام عن الطبيعة . هذه هي خطيئته الحقيقية التي جسدها بذلك الوهم بأنه ضائع ابنته .

كم هو باطل سعي نيكولا وغير مجد عندما يهجم في شرنته الصخرية منتظرا ان يتحول الى صخرة .

ولأن هذه الرواية امكانية ممتازة وبسبب التميز الذي عالج به الاستاذ صبرى موسى موضوعه فلا بد ان نحاسبه حسابا عسيرا على بعض التناقض التي أضرت بهذا العمل وافسدت بعض مزاياه .

ان موضوع الرواية هو علاقة الانسان بالكون ، أو بشكل أدق وضعه فيه . والرواية محاولة اسطورية - مأساوية لتجاوز الموقف الانساني . وهي لهذا اتخذت من الاسطورة اطارا وخلفية . وقد لعب اسلوبها الثوراتى الفخم ومجازاتها المستمدة من التراث الدينى دورا عاما كمنصر بنائى . ولقد نجحت الرواية فى هذا الغرض بشكل عام . غير اننا فى بعض الاحيان نجد الكاتب ينسى ذلك كله ويحاول ان يجعل الاسطورة مبررة علميا بمصطلحات علم النفس . وكأنه بهذا يقدم اعتذاره عنها . وفى هذا نشاهد ثنائية فى البناء تسمى كثيرا الى هذا العمل الجيد . وقد اتينا بمثال على ذلك فيما سبق عندما تحدثنا عن حكاية عبد ربه كريشاش مع عروس البحر .

ان الاسطورة تفسير شامل للحياة والكون ، وتحتوى فى داخلها على شمولية التجربة الانسانية . ولكننا عند تحويلها الى علم وضعى يدرس زاوية واحدة من زوايا التجربة الانسانية فنحن نفقد الاسطورة شموليتها ومخاطبتها لعمق التجربة الانسانية الكلية .

والاسطورة تتجسد فى طقوس وشعائر لا فى تفاسير العلم الوضعى . ومن هنا كان الوعى بالاسطورة هو تجاوز لها . ولكننا نجد نيكولا يعى بوضوح ومنطقية طيلة الوقت بأنه يجسد اسطورة وتصبح رغبته فى الحلول والتواجد مع الوجود موضوع تجارب معملية :

« استيقظ نيكولا وفتح عينيه فلم ير غير الظلام مطبقا حوله . . واكتشف ان عظامه قد تيبست حينما حاول تحريك قدميه للتهوض وقد سرت فيهما برودة نفاذة . . لقد بدأ الامر بتقديم وسائك وكفيك وسوف يسرى التيبس فى ذراعيك ويتسلسل منهما عبر جسديك كله فصيح متبسم . . وتذوب كما حلمت فى تلك الطبيعة التي سحرتك . . »

وينجم عن هذا ، الى حد بعيد ، خطأ جمالى آخر ربما جعل بعض اجزاء هذه الرواية اقرب الى الريبورتاج اذا تجارنا هنا عن جلال الاسلوب . وذلك عندما تتحول التجارب فى العمل الفنى الى مجرد امثلة يخضعها الكاتب الى تحليل مطول يفسر الدلالات ويشرح المغزى . من ذلك مثلا حلم نيكولا عندما يرى نفسه فى حمام تركى عازيا مع ابيه وينتهى الحلم بمحاولة ان يضاجع ثاة يكشف انها ابنته . ان الكاتب هنا يفسر الحلم بأن مشهد الحمام التركي هو تعبير عن رغبة نيكولا فى البراءة . وقد حملته البراءة الى تصوع الصحراء ووضوحها الخ . ورغم ان هذا التفسير لا يتسق مع أى من مدارس علم النفس فى تفسيرها للحلم . ولكن ما يعيننا هنا هو ان الدلالة طمعت على الحلم . وان الحلم اصبح مجرد مثال توضيحي .

وفى واقعة عبد ربه كريشاب وعروس البحر حدث تسطيع لبناء اسطورى رائع هو جوهر المضمون الفنى من خلال التحليل وذلك لسببين :

الاول : ان المؤلف قد اختار من التفاصيل تلك التى تجعل من عروس البحر مجرد سمكة كبيرة ، فتلاشى بهذا البناء الاسطورى الذى ينفذ الى عمق علاقة الانسان بالطبيعة وتحول الى مجرد فكاكة .

الثانى : ان الكاتب قد جعل عبد ربه يضاجع السمكة استجابة لرغبة الملك بينما هذه الرغبة موجودة عند عبد ربه كريشاب فى الاسساس . تنبئها من خلال منطلق الاسطورة ذاتها ، ومن خلال كون هذه الواقعة موازية لمأساة نيكولا .

ونستطيع أن نقول نفس الشيء عن التحليل الذى تورده الرواية لتفسير اندفاع أحد الصيادين من مركبه نحو عروس البحر . فهو يفسر ذلك بأنه اشسبه بالتوبم المغناطيسى منجاهلا الجذور الاسطورية ، مما ادى الى افقار هذا الجزء من الرواية .

وبكلمة أخرى فأننا هنا نشهد أن ما هو جوهرى يتحول الى مجرد مثال توضيحي . وتحولت الاحداث ، فى بعض الاحيان ، الى برهان على مقولة . ومثل هذا الموقف مقبول فى مجال توضيح الانكار . لا فى مجال التجسيد الفنى .

ولهذه النفا الوضعية مقتل خطير آخر ، وهو ان الظاهرة الفنية - مثلها مثل وقائع الحياة اليومية دون ان يكونا متطابقين - لا يمكن ان يستنفذها تفسير واحد حتى ولو كان هذا التفسير من صنع المؤلف نفسه . لقد وضعت عشرات التفسيرات لشخصية هاملت تذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : تفسير ت . س . اليوت ، وتفسير ارنست جرونز ، والتفسير الذى قدمه الفيلم السوفيتى الشهير لشخصية هاملت وتفسير برادلى ، وتفسير سدنى فنكلشناين وغيرها . . . وجميع هذه التفسيرات قد تلقى اذواء على شخصية هاملت ولكنها لا تستنفذها ، فما يزال هاملت تحديا مفتوحا لكل

فنان أو دارس ليعيد تفسيره وسوف يظل كذلك أبدا .

ونأخذ على هذه الرواية ان تلك اللغة الشعاعية الجميلة ، التى تنبعث بتوهج خاص نتيجة لصياغة جديدة للجملة ولاختيار تلك الالفاظ التى لم يقتلها التداول . . ان هذه اللغة تتحول فى احيان كثيرة الى شرك ، فتصبح الاستعاره أو المجاز منطلقا للاستطراد ناسيا ان نقطة الانطلاق الأولى والاساسية هى الشخصيات والاحداث والمواقف . وسوف أورد مثالا على ذلك يوضح ما اعنيه :

« ايليا شهوة جامحة . . كما ان الجبل شهوة جامحة . . ما الغريب فى أن تتكرر داخل جسده تلك الرغبة حين يقف فى قلب الدرهب العظيم . . فى السرايب الحارة والسرايب الباردة . . يتحسس الجدران البكر مختبرا طراوتها . . محسدا بالطباشير الابيض علامات لعماله ليثقبوها بآلاتهم . . ويحشروا فى بكاراتها اصابع دثفجراتهم » .

« كانه فعل جنسى من أفعال الاخصاب .

« ألسنت نخصب الآن هذا الجبل فعلا يا نيكولا ؟

« وما انزالاك الدؤوب فى رحم هذا الجبل سوى سعى لزرعه وايلاده ؟ . .

« وينتبه نيكولا ، بينما يغطيه تراب التفجيرات الداخلية التى تهتك بكارة الصخور الى ان الدرهب أصبح بديلا لايليا . . زوجته . . » .

ونحن نعلم من الفصول السابقة واللاحقة ايضا ان عزوف نيكولا عن زوجته ، متجاوزا البحث عن بديل لممارسة الجنس مع زوجته . كما نعلم من سياق الرواية ان الجبل لم يكن بالنسبة لنيكولا تعبيرا عن محاولته لتحقيق الارتواء الجنسى ، بل تكاد تكون عكس ذلك تماما :

رسوخ صوفى وامتداد فى الطبيعة .

واعتبار الجبل جسدا يمارس نيكولا فيه الجنس لا يمكن ان يكون تفسيرا لعزوفه عن زوجته ولا يمكن ان يكون الجبل بديلا لها (أو هذا على الاقل ما تقوله الرواية عن سبب انصراف نيكولا عن زوجته فى الفصول الاولى) . اننا نعلم ان الفرويديين يفسرون قيادة السيارة بأنها عملية جنسية رمزية وبديل جنسى . ولكن لا أحد يستطيع أن يزعم ان قيادة السيارة تغنى عن ممارسة الجنس الحقيقى ، أو أنها حتى تخفف من رغبة الجنس .

هنالك أيضا نقص آخر فى الرواية عجزت عن قبوله . ففى الوقت الذى نجح فيه الكاتب فى تصويره لشخصيات مثل نيكولا والشيخ على وايسا وعبدربه بحيوية

واقناع عجز عن تصوير شخصيات الملك والباشا والخواجه وأنطون وأقبال هانم وغيرهم من شخصيات الطبقات العليا . ان الشخصيات هنا تتسطح ، وتصبح نمطية ذات بعد واحد . لا تعاني أى نوع من الصراع . ويتضح من قراءة الرواية ان سبب ذلك يعود الى انطلاق المؤلف من موقف اخلاقي .

ان الاستاذ صبرى موسى يلجأ الى التبسيط المبالغ فيه ، فتصبح الشخصية واعية بالخطاها ، تقبله وتسلك على اساسه دون محاولة حتى للتبرير الدائى . وان وجدت امثال هذه الشخصيات فمن المستحيل علينا ادانتها ، وبهذا يصبح حكمنا الاخلاقي عليها ناقصا وغير منطقي .

والفنان يتجاوز الحكم الاخلاقي حين يخلق فنا ، لأن الفن خلق والحكم الاخلاقي هو رؤية جاهزة نحو موقف من وجهة نظر الجماعة . وكما ان للعمل الفنى منطقه الخاص المختلف عن منطق العرف الاجتماعى له ايضا اخلاقيته الخاصة . ان مدام بوفارى مدانة اخلاقيا بحسب العرف الاخلاقي ولكنها فى داخل رواية فلوير شخصية انسانية فاجعة ، كانت ضحية لزوج بليد ومجتمع راكد . ويمكننا ان نقول نفس الشيء عن شخصية (كادى) فى رواية فوكنر (الصخب والعنف) .

وبكلمة اخرى فان الشخصية المدانة يظل لها وجهة نظرها وتبريرها لسلوكها الذى يختلف عن حكمنا الاخلاقي عليها ، وعلى حكمنا الاخلاقي حتى التابع من العمل الفنى . ان الشخصية الانسانية فى الفن اكثر تعقيدا وخصوبة من ان تكون مجرد فعل خاطئ يستحق ادانة بسيطة .

ان اغواء ايليا تضاجع الملك بواسطة وصيف الملك الخاص لا يمكن تفسيره عند ذلك الوصيف بقولنا « فجرى عقله المدرب المأجور مجراه المتوقع والمعتاد .. » .

هذه الرواية كما قلت عمل متميز ، وهى نتاج جهد جاد ومخلص ، وهى قد طرحت بأصالة ومن خلال تجسيد فنى جيد مشكلة انسان العصر ، أو على الاصح مآزقه . فلم يكن نيكولا مجرد رمز لازمة يعيشها الانسان الغربى ، بل هو ايضا شخصية نابضة .. حية تطرح فى نفس الوقت أزمتها الخاصة وتسعى حتى الموت لحلها .

ان انسان العصر عاجز عن تحقيق السعادة من خلال دموية الصراع فى مجتمع المشروع الحر ، وفى الوقت ذاته فان عودته الى الماضى ، الى جنة عدن المفقودة ، وبالتالي الى سكونية ينسجم فيها مع الطبيعة والعالم مستحيلة ايضا .

اننا بالطبع قد نعمتض على وضع الانسان امام خيارين لا ثالث لهما ، وكلا

الخيارين مؤلم و رهيب ، ولكننا نستطيع ان نستنبط قيمة ايجابية من مجرد هذا الرفض .

واذا جاز لنا قد ان يضيف الى تقييمه للعمل الفنى امنية ، واذا جاز له ان يطالب بأن تتحقق هذه الامنية فأننى اتمنى لو أن الاسطورة فى هذا العمل كانت فى الخلفية (كما حدث فى الكثير من الاعمال الفنية الكبرى : « الشمس تشرق ايضا » لهينجواى ، « الارض الخراب » لايلىوت ، « المسيح يصلب ثانية » لكازنتزاكس ، « موبى دك » ليلفل وغيرها) ولو ان الكاتب قد ركز على عينة تلتقط الوقائع وتصيغها دون تفسيرات وضعية تبرر ما لا يمكن تبريره الا اذا أدركناه بشموله ولغته الخاصة واعنى به الاسطورة .

ان الرواية ترتفع فنيتهما عندما يدع الكاتب عينه وتلقائيته تعبران . مثال ذلك وصفه لأول دخول لنيكولا الى عالم الصحراء :

« وعلى طول الطريق الذى قطعوه بين الجبال فى ذلك الصباح القديم مروا بشجرتين أو ثلاث » .
« الشجرة تكون وحيدة فى الارض القفار فتصبح ظلا ، فيفىء البدو بأغنامهم تحت هذا الظل وقيمون مسكنا من الحيش ، يهدمونه ويرحلون حين تعجز الاغنام عن ايجاد ورقة خضراء تأكلها » .

« ومن خلال الظل هذه ، كان يخرج لهم بين الحين والحين مخلوق يعترض الغافلة وذراعه على عينيه .. ويهمهم بلغة غير مفهومة وهو يلوح بسيفه الطويل الصدى .. فيصب له الشيخ على قليلا من الماء فى وعائه ، ويعطيه سيجارة ، فيقضى الرجل على الارض ويأخذ فى التدخين بنهم .. » .
لقد حزننا بالفعل لان هذه الطراجة انتقدت فى بعض اجزاء الرواية ، وغلبها طابع ذهنى تحليلي .

واتمنى كذلك لو ان الكاتب احيانا لم تأسره خفة ولباقة التعابير الصحفية ، فلا تلد ايليا طفلة لجرد ان تكرر نفسها . أى ان لا تبهره حلاوة العبارة فيستغنى بها عن اللغاذ الى موقف شديد التعقيد والخصوبة .

د. مجاهد عبد المنعم مجاهد

نشر هذا الحوار في مارس عام ١٩٧٥
بالمسند (١٥٧) من مجلة المصرفة ،
السورية ، وقد نشر معه مقال تحليل
للدكتور مجاهد بعنوان « الشكل مع
المضمون ، ملتجما » نشره ايضا بعد هذا
الحوار .

ليس فوز صبرى موسى بجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٧٥ مجرد حدث عادى مما
يتكرر كل عام . فان تكريم صبرى موسى هو تكريم لجيل كامل هو الجيل الذى سقط
بين الجيلين ، الجيل الذى تفتح ابداعه مع بدء الثورة المصرية فجاء جيلا له طابع
خاص . . لقد تفتح فى ظل اللبرالية ، وفى الوقت نفسه كان يستشرق أبعاد التغيير
الاجتماعى ، وكان نواة ابداع خاص ، وكان ملهما لجيل بعده . . وسقط هو بين
الجيلين . . انه جيل صبرى موسى وبدر نشأت وفاروق منيب وعبد الله الطوخى
وصالح مرسى وكامل أيوب وسيد جاد ونجيب سرور . . انه الجيل الذى ركز على
الفن والابداع ، ولم يركز على تنسم المناصب الاجتماعية فلم يتمتع بشهرة كافية ،
مما ألقى بظل على تجربته الابداعية فأجهدها ، ولم يجعلها تكتمل تماما . . وانتهى
اما بالصمت ، واما بالابتعاد ، واما بالتغرب . . ولم تبق الا قلة قليلة تجدد فى

ضمت وأخلاص . ومنها صبرى موسى الذى توج شسوط ابداعه منذ مجموعة قصصه القميص عام ١٩٥٨ برواية فساد الامكنة عام ١٩٧٣ ، وقد آن نتعرف على الفنان من داخله ، فكان هذا اللقاء .

● د . مجاهد : فلنبدأ من جبل الذهب .. الاطار الذى تجرى من خلاله أحداث الرواية .. نريد أن نعرف بشئ من التفصيل ، كيف نبتت فكرة رواية فساد الامكنة ؟ ..

صبرى : فى الحقيقة سنجد صعوبة فى اختيار التفاصيل التى تجيب على هذا السؤال .. فقد ظلت الرحلة للصحراء تستهوينى منذ وعيت أن مصر بلادى منتزعة من برائن تلك الصحراء انتزاعا (هبة النيل) .. وكم كانت دهشتى وأنا أراها من مقعدى فى السماء داخل طائرة .. شريط رفيع طويل اخضر ، لا يكاد يرى وسط مساحة هائلة من اللون الاصفر الصخرى .

وقد كانت رحلتى الصحراوية الاولى ، فى الخمسينات (١٩٥٨) تجاه الغرب وراء السلوم وحدودنا مع ليبيا .. وبدت لى الصحراء الغربية آنذاك جيرية بيضاء تبدو فقيرة عاطلة ازاء البحر العظيم الابيض .. ولا أظننى قد كتبت بعد تلك الرحلة سوى بضع مقالات تتناول بالاشفاق حاجة سكان تلك الصحراء للاهتمام والرعاية .

وفى الستينات (١٩٦٣) زحلت الى الصحراء الشرقية ، فيما وراء اسوان والسد العالى وحدودنا مع السودان .. رحلت أكثر من مرة بأكثر من وسيلة .. مرة بالنظار حتى قفط ، ومنها بالسيارة - عبر طريق الحج القديم - الى القصير على البحر الاحمر ، ثم مرسى علم وابو غصون ، الى الصحراء الحقيقية .. ومرة أخرى بالسيارة مباشرة من السويس بحذاء البحر الاحمر حتى برانيس فى أربع وعشرين ساعة ، اشترت بعدها سجانرى من قرية حلايب المصرية السودانية التى تنزوى على شاطئ البحر الاحمر خارج نطاق الحدود الدولية .. وخارج نطاق الزمن .. حيث باع لى سجانرى الامريكية الحديثة المستوردة مخلوق أسمر فى ثياب بيضاء ، يضفر شعره على طريقة فراعنة طيبة القديمة !

ومرة ذهبت بالطائرة .. حملتنى من القاهرة ذات فجر ، واستقطننى بعد ساعتين ونصف ، فى قلب الصحراء عند حماطة ، وهى نقطة صغيرة للأمن والاتصالات اللاسلكية ، تبعد ساعة وربع ساعة بسيارة النقل القديمة عن جبل الذهب ، حيث كان مقررا مبيتى فى معسكر خشبى مهجور ، يخض منجما قديما عاطلا عن العمل . وأعترف لك أننى لم أجدا أبدا فى هذا الجبل ما يميزه عن غيره من الجبال الأخرى ، سوى اسمه غريب الايقاع والتكوين .

لقد ظل هذا الاسم يلج على خيالى طوال ارتحالى فى الصحراء ، وكأنما هو لغز مهيب تلقيه الطبيعة عبر طريقى يعترضنى ويطالبنى بتفسيره ..
وتضاف الى هذا اللغز تلك المعطيات البكر التى منحتها لى الطبيعة عبر الرحلة واهمها ، الاحساس الغامر الحقيقى بجسدة كل شئ وبكاراته .. وكأنما العالم يوجد فى تلك اللحظة فقط بالنسبة لى .. رغم قدمه الشديد .. مما يعطينى الحق بأن أصنع له قوانينه وقواعده لأبدا فى تشكيله على هواى .. وأبتكرك له مخلوقاته وسكانه .. فكيف اذا لا تنبت فى داخلى فكرة هذه الرواية ؟

● د . مجاهد : وهل مازالت للدرهيب فى نفسك بقية ، يمكن ان تصلح موضوعا لعمل فنى قادم .. ؟

صبرى : أحيانا يخيل لى أن الدرهبى فى فساد الامكنة قد تحول الى رمز للارض بشمولها ، وأن نيكولا يجتهد على طريقته ليكون الانسان فى شموله .
وقد اكتفت فساد الامكنة بأن تضع نيكولا فى مواجهة كل الاسئلة التى يطرحها الدرهبى حول فكرة الوطن والزواج أو الاسرة .. والجنس والعمل والصدقة .

وقد بدت الاسئلة التى يواجهها نيكولا ، عنيدة وقاسية لدرجة أنه يسلم بعجزه فى النهاية .. ويرغب - هربا من هذا العجز - أن يتحد بالطبيعة الام ، فيصبح حجرا أو صخره من صخور الجبل .. ويصبح بالتالى قويا وعظيما مثل الطبيعة .

وعلى هذا الاساس اعتقد أحيانا أن التصميم الفنى فى فساد الامكنة ، لم يترك لى فى الدرهبى بقية لعمل فنى قادم .
ومن يدرى .. فبالنسبة لى ، فان أبشر ولد ايسا البدوى ، ما يزال يوجد فى ذاكرتى الفنية ، ويلج عليها بين الحين والحين .
د . مجاهد : لقد خيم على الرواية جو الاسطورة والجنس والموت .. فهل هناك تأثيرات لاعمال كازنتزاكس وهيمنجواى والطيب صالح ؟

صبرى : أنا معجب بهؤلاء جميعا .. وبغيرهم أيضا .. لكننى أحب بتحيز كل الاساطير القديمة ، واعتقد انها أثرت فى منهجى واختيارى .

● د . مجاهد : لقد بدأت بالقمص ، وهو مجموعة قصص قصيرة .. فكيف حدثت النقلة عندك من القصة القصيرة . الى الرواية .. وما هى مراحل تطوورك الفنى .. ؟

صبرى : القصة القصيرة لم تكن البداية .. لقد بدأت رساما ونجحت الى حد ما .

وحينما فشلت في الشعر حاولت القصة القصيرة .. وحين جاء زمن السفر والترحال استهوتني محاولة تسجيل الرحلات .. كانت بالنسبة لي تعمقا في معسرفة الارض والناس ، ومهربا من نوعية العمل والحياة المعتادين .. ولعل ذلك هو ما قادني الى الرواية .. وقد استهواني فن السينما أيضا ، فكتبت عددا من السيناريوهات .. قنديل أم هاشم ، البوسطجي ، الشيماء ، رغبات ممنوعة ، رحلة داخل امرأة .. ثم عدت من جديد للرواية واوشك أن أنتهى هذه الايام من رواية (السيد من حقل السبانخ) .

● د . مجاهد : يلاحظ بصفة عامة في انتاجك اهتماما شديدا بالصورة ، والصياغة الفنية - كيف تكونت هذه الخاصية المميزة لديك ؟ وهل تنميتها بشكل واع ؟

صبرى : لقد بدأت كما قلت رساما ، وقد حاولت الشعر ، وهما فنان يعتمدان اعتمادا جوهريا على الصورة .. ثم ان الحياة كلها صور .. أما الصياغة عندي فهي محاولة التعبير بهذه الصورة ، التي تقول كل شيء بأقل الكلمات الممكنة ، ولكن المشكلة دائما في اختيار هذه الكلمات فان كثيرا من الكلمات التي تستخدم قد فقدت معناها الجوهري الحقيقي من كثرة الاستخدام .. وأنا أدرب نفسي باستمرار على لعبة الكلمات شدة . فأعيد ترتيبها وتشكيلها بحيث تبدو جديدة وتكتسب قدرة على الابهام ، والايحاء .

● د . مجاهد ، بمناسبة الحديث عن الصور ، يلاحظ أن الصورة عندك ذات طابع شاعري .. فما هي علاقتك بالشعر ، وهل يمكن للفن القصصى أن يستفيد من الشعر ؟

صبرى : مازلت أطمح أن اكون شاعرا ، واعظم القصص تأثيرا ، سوف تجد روح الشعر في صياغته ..

● د . مجاهد : ماهي المكونات الخاصة التي جعلتك تفلت تماما من اسار تعيب محفوظ ، يوسف ادريس ، انطون تشيكوف ، الذين دمجوا معظم كتاب القصة من جيلك تماما - من ناحية الشكل والمضمون - بطابعهم ؟

صبرى : أنا رغم كل شيء قليل الانتاج ، ولعل هذا يعطيني فرصة البحث والاختيار والتجديد المستمر .. وحتى في مجموعاتي القصصية القصيرة التي جاءت بعد القمص « حكايات صبرى موسى » و« مشروع قتل جارة » ، سوف تجد ان كلا منها قد افلحت من اسار سابقتها ، واختلفت عنها . وكذلك أيضا تختلف فساد الأمكنة كرواية ، شكلها الفني ومضمونها عن

سابقتها : « حادث النصف متر » .. ولسوف تختلف كثيراً « السيد من حقل
السيانج » عن سابقتها « فساد الأمكنة » .



تطرح أعمال صبرى موسى كلها ورواياته الاخيرة « فساد الامكنة » بصفة خاصة
قضية جمالية : هل الصورة الفنية هي مجرد جزء من الصياغة الفنية أم انها هي لب
العمل الفني ؟

ب
بشكل اخر : هل الصورة مجرد تجسيد للعمل الفني لابرار مضموه أم هي
المضمون نفسه ، واننا اذا جردنا العمل الفني من هذه الصورة لم يبق منه ولو حتى
هيكل واحد يشير الى الفن ؟

وطرح هذه المشكلة بهذا المنظور انما يكشف عن بعد آخر فى القضية ، بعد
حضارى ، اذ كيف استطاع صبرى موسى (الا) يدخل تحت مظلة نجيب محفوظ
الذى دمج جيل صبرى موسى فى غالبته بطابعه الاجتماعى فى الابداع ؟
كيف شد صبرى موسى عن جيله المتأثر فى النص القصيرة بفن أنطون تشيكوف
الذى يجد وجهه المصرى عند يوسف ادريس ؟

فلنتأمل هذه الصورة الواردة فى الرواية : « فيتداعى الى ذهنه مشهد قديم
لزوجة هذا الباشا المسماة اقبال هانم التى تصغره بواحد وعشرين عاما .. شبه
عارية على رمال مرسى علم الساحلية ، ممددة بجسدها اللدن المعطاء أمام ماريو الجالس
بحوارها شبه عار هو الآخر .. يجمع قواقع البشيش الدقيقة الحجم الشموجة الالوان ،
ويرصها جامدة ساكنة على الجسد الانثوى العارى ، فتتلاها فى وهج الشمس الغاربة
كانها فصوص من جواهر تزيينه وتزيده فتنه ، فما تلبث الحيوانات اللزجة الدقيقة
المختبئة فى تلك القواقع ان تظمن للدفع المنبعث من حرارة اللحم . فتخرج اقدامها
الهلامية وتزحف بقواقعها على جسم المرأة ، بنشاط وسرعة هنا وهناك ، حول الرقبة ،
والشدين ، وفوق البطن ، وداخل السرة . كأنما قد دبت الحياة فى القواقع فجأة ، بينما
تتلوى اقبال هانم مددغة مثارة ، تصرخ وتضحك ويختلط ضحكها بصراخها فيخرج
من فمها الشهوانى على ذلك الشاطئ البكر مزيج من الرعب المصطنع واللذة .. » !

هل هذه مجرد صورة منتزعة من الواقع فحسب ؟
أم هي القدرة على التشكيل الفني بحيث أصبح الواقع اسطورة والاسطورة واقعا ؟
لسنا هنا أمام الممكن المستحيل النادر الحدوث كما يظن بالفن عادة ، بل نحن أمام
المستحيل الممكن وأمام فن فحسب ، بل نحن أمام اسطورة فنية أو فن أسطوري .
فهل مثل هذا التشكيل يصلح له البعد الاجتماعى ؟

ولقد أدرك المؤلف تنافر التجسيد الفنى الاسطورى مع البعد الاجتماعى المباشر فلم يأخذ منه سوى قشرة رقيقة .. ولقد تمازج طريقه الفنى مع البعد النفسى أساسا ليكون كل هذا لا فى أمكنة واقعية تماما ، بل فى أمكنة تكتسى هى الاخرى بذلك الطابع الاسطورى الذى يشكل جوهر فنه وأسلوبه الادبى .

وأين يمكن العثور بمثل هذا المكان الاسطورى الا فى جبل حيث عمليات التعددين وحيث البشر متحدون مع الطبيعة ومغتربون عنها فى وقت واحد ، وليبرز هذا أيضا بشكل أكثر عمقا مع بطل أسطورى هو الآخر ، ولا يمكن أن يتهيا هذا إلا بانسان مقتلع من جذوره غير ثابت نباتا طبيعيا فى أرض المكان وانما هو مقيم اقامة مصطنعة .. انه المقيم العابر والعابر المقيم ، مغترب فى عواطفه وفى مصيره .
وهكذا حتم التجاء المؤلف الى هذا الاسلوب فى عرض الصورة الى أن تكون هى نفسها محتوى العمل الفنى بحيث جاء هو الآخر تشكيلا اسطوريا .

وارتسمت الصورة البانورامية للرواية : جبل الدرهبى بدماليزه وصخوره وتاريخه العريق وكنوزه ومعادنه قرب الحدود المصرية السودانية فى الصحراء الشرقية .. ليس مجرد جبل مادى ، بل هو أيضا أسطورة .. فقد كان الدرهبى « هلالا عظيم الحجم . لايد أنه قد هوى من مكانه بالسماء فى زمن ما ، وجثم على الارض منهارا متحجزا يحتضن بذراعيه الضخمتين الهلاليتين شبه واد غير ذى زرع ، اشجاره تنوات صخرية وتجاويف ، احداثها الرياح وعوامل التعرية خلال آلاف السنين» (ص ٧) وهذا الجبل يحمل فى باطنه فى آن واحدة : المادة والاسطورة تجسيدا للحضارة والجشع معا ، وهو مقبرة لزعيم المتصوفين أبو الحسن الشاذلى : مقبرة مرت وخلود معا .

وهكذا تقع فى هذا الجبل الاحداث الاسطورية .

فالمؤلف يعي محتواه وتشكيله معا .. ولهذا تنتهى الرواية بنيكولا غارقا فى الحمر وسط الامكنة الفاسدة « يقع مستندا بظهره الى صخور الدرهبى التى بدأت فى التشقق . حتى يظهر فى شرق السماء كوكب المريخ باحمراره القرنفل الخفيف مطلا فوق جزيرة العرب ، ويبدأ المشتري يتأرجح بعيدا فوق الصحراء الكبرى .. فيسبح عقل نيكولا فى الملكوت » .

وهكذا يستعيد صبرى موسى للعمل الفنى أصالته بأن يكون متميزا يستحضر شخصية مؤلفه وهى مهردة غير متكررة .. ويستعيد للعمل بعض عتامته التى افتقدها طوال جيل كامل من القصاص المصرى الغارق فى شدة الوضوح .. ويستعيد لنا أن العمل الفنى هو أولا وقبل كل شئ عمل فنى قبل أن يكون رؤية اجتماعية ، وأن

العمل الفني هو الكلى من خلال الجزئى .. انه البحث عن خطيئة نيكولا المغترب
المتوحد .. انه المتناهى من خلال اللامتناهى .. انه الخطيئة والتكفير معا .. انه العجز
ازاء اسرار الحياة .. انه الانسان الضائع وسط لاتناهى الطبيعة التى هى مقبرته
ومفخرته معا .. التى هى عامل انتصاره وانهزامه فى وقت واحد .

وهكذا بصبرى موسى ينشأ وضع : ليس المهم فقط أن تكون فنانا بل المهم أيضا
أن تعى أبعاد هذا الفن ، أى أن ترسم له تخطيطاً وأن تكون على دراية بتشكيله
وصياغته وتجسيده وإبرازه .. و « فساد الأمكنة » ليست فحسب عملاً روائياً رائعاً
دا ملامح خاصة ستتحفر فى مجرى التاريخ الأدبى لمصر الحديثة ، بل الرواية عمل فنى
يتبر قضايا جمالية وربما تكون بذرة دراسات نقدية وفنية جديدة ، وتتيح للنقد وعلم
الجمال فرصة طرح قضايا متنوعة .. ان « فساد الأمكنة » تؤكد المقولة الهامة .
ان العمل الفنى العظيم هو ملهم الدراسات الفنية والجمالية العظيمة .. وسستظل
خوائسها الفنية الجمالية أخصب من أية دراسة نقدية عنها ، بل هى بكل أبعادها
السيكولوجية واليتافيزيقية ستكون منطلقاً جديداً فى الرواية المعاصرة .



صدر للمؤلف :

- القميص قصص قصيرة
- حادث النصف متر رواية
- فى الصحراء تسجيل رحلة
- حكايات صبرى موسى حكايات دنيوية
- مزدحمة بالحوادث ، والمفاجآت ، حكاية للضحك ، وحكاية للبكاء .
- فى البحيرات تسجيل رحلة
- وجهها لظهر قصص قصيرة
- مشروع قتل جارة قصص قصيرة
- فساد الأمكنة رواية

تحت الطبع :

- ملاحظات زائر مبتدىء تسجيل رحلة
- السيد من حقل السبانخ رواية
- آدم ذو الألف وجه صور للرجال عن قرب

كتب المؤلف تطلب جميعها من مكتبة روز اليوسف
شارع أمين سامى بالمنيرة . القاهرة